السلطان

حسين كامل

فترة مظلمة في تاريخ مصر

تأليف

محمد سيد كيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

دار الفرجاني

القاهرة . طرابلس . لندن

السلطان
حسين كامل
فترة مظلمة في تاريخ مصر

تأليف

محمد سيد كيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

دار الفرجاني

القاهرة . طرابلس . لندن

إهداء الكتاب

إلى العميد المتقاعد الأستاذ يوسف السباعى

رأيت أن أهديكم كتابى هذا بالقصيدة الآتية ، وقد أضفت إلى شخصيتكم الأدبية التى اشتهرتم بها شخصية أخرى عسكرية استوحيتها من الخيال . أما القصيدة فهى :

أهدِى الكتاب إلى حِمَى الضرغام ... سبع السباع وساكن الآجام
سبع السباع وخير فرسان الورى ... هو يوسف المعروف بالإقدام
فيه الحقائق والرقائق تنتهى ... بلطائف التوفيق والإلهام
يا خير من نفثت به نفاثة ... أو طار صاروخ إلى الأجرام
يا خير من دبت به دبابة ... أو بث ألغاما إلى ألغام

* * *

خذها إليك أبا السباع وإنها ... لقصيدة كالفاتك الصمصام
فتكت بتوفيق الحكيم ومزقت ... ما يدعى من باطل الأوهام[1]

(١) من الأوهام الباطلة التى نشرها توفيق الحكيم ما يتناول العنصر العربى بالزراية والتحقير . وقد ردد كالببغاء ما كتبه بعض خصوم العرب فقال « كل تفكير العرب وكل فن العرب فى لذة الحس والمادة . لذة سريعة منهومة مختطفة اختطافا ، لأن كل شىء عند العرب سرعة ونهب واختطاف . عند الإغريق الحركة أى الحياة . وعند العرب السرعة أى اللذة » وقال عن العرب « كل شىء يحسونه إلا عاطفة الاستقرار ، وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ! دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ، ولا تفكير عميق ، ولا إحساس بالبناء . لهذا السبب لم يعرف العرب البناء سواء فى العمارة ، أو فى الأدب أو فى النقد » =

حقا يكون وإن ذاك لكائن لابن الحكيم الرّكل بالأقدام
ساءت طليعته وضل صوابه وأصيب من خلف ومن قدام

* * *

أدبت قطمان اليهود بهمة ورجعت منصورا بضرب الهام
وغزوت فى أرض المعاد مجاهدا يا خادم الإيمان والإسلام
فكأنك المأمون فى غزواته وكأنني أحيي أبا تمام
يا حامى الأدباء إن ضاقت بهم سبل الحياة لأنت أفضل حامى
الثورة الحمراء ليست مذهبى والحاكم الجبار ليس إمامى
ستالين فى الأحرار أعمل سيفه بفظائع التنكيل والإجرام
أشقى البلاد بعسفه وبظلمه وبنشره الطغوى وبالإيلام
وبحرب دين الله جل جلاله كفرا بدين الواحد العلام
ألغى المساجد والكنائس واكتفى بالسجن والتشريد والإعدام
هو عار أمّته وسبة عصره وملاذ كل مضلل هدام

* * *

= «الأسلوب العربى فى فن العمارة من أوهى الأساليب التى عرفها تاريخ الفن ، وإذا عاش اليوم فإنما يعيش بالزخرف» .

وهذا كلام لايصدر إلا من رجل جاهل تائه فى الضلال ، أو متحامل على العرب ، مبغض لكل ما هو عربى ، حريص على هدم الأمجاد العربية لنزعة شعوبية انطوت عليها نفسه الخبيثة فالفن اليمنى فى العمارة يعتبر من أرقى فنون البناء فى ذلك الوقت ، ومازال موضع الإعجاب والتقدير . وعرب اليمن عرفوا الاستقرار وأقاموا حضارة ومدنية مازالت آثارها باقية إلى اليوم . وكذلك عرب الشام فإن آثارهم تنطق بما كان لهم من مجد وعز وسلطان . ولايتسع المجال هنا للرد على البغاء توفيق الحكيم فنكتفى بما ذكرنا .

يا من تشبه باللعين[1] وحكمه أقصر فإنك ناطح الآكام
الحكم حكم الشعب فى نوابه لا حكم ضباط ولا خدّام
الحكم حكم الشعب فى نوابه والرأى فى نقض وفى إبرام
مالى وللأهرام زال أساسه وانهار فى واد من الإظلام
هو كومة الطغيان شاهدة على جبروت بعض أولئك الحكام

* * *

ما ضرنى وأنا الأديب المنتقى إن أنكرته بهائم الأنعام
سارت بذكرى فى البلاد رجالها من كل مصرى وكل شآمى
فاقبل أُخَىَّ تحية من شاعر مع فائق الإجلال والإكرام
لك من بنى مصر سحائب شكرهم بتتابع الأيام والأعوام

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٦٣ — محمد سيد كيلانى

(١) المتشبهون بستالين من الشيوعيين يريدون أن يحكموا حكما عسكريا قوامه الإرهاب والطغيان .

مقـــدمة

أرخت فى هذا الـكتاب لفترة مظلمة فى تاريخ مصر ؛ هى عصر السلطان حسين كامل ؛ من الناحية السياسية والحربية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأدبية .

إنه أول كتاب يظهر فى هذا الموضوع حوى بحثاً شاملا وصورة واضحة المعالم لتلك الأعوام المشئومة . أما الذين تناولوا هذا العصر من قبل فإنهم لم يعنوا بغير الناحية السياسية ، ومع ذلك فلم يوفوها حقها ؛ بل ألموا بهـا إلماماً موجزاً . ومنهم من تأثر بالظروف التى كانت عليها البلاد حينما كتب فراعى خواطر الحـكام ، ومنهم من تأثر بنزعات حزبية أفسدت عليه دراسته وخرجت به عن طريق الحق .

أما أنا فـكتبت فى ظروف تختلف عن ظروف هؤلاء الـكتاب ، مراعياً ما يتفق مع استقامة الذمة وسلامة الضمير .

ولا يخفى أن المؤرخ كالقاضى يجب أن يكون منزهاً عن الهوى ، مجرداً عن الغرض ، بعيداً عن التحيز . وقد اجتهدت أن أكون كذلك : وبذلت مافى وسعى باحثاً مستقصياً ، فاحصاً منقباً ، سائلا بعض من عاصروا تلك الأحداث ، محققا مدققاً . لم ألق الـكلام على عواهنه أو أصدر الأحكام جزافا ، وإنمـا سردت الأدلة والبراهين التى تدين أو تبرئ ، ثم أتبعتها بإصدار الحـكم . ذكرت الحسنات بجانب السيئات ، والخير وماصحبه من شر ، والمنافع والمضار ، والأرباح والخسائر ، مستهدفا الحقائق لذاتها ، وهكذا ينبغى أن يكتب التاريخ . فإن آنس القارئ

منى تقصيراً أو إهمالا أو إخلالا بصفات القاضى النزيه ، فأرجو أن يلتمس لى العذر ، لأنى لا أدعى العصمة لنفسى .

* * *

لم يكتف السلطان حسين وحكومته بالموافقة على الحماية ، بل جعل من نفسه مروجاً لقبولها ، وداعية للرضى بها . وأخذ يكيل المدح للدولة الحامية بغير حساب . ووصف الإنجليز بأنهم بركة مصر وسبب سعادتها ورخائها ، وقال إن مصر مدينة لهم بالشيء الكثير . وكذلك فعل رئيس وزرائه حسين رشدى فى تصريحات كثيرة يراها القارئ فى ثنايا هذا الكتاب . وهذه التصريحات الصادرة من السلطان ورئيس وزرائه قد شجعت المحتلين على الإمعان فى الطغيان دون أن يعرفوا حداً يقفون عنده . وجعلتهم يستخفون بالسلطان وحكومته استخفافا كبيراً ، ويعاملونهما معاملة تنطوى على الزراية . واعتقدوا أن الشعب استسلم لهم ولان ، وذل لجبروتهم واستكان .

وكانت موجة الإرهاب مع ماصاحبها من مظاهر النفاق والرياء التى أشاعها أعوان الاحتلال من رجال السياسة والدين والأدب قد عقدت سحبا كثيفة فى سماء مصر ، فلم يبصر الإنجليز الحقائق على علاتها ، ولم يتبينوا الأمور على طبيعتها واستمروا سادرين فى طغيانهم حتى فاجأتهم ثورة سنة ١٩١٩ .

* * *

وقد خصصت الباب الأول من هذا الكتاب لدراسة الأحوال السياسية منذ نهاية حكم الخديو عباس إلى نهاية حكم السلطان حسين ، وألممت إلماما تاما بالمجهود العظيم الذى بذلته الأمة فى ميادين القتال والتضحيات الجسيمة التى تحملها الشعب دفاعا عن البلاد . ولاشك فى أن النصر الذى أحرز على حدود مصر، وفى

السودان يرجع الفضل فيه إلى الشعب الذى اعتصم بالهدوء والسكينة ، وإلى الجيش المصرى الذى حارب ببسالة فى جميع الميادين ، وقام بواجبه خير قيام .

ودرست فى الباب الثانى الحالة الاجتماعية وما جد فيها من صور لم تكن معروفة من قبل . صور تولدت مع الحرب وصاحبتها إلى نهايتها . فترى الفقر وما سببه من موجات إجرامية عنيفة كالسرقة والاحتيال والخطف وقطع الطريق والتزييف والغش والرشوة والاتجار فى الأعراض . وعجز الأداة الحكومية عن مكافحة الجرائم ، وما أوقعه رجال الإدارة على الأبرياء من تعذيب وتنكيل . وما كان يلجأ إليه المجرمون من حيل للإفلات من العقاب . وانتهاز بعض الناس الفرص للكسب الحرام عن طريق رفع الأسعار والتلاعب بأقوات الشعب ، واستغلال الأجانب للامتيازات استغلالا قبيحا أضر بالبلاد اجتماعيا واقتصاديا .

وأفردت الباب الثالث للكلام على الحالة الاقتصادية وما لحقها من سوء ، وانتشار الأفكار الاشتراكية ، وما أحدثه قيام الثورة الشيوعية فى روسيا من أثر فى بعض الأوساط المصرية . ورواج الدعوة إلى التعاون ، وإلى الاستقلال الاقتصادى . وبينت أثر ذلك فى قيام ثورة سنة ١٩١٩ .

وفى الباب الرابع تناولت الحالة الفكرية والتيارات العقلية المختلفة التى ظهرت فى خلال تلك المدة .

ولما فرغت من هذا كله درست فى الباب الخامس الحالة الأدبية . ولم يكن الأدب السياسى معبراً عن رأى الشعب ، بل كان مصادما للشعور الوطنى . لقد وضع الشعراء أنفسهم فى خدمة السياسة البريطانية وأخذوا يمدحون الإنجليز وينسبون إليهم كل منقبة ؛ متجاهلين المصائب التى أنزلها هؤلاء بأبناء وطنهم . فهم — والحالة هذه — قد انفصلوا عن الشعب .

أما أدب الحرب فقد كثر وظهر كأنه فن جديد لم يعرف من قبل ، وذلك لأن هذه الحرب كانت جديدة فى شكلها ، فريدة فى لونها . حشدت فيها ملايين الجنود ، واستخدمت أسلحة لم يسبق لها مثيل فى قوة الفتك والتدمير حتى خيل للعامة أنها من عمل الجن . وانتشر الرعب فى كل مكان ، وساد الخوف والهلع . وقد صور الشعراء هذا كله فى شعر جميل رائع ، ونظر بعضهم إلى تقدم العلم نظرة مقرونة بالتشاؤم ، ودافع بعضهم عن العلم وألقى التبعة على الإنسان الذى أساء استخدام العلم وسخره لشقاء الإنسانية بدلا من أن يسخره لسعادتها .

وفى دراستى للأدب الاجتماعى اتضح لى أن هذا النوع من الأدب قام بوظيفته خير قيام . فصور أحوال العمال المتعطلين وماتعرضوا له من الذل والمهانة والموت جوعاً . وكان يجمع بين هذا وبين الدعوة إلى الثورة فى وجه الأغنياء ، فهو أدب سخط وثورة . وأحيانا نرى الشعراء يمزجون الشكوى من الفقر بالتهكم والسخرية . ولاشك فى أن رواج هذا اللون من الأدب كان عاملا من عوامل قيام ثورة سنة ١٩١٩ ، بل إنه كان عاملا فى نشر الدعوة الشيوعية فى بعض الأوساط . وقد تناول الأدب الاجتماعى الأحداث الاجتماعية التى وقعت فى خلال تلك الفترة كانتشار الدعارة والتبرج والرشوة وطغيان رجال الإدارة ، وأغنياء الحرب وغير ذلك .

وشارك الزجالون فى هذه الأبواب كلها ونظموا الزجل فى الشئون السياسية والحربية والاجتماعية .

ودرست الأدب التمثيلى ، وماظهر فيه من ألوان الخلاعة والمجون ، وأشرت إلى ما جد من مسارح ، وما وقع بين الممثلين من تنافس .

* * *

وقد رجعت فيما رجعت إليه من مصادر إلى كتاب «محمد فريد» لعبد الرحمن الرافعى ، فإذا هو يدرس محمد فريد من زاويته هو التى يرى بها الحوادث ، أى بصفته عضواً فى الحزب الوطنى، مما ترتب عليه إهمال وتقصير ومغالطة وتزييف لبعض الحقائق التاريخية وتجاهل لبعضها الآخر . مثال ذلك :

١ — جاء فى صحيفة ٣٨٥ من الطبعة الثالثة فى حديثه عن الجمعية التشريعية :

« صرفت معظم وقتها فى مناقشات طويلة عميقة للبحث عمن هو أحق من بين وكيلى الجمعية برآسه الجلسات عند غياب رئيسها : هل هو الوكيل المعين عدلى باشا يكن ؟ أم الوكيل المنتخب سعد زغلول باشا ؟ فكأن جوهر القضية المصرية هو فى تعرف أى الوكيلين أحق برآسة الجلسات عند غياب الرئيس ! وهكذا كانت الرئاسة وما إليها هى الشغل الشاغل لكبراء البلاد فى كل زمان » .

فهو فى هذه النقطة لم يكن دقيقاً ولا منصفاً ، فلكونه من الحزب الوطنى لم يشأ أن ينصف سعد زغلول فى موقف من أشرف المواقف . إن النزاع دار حول مبدإ دستورى ، وكان من المفيد أن ترسى القواعد الدستورية على أسس واضحة صحيحة . وقد أراد سعد أن يكسب للأمة هذا الحق الدستورى ، وأيدته غالبية الأعضاء . وكان الإنجليز من ناحية أخرى يريدون أن تكون الرئاسة على طول الخط لموظف حكومى ، إن لم يكن للرئيس فللوكيل المعين . ولما انسحب الأعضاء احتجاجاً على قفل باب المناقشة انبرت صحيفة « التيمس[1] » لسان حال الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت وحملت عليهم حملة شعواء وهددت بأنه فى حالة تكرر مثل هذه الأمور فإن الجمعية تحل إلى أجل غير مسمى . فلو لم تكن هذه النقطة مهمة فى نظر الإنجليز لما تناولتها صحيفة التيمس فى مقال

---

(١) انظر صحيفة الوطن فى ١٩١٤/٣/٢٠ .

طويل . وقد ذكرت صحيفة الوطن فى ٢٣ ـ ٧ ـ ١٩١٤ تحت عنوان « اللورد كتشنر ، لماذا نقل ؟ » ما نصه « ذكرت إحدى الصحف الإنجليزية الكبرى أن اللورد كتشنر اعتراه الضجر والملل مما يراه من أعمال الجمعية التشريعية المصرية . وقد غلبته السآمة ، فهو لا يريد العودة إلى منصبه هنا » .

ولو كانت الجمعية التشريعية بالصفة التى ذكرها الرافعى لما عارض الإنجليز فى عقدها طوال مدة الحرب . إن التعصب الحزبى هو الذى دفع الرافعى إلى أن يقول ما قال من السخف والهراء .

٢ — لم يتعرض الرافعى لموضوع اجتماع اللجنة الإدارية للحزب الوطنى سنة ١٩١٢ وانقسام أعضائها إلى فريقين . أنصار الخديو الذين طالبوا بإقالة محمد فريد . والفريق الآخر المتمسك بزعامته . ولم يذكر أن محمد فريد لما علم بهذا الانقسام بادر فأرسل برقية أعلن فيها استقالته من رياسة الحزب نظرا لاضطراره إلى البقاء فى الخارج .

٣ — تكلم فى صحيفة ٤٠٩ عن موضوع سكة حديد مريوط فقال « جاءت حادثة سكة حديد مريوط سببا لزيادة حنقه ـ يعنى الخديو ـ وخلاصتها أن الخديو كان يملك هذه السكة إذ أنشأها بماله ، ولما لم تأت بالربح الذى كان ينتظره شرع فى بيعها إلى شركة إيطالية . فاعترض كتشنر على هذا البيع . فعرض الخديو أن تشتريها الحكومة المصرية ، وانتهت المفاوضات فى فبراير سنة ١٩١٤ ببيعها إلى الحكومة مقابل ٣٩٠ ألف جنيه . فعدها الخديو صفقة خاسرة ، وأخذ على سعيد باشا أنه نفذ فيها أوامر اللورد كتشنر فزاد حنقه عليه » .

لم يوضح عبد الرحمن الرافعى هذه النقطة ، بل أجملها بحيث ظهر الخديو فى صورة المغبون فى هذه الصفقة .

وحقيقة الموضوع أن الخديو كان يستغل مركزه فى السطو على الأراضى الزراعية وشرائها بأبخس الأثمان . و بهذه الطريقة امتلك أرضاً بناحية مريوط . ولرغبته فى خدمة هذه الأرض فكر فى إنشاء خط حديدى يمر بها . فطلب من الحكومة أن تعينه فى ذلك ، فباعت له مصلحة السكك الحديدية المعدات اللازمة بثمن تافه . وأرسلت مصلحة السجون عدداً من المسجونين للعمل فيها . كما أمر الخديو جنود الحرس بأن يشتركوا مع المسجونين فى مد السكة . فهو ـ والحالة هذه ـ لم ينفق عليها سوى مبلغ ضئيل . وهب أنه أنفق وخسر ، فما ذنب الحكومة حتى تتحمل هذه الخسارة ؟ ثم إن الخديو كلف محمد سعيد كما ذكر أحمد شفيق فى مذكراته ـ بالتوسط لدى كتشنر حتى تشترى الحكومة السكة ؛ واعداً بأنه سيحسن سيره مع الإنجليز .

لم يوضح الرافعى هذه الواقعة ولم يغفلها ، بل ذكرها مشوهة مبتورة . وليس هذا من الأمانة التاريخية .

٤ — ولما تعرض لمحاكمة محمد فريد بسبب تقريظه لديوان على الغاياتى « وطنيتى » لم يبد رأيه فيما فعله الناظم : هل كان صوابا أم خطأ ؟ وإنا نوضح للقارئ هذا الموضوع ليعرف كيف يطمس الرافعى الحقائق التاريخية .

جاء فى مقدمة « وطنيتى » ما نصه :

«فإذا ما أثنيت عليهما ـ يعنى فريد وجاويش ـ كان ثنائى ثناء تلميذ معترف بما لهما من حق التربية وواجب الإرشاد . و إذا ما أثنيا على كان ثناؤهما ثناء أستاذ مرب حكيم يريد أن يبلغ بتلميذه شأوا من الفضل عاليا . . . » .

« كذلك كان شأنى وشأنهما فى هذا الكتاب . وكذلك هما يربيان لمصر أبناء أوفياء ، و يبذلان فى سبيلهما القويم ما شاءت كبار الآمال » .

ولما بدأت النيابة فى التحقيق أرسل الغاياتى مقالا نشرته صحيفة الأهرام ، ومما جاء فيه « أما والله إنهما — يعنى فريد وجاويش — لأبعد عن سوء ما يظنون وأبرأ الناس من أسرارى وغاياتى . ما ذا جنيا وقد جئتهما راجيا أن ينفحانى بكلمات من كلماتهم الحكيمة فى الشعر . وقد سألتهما إجابة هذا الرجاء المرة بعد المرة حتى أجاباه . ولم يريدا أن يجعلا كلمتيهما تقريظًا بحتًا لكتاب لم يعرفا من محتوياته إلا قليلا ، بل سلكا مسلك الحكمة فيما كتباه ليكون عام النفع . وعطفا على ذكر كتابى فى غضون القول عطفا على وجه الاستطراد . والله يعلم أنهما لا يسألان عن شىء حواه ، ولا يدريان غير أنموذج صغير مما سبق لى نشره مع الناشرين فى جرائد الحزب الوطنى » .

هذا ما كتبه على الغاياتى فى تبرئة محمد فريد وعبد العزيز جاويش ، ولكن صحيفة « البلاغ المصرى » لسان حال الحزب الوطنى فى ذلك الوقت نشرت فى ٣١ / ٧ / ١٩١٠ مقالا طويلا حملت فيه حملة شعواء على ناظم الديوان . ومما جاء فيه « نريد أن نشرح للأمة المصرية فى هذا المقال تاريخ الغاياتى . نريد أن نبصر الشعب المصرى بمن أثار هذه الفتنة الكاذبة ، وأراد أن يحدث فى البلد المطمئن شغبا ، وفى الأندية والمجالس الخصوصية لغبا » .

ثم وصف كاتب المقال الغاياتى بأنه غبى وجاهل . وختم مقاله بما نصه : « أما وقد نشر الغاياتى كل منظوماته ، ودس تلك المقدمة الدنيئة التى كتبها بخطه فى كتابه ونشرتها إحدى الجرائد — يعنى المؤيد — فإنى لا أظن هذا الرجل إلا مأجورا على عمله هذا من جانب تفيده هذه الدسائس » .

« وإنا لعلى يقين أن الخطة التى جرى عليها صاحب المؤيد للوصول إلى

الانتقام من فريد بك والشيخ عبد العزيز جاويش مما تجعل أمير البلاد ساخطا عليه ، والوزارة ناقمة ، والإنجليز أنفسهم بريئين من مثل تلك المحاربة السافلة » .

وفى ٩ ـ ١ ـ ١٩١٢ نشرت الصحف قصيدة للغاياتى هجا فيها رجال الحزب الوطنى ؛ وفى مقدمتهم فريد وجاويش ؛ هجاء مرا . ومهد لها بالكلمة الآتية :

« فأقدم إليكم قصيدتى فى عيد الجلوس الخديوى . وقد ضمنتها ما اقتضاه المقام من إشارات تدور حول حوادث وطنيتى وغيره . وإن لدى من الدلائل المؤيدة لها ، والرسائل المتعلقة بها مايقطع ألسنة السفهاء ، ويسجل الخزى والعار عليهم . وسأدع نشر ذلك لفرصة أخرى » .

« والله يعلم أنى لا أحاول بذلك الانتقام لنفسى منهم ، ولا إرضاء شهوتى الشخصية لأمر ما . ولكن ثمانية عشر شهرا قضيتها بعيدا عن سوء تأثيرهم ، منها ثلاثة عشر شهرا فى وسط أوربى راق ، جعلتنى أشعر بما كان منى من خطل دفعونى إليه ، وخطإ حرضونى عليه . فنبذتهم ظهريا بعد مفاوضات أشرت إليها . ولم أبال بما يكيدون لى ويتقولون على . وهم الذين كان من أكبر همهم بث كراهة الجناب العالى فى نفسى ، وتحريضى على هجائه والإساءة إلى سموه ـ حفظه الله ـ حتى كان لسوء حظى شىء من ذلك فى مصروغيرها[1] . أولئك النفر الذين فرقوا عناصر الأمة وذهبوا بريح الاتحاد بين بنيها . أولئك هم شر البلاد

---

(١) يقصد الأستانة لأنه كتب هناك مقالات ضد الخديو . ولما شعر بأن الحكومة العثمانية قد تسلمه إلى السلطات المصرية مراعاة لخاطر الخديوى رحل إلى سويسرا .

وويلها الأكبر. وهم الواغلون عليها، الدخلاء بين بنيها ».

أما القصيدة فنذكر منها :

والذنب كل الذنب ليس على فتى ... ألقته بين المجرمين جدود
الشيخ يغضب إن حباك ثناءه ... وعليه يثنى إن هجاك فريد
ما سار إلا فى سبيل هواهما ... هـذا يسايره وذاك يقود
الحزب يدعو والهوى يسرى به ... وحجاه بين مضلليه شريد
حتى إذا القانون رام قصاصه ... قالوا ارتحل عنا فسوف تعود
قم لاتقم فى مصر واعص قضاءها ... إنا وإن لم تبغ ذاك نريد
هذى مشيئتنا فهاجر يالما ... من هجرة لك بعدها التمجيد
فمضى إلى دار السعادة مكرها ... والشيخ يقسم إنه لسعيد

ومنها :

صاحوا وما شيمى سوى بوق به ... نفخوا فأصغى أحمق وبليد
قالوا المؤيد نالهم بدسيسة ... من أجلها للسجن ظلما قيدوا
ورموا فتاهم بالخيانة علهم ... ينجون إن نكروه وهو بعيد
لو صح ما جاءوا به فرئيسهم ... فى الخائنين بحكمهم معدود
وكذا وكيل الحزب لطفى إنه ... شر الكتّاب برأيه معقود
ما كان لى نشر الذى أنشأته ... فى « دنجرا » لولاه وهو شهيد
أفتى به وأقـــره قانونه ... وهو المحامى الأشهر المشهود
فبذا على وجه اللواء ومثله ... فى رأى لطفى والرئيس سديد
الله يعلم والمؤيد أننى ... ما كنت عما ينهجون أحيد

أبصرت بعد فراقهم أن البلا   د تـكاد مما يجرمون تميد
إن الحوادث أنبأتنى أنـكم   وإن اعتزيتم للرجال قرود
ترجون إصلاح البلاد وأنتمو   حرب على الإصلاح وهو وليد

والقصيدة كلها طعن قبيح فى رجال الحزب الوطنى . ولما أعاد الغاياتى طبع ديوانه بعد مجيئه نهائياً إلى مصر ؛ لم ينشر هذه القصيدة .

فـكان الواجب على عبد الرحمن الرافعى أن يذكر لنا رأيه فى الغاياتى : هل كان دسيسة على الحزب ؟ هل كان خائناً ؟ هل كان مأجوراً للـكيد لمحمد فريد بهذه الـكيفية ؟

* * *

وكان محمد شفيق غربال يميل إلى مجاملة عائلة محمد على ليكسب عطفهم فيضمن البقاء فى وظيفته . وكان المعروف عنه أنه ينفذ فى وزارة المعارف سياسة الملك فى شئون التعليم ، وهى تنحصر فى معارضة كل توسع فى إنشاء المدارس والمعاهد . وعمل الدعاية اللازمة لعائلة محمد على والإشادة بأمجادها فى كل مايؤلف من الـكتب والنشرات المدرسية والثقافية . فإذا جاءت وزارة الأغلبية أقصته عن عمله إلى عمل آخر ، حتى إذا تولت وزارة الأقلية المستندة إلى تأييد الملك رجع إلى موضعه .

ولما تولى طه حسين وزارة المعارف سنة ١٩٥٠ أبقاه فى وظيفته مجاملة للقصر ولـكنه قص أجنحته ووضع له حدا ينتهى عنده . وأخذ الوزير يتوسع فى نشر العلم فجعل التعليم الثانوى بالمجان . وقد تخوف الملك من هذه السياسة ، وأوحى إليه المنافقون أن التوسع فى نشر العلم يؤدى إلى انتشار الشيوعية . وأراد

محمد شفيق غربال أن ينتهز الفرصة ليعرب عن إخلاصه للملك الذى كان يحقد على الوزير. فأرسل إليه من يقول له : حافظ على خاتمك . فحينئذ غضب الوزير عليه وأقصاه عن عمله .

فلا عجب بعد هذا كله إذا رأينا محمد شفيق غربال ينحرف عن جادة الحق فى بعض ما كتب . مثال ذلك قوله:(١) .

« ونقول فى النهاية ـ اعتذارا عن رجال مصر عموما وقادة الرأى فيها خصوصا ـ إن الغيب كان يحجب عنهم فى سنة ١٩١٤ أمرين نراهما الآن ولم يرهما أحد إذ ذاك . هذان الأمران هما :

أولا : ما ستنزله انجلترة ببلادهم فى أثناء الحرب .

وثانيا : مبلغ استعداد الشعب المصرى للتضحية فى سبيل حريته وكرامته .

ولو انكشف الحجاب فى سنة ١٩١٤ عن هذين الأمرين ، ولو كان سم الاحتلال البطىء لم يفقد القادة ثقتهم فى أمتهم؛ لسجل لهم التاريخ فى سنة ١٩١٤ موقفا غير الذى سجل »

وهذا اعتذار فاسد مبنى على الجهل أو الهوى ، وذلك للأسباب الآتية :

١ — منذ دخول انجلترا الحرب فى ٥ من أغسطس سنة ١٩١٤ شرع رجالها بمصر فى اتخاذ إجراءات صارمة للقبض على ناصية البلاد بيد من حديد . وأرغموا الحكومة المصرية على إصدار قرارات من شأنها أن تجعل مصر كإحدى مستعمراتهم .

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ١/٤٥ طبع سنة ١٩٥٢ .

٢ — وزادت هذه الإجراءات صرامة عقب إعلان الأحكام العرفية فى ٢ — ١١ — ١٩١٤ ، إذ أصبح الحاكم العسكرى البريطانى يصدر من الأوامر والقرارات ما شاء دون الرجوع إلى الحكومة المصرية .

٣ — وشرعت السلطات العسكرية تعتقل المصريين وتزج بهم فى السجون أو تبعدهم إلى الخارج ، أو إلى مالطة دون تحقيق .

٤ — وفرضت الرقابة على الصحف.

٥ — وفصلت ٣٠٠٦ من طلبة الأزهر .

حدث هذا كله قبل إعلان الحماية . وبعد إعلانها ، وبعد مرور أعوام من البؤس والشقاء والإرهاب والطغيان ، رأينا السلطان حسين يصرح لمراسل صحيفة « الإسوشياتدبرس » فى ١٢ — ١٠ — ١٩١٦ بقوله :

« أعتقد أن مستقبل مصر مكفول تحت حماية بريطانيا العظمى أعظم الدول الحرة » .

« كانت حالة الحكومة فى عهد الخديو السابق كبيت له ثلاثة أبواب: هى الحكومة المصرية ، والخديو ، والوكالة البريطانية » .

« وكانت كل من هذه القوات الثلاث تؤدى عملها على حدة كأنما هى مستقلة عن القوتين الأخريين . فكانت النتيجة أن الناس لم يعودوا يدرون إلى أى باب يسيرون . أما الآن فقد امتزجت هذه القوات الثلاث ، وتوحدت مصلحتها وصارت تسعى لغرض واحد ، وهو خير مصر وإسعادها »

ففى نهاية سنة ١٩١٦ حينما كان الإنجليز ينهبون ، ويسلبون ويسيطرون على

مرافق البلاد سيطرة تامة ، ويسوقون الشبان إلى ميادين القتال ؛ بينما يحدث هذا إذا بالسلطان يطلع على الناس بهذا التصريح العجيب مطريا الحماية ، ومسبحا بحمد الإنجليز .

هذا وقد تعاون حسين رشدى مع المحتلين فى كتم أنفاس الأمة والتضييق عليها و إرهاقها .

فكيف يقال بعد ذلك إن النبيب فى سنة ١٩١٤ حجب عن هؤلاء الناس ما سينزله الإنجليز بالبلاد ؟

إن نظرة عابرة على ما كتبته عن الحالة السياسية تكفى لهدم المزاعم الفاسدة التى ساقها محمد شفيق غربال لتبرير موقف رجال الحكومة حيال الإنجليز فى سنة ١٩١٤ .

وكان محمد شفيق غربال قد انتهى من طبع كتابه هذا مع قيام الثورة ، فأشار عليه بعض أصدقائه بأن يدخل عليه تغييراً يجعله أقرب إلى الحق ما دامت البلاد قد تحررت من كابوس الملكية . ولكنه رفض رفضاً باتاً وأصر على نشر الكتاب كما هو .

وكان موقف رجال الثورة منه موقفاً نبيلا يدل على الغاية فى التسامح وكرم الأخلاق . فقدروا جهده العلمى من حيث هو ، ولم ينظروا إلى أبعد من ذلك ، فعينوه بعد انتهاء مدة خدمته فى الحكومة مديراً لمعهد الدراسات العربية . ثم منحوه جائزة الدولة التقديرية على كتابه المتقدم ذكره مع أنه ليس كاملا وإنما هو الجزء الأول الذى لم يصدر غيره .

وقد شهد محمد شفيق غربال انقضاء عصر فاروق ، فكان فى استطاعته — برا بالثورة واعترافا بفضل رجالها عليه — أن يؤرخ لعصر هذا الطاغية .

ولو فعل ذلك وذكر الحقائق كما هى لـكان فيما يكتبه الـكفاية كل الـكفاية . فليس من العدل ، ولا من الإنصاف ، ولا من الأمانة التاريخية أن يؤلف فى سنة ١٩٤٤ كتابا عن محمد على يسلك فيه مسلك المنافقين لا مسلك المؤرخين ، تملقاً للملك فاروق ، وطمعاً فى الاستزادة من عطفه السامى . وكانت الـكتب المؤلفة عن محمد على موجودة بكثرة ، ولم تـكن المـكتبة العربية فى حاجة إلى مثل هذا الـكتاب . ليس من العدل أن يعمل هذا ثم يسكت بعد ذلك سكوتاً تاماً عن كلمة حق يقولها فى رجال الثورة الذى أحسنوا إليه كل هذا الإحسان .

وهذا الكلام الذى أكتبه عن غربال لم أقصد به الإساءة إليه ، فقد أصبح الرجل فى ذمة التاريخ ، ولـكنى كتبته مدفوعا بقول الحق .

وفى النهاية أرجو أن أكون ؛ بإخراج هذا الـكتاب ؛ قد وفقت فى خدمة تاريخنا القومى ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٦٣ — محمد سيد كيلانى

الباب الأول

الحالة السياسية

الفصل الأول

نهاية حكم الخديو عباس

لم تكن للخديو عباس حلمى الثانى شخصية ثابتة مستقرة ، ولا منهج مستقيم ، بل كان متقلباً فى اتجاهاته ، متلوناً فى ميوله وأهوائه . كان يجارى الحركة الوطنية إلى حد ما فى أيام مصطفى كامل ، ثم انقلب حرباً عليها فى أيام خلفه . وقد وضح ذلك محمد فريد فى حديث له مع مراسل صحيفة[1] « السييكل » الفرنسية فقال :

« بعد وفاة المرحوم مصطفى كامل انتخبت رئيساً للحزب مكانه . وحينئذ حاول الخديو أن يجعلنى أتبع سياسة مضادة لخطتنا . ونصح لى أن لا أذكر الجلاء ، وأن لا أعمل عملا يسىء إلى الإنجليز . وبالإجمال نصح لى أن أعترف اعترافا ضمنياً بالاحتلال . ولأجل أن يظهر ولاءه للإنجليز ذهب إلى لندره سنة ١٩٠٨ » .

« فلما رأينا هذه السياسة الجديدة قطعنا علاقاتنا معه ، وابتدأت أحمل عليه فى جريدة اللواء التى كانت إذ ذاك لسان حال الحزب الوطنى حملة صحفية

---

(١) نقلا عن صحيفة الأهالى فى ١٧ــ٧ــ١٩١٢ .

شديدة رن صداها فى البلاد . ونشر سنة ١٩٠٩ قانون المطبوعات الذى قبر سنة ١٨٨٢ » .

ثم تـكلم على الصحف التى أوقفت أو تعطلت ، وتـكلم على حبسه وفراره حين أريدت محاكمته مرة ثانية . وختم تصريحه بقوله « تلك هى الحالة التى وصلت إليها مصر . فالخديو متحد مع انجلترا ومعهما بعض المداهنين فى جانب ، والأمة كلها طالبة حريتها فى جانب آخر » .

* * *

ولم يستطع السير الدن جورست القضاء على الحركة الوطنية ، لذلك انتهز الإنجليز فرصة موته فى يوليو سنة ١٩١١ وعينوا اللورد كتشنر خلفاً له . وكان هذا معروفاً بالشدة والصرامة . فأخذ منذ اللحظة التى جاء فيها إلى القاهرة يعمل على تصفية الحركة الوطنية . لقد أعلن أنه يكره الأحزاب السياسية وسيجتهد فى القضاء عليها . ولم تـكن هناك أحزاب سياسية لها وجود حقيقى سوى الحزب الوطنى . فالقضاء على الأحزاب معناه القضاء على الحزب الوطنى ، أو بعبارة أدق على الحركة الوطنية . وقد تعاون معه الخديو إلى حد بعيد .

وحدث أن انفق ثلاثة من شباب الحزب الوطنى وهم : إمام واكد ، ومحمود طاهر العربى ، ومحمد عبد السلام ؛ على قتل الخديو وكتشنر ، ورئيس النظار محمد سعيد . وقيل إنهم أرادوا أن يتشبهوا بالثلاثة الذين اتفقوا فى صدر الإسلام على قتل على ومعاوية وعمرو . ولـكنهم لم يستطيعوا تنفيذ خطتهم فعدلوا عنها . ومع ذلك فإن جورج فلبيدس مأمور ضبط القاهرة تمـكن بمعاونة مصطفى كامل ابن أخت الزعيم مصطفى كامل من تلفيق التهمة ضد هؤلاء الأبرياء ، فحـكم على كل منهم بالحبس خمسة عشر عاماً .

فانتهزت الصحف الإنجليزية هذه الفرصة وأخذت تحمل على الحزب الوطنى حملات عنيفة . كما أن رجال الشرطة فى مصر ؛ وكانوا يأتمرون بأمر الإنجليز ؛ وجدوا الفرصة سانحة لإظهار نشاطهم وإخلاصهم لأسيادهم على حساب إخوانهم المصريين . فلم يتورع بعضهم عن تلفيق التهم للأبرياء . فقد أبلغوا عن (١) وجود مؤامرة يدبرها بعض الشبان لقتل رئيس النظار وقبضوا عليهم . ولما تولى النائب العمومى التحقيق معهم اتضح أن التهمة ملفقة ، فأمر بإطلاق سراحهم .

وقد انتشرت الوشايات وكثرت البلاغات الكاذبة ، وأصبح من المناظر المألوفة أن يرى رجال النيابة والشرطة يدخلون المنازل مفتشين باحثين فى جميع الأركان ، مروعين النساء والولدان . ثم يلقون القبض على الناس ويسوقونهم مكبلين بالحديد إلى مراكز الشرطة ويحققون معهم ، وفى النهاية يخلون سبيلهم .

ولما هاجم محمد فريد الخديو فى حديثه السابق وفى أحاديث أخرى ؛ دعا الخديو بعض أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطنى لتناول طعام الإفطار على مائدته ، وكان ذلك فى شهر رمضان . وأوعز إليهم بفصل محمد فريد من رياسة الحزب الوطنى . وكان من بين هؤلاء الأعضاء حافظ رمضان الذى أنعم عليه الخديو برتبة البكوية من الدرجة الثانية ، وسهل له شراء أرض زراعية من الحكومة بثمن زهيد يدفع على أقساط طويلة الأجل . وأخذت صحيفة الأهالى التى كانت تنتصر للخديو تهاجم محمد فريد هجوماً شديداً مستخدمة الألفاظ الجارحة والعبارات النابية .

ولما اجتمعت اللجنة الإدارية للحزب الوطنى لبحث موضوع رياسة محمد

---

(١) الأهالى فى ١٨ – ١٠ – ١٩١٢

فريد ؛ انقسم أعضاؤها إلى قسمين : قسم بزعامة حافظ رمضان الذى اشتراه الخديو ؛ قرر عزل محمد فريد . وقسم بزعامة على فهمى – شقيق مصطفى كامل – عارض فى ذلك معارضة شديدة . و لما علم محمد فريد بذلك بعث إلى إدارة الحزب باستقالته من الرياسة نظراً لاضطراره إلى البقاء خارج البلاد . و بذلك انهارت القيادة الشعبية . وتم انهيارها كلياً بتعطيل صحيفة اللواء فى ٣١ من أغسطس سنة ١٩١٢ ثم العلم فى ٧ نوفمبر من العام المذكور ، ورحيل عبد العزيز جاويش عن مصر ، والتضييق على العناصر الوطنية بحرمانها من موارد رزقها ، و إغداق الأموال على الصحف التى تهاجم الحزب الوطنى ، وشراء الأدباء الذين يهجون هذا الحزب .

وقد بيعت أمتعة نادى الحزب الوطنى بالمزاد العلنى فى ٢٢ — ٥ — ١٩١٣ وذلك وفاء للديون المطلوبة عن إيجار المبنى الذى كانت تشغله إدارة الحزب .

هذا ما كان من أمر الخديو عباس بإزاء الحركة الوطنية .

* * *

وقد كتب اللورد كتشنر فى تقريره عن سنة ١٩١٢ ما نصه « لما عدت إلى مصر بعد غياب (١) طويل ، أثر فى نفسى أن الذين فارقتهم وهم معشر متجانس من عقلاء الأهالى قد انشقوا وانقسموا إلى فرق وأحزاب سياسية »

« إن ترقية أخلاق الشعب و إعلاء سجاياه يتوقف معظمهما على نمو قوة ضبطه لنفسه . فجهاد الأحزاب فى مناظرة بعضها لبعض لا يفيد اكتساب صفة من هذه الصفات التى ينال بها التقدم»

---

(١) كان كتشنر سرداراً للجيش المصرى ، وبعد أن نجح فى فتح السودان نقل من مصر وظل بعيداً عنها إلى أن جاءها معتمداً سياسياً لدولته فى صيف سنة ١٩١١ خلفاً لجورست .

لا شك فى أن هذا الكلام ينطوى على مغالطة مكشوفة . فلم يكن للأحزاب السياسية من وجود حقيقى كما ذكرنا سوى الحزب الوطنى . ولو فرضنا جدلا أن للأحزاب السياسية وجوداً لما كان هناك أى ضرر . فالأحزاب السياسية كانت موجودة فى انجلترا وما تزال إلى الآن . كما كانت موجودة فى أوروبا كلها بما فى ذلك دول البلقان . ومع ذلك فإن الإنجليز لم يجدوا ضرراً فى وجود هذه الأحزاب ، ولم يحاولوا أن ينصحوا أنفسهم أو ينصحوا الشعوب الأوروبية بإلغائها . أما فى مصر فإن كتشنر حزن حزناً شديداً لظهور الأحزاب السياسية ، لأن وجودها كما زعم لم يكن فى صالح المصريين ، كأنه أدرى بصالحهم من أنفسهم ، وكأن صالح المصريين ينحصر فى وجود الاحتلال . وقوة ضبط الشعب لنفسه معناها فى نظر كتشنر الرضا بالاحتلال ، والسكوت عن مظالمه وطغيانه ، والموافقة على أن تكون ثروة البلاد نهباً فى أيدى الإنجليز . فإذا أبدى الشعب امتعاضه وسخطه فإنه يكون غير ضابط لنفسه ، ويستحق بذلك التأديب والتهذيب .

وقد خيل للورد كتشنر أنه بالقضاء على الحزب الوطنى تنتهى الحركة الوطنية وينعدم الوعى القومى ، ويركن الشعب إلى الهدوء والسكينة . وأخذ بعض أعوان الاستعمار يهللون ويطبلون . قالت صحيفة الوطن فى ٦ ـ ٨ ـ ١٩١٢ تحت عنوان « حديث الصيف » « الظاهر أن فخامة اللورد كتشنر سينال غايته بلا تعب ولا عناء ، فإنه قال مراراً إنه يكره الأحزاب السياسية فى مصر لأن وجودها مضر بالبلاد . وقد أيده سمو الخديو المعظم فى هذا الرأى أيضاً حين قال فى حديثه الأخير : إنه يريد أن يرى الأمة المصرية حزباً واحداً يعمل للخير العام »

وكان الهدف من القضاء على الحركة الوطنية هو تثبيت دعائم الاحتلال البريطانى ، وجعل مصر مستعمرة بريطانية يكون للإنجليز فيها الغنم ، وللمصريين الغرم ، وتسخير الشعب المصرى لخدمة مصالح الاستعمار البريطانى . وتحقيقاً لهذا الهدف اتخذ اللورد كتشنر لنفسه لقب « صاحب الفخامة » وكان يسافر فى قطار خاص ، ويفتح له الباب الخديوى ، ويقف له الجنود والضباط على جانبى الطريق عند مروره لتحيته ، وتصدح أمامه الموسيقى بالسلام الإمبراطورى ، وتجرى له تشريفات على نمط تشريفات الخديو . وقد ازدحمت الوفود ببابه ، وكان ينظر فى المطالب والشكاوى التى تقدم إليه ويفصل فيها على جناح السرعة . وجملة القول إنه اتخذ لنفسه كل مظاهر الملك والسلطان . قالت صحيفة[1] «نيوستيتمان» الإنجليزية ما ترجمته « إنه يدير هذه البلاد لا من وراء الستار ، ولكن جهراً وعلانية كأنه ملك شرقى مطلق الإرادة ، لا ترد له كلمة ولا يدانيه أحد . »

« خذ الجرائد فإنك ترى فى كتاباتها ما يدل على أن المظهر الذى يريد اللورد كتشنر أن يظهر فيه مقصود . فإنك ترى فيها مثل هذه العناوين : مشروع اللورد كتشنر بشأن المصارف . مشروع اللورد كتشنر بشأن الأراضى . مشروع اللورد كتشنر فى الأوقاف . اللورد كتشنر والنقابات الزراعية . قانون اللورد كتشنر بشأن الخمسة أفدنة . وهى لا تذكر شيئاً عن الحكومة »

ثم قالت الصحيفة المذكورة « لا يبرح عن الأذهان أن شئون الأمم لاتدار إلى ماشاء الله كما تدار شئون الجيش فى أيام الحرب ، لأن الأوتوقراطية أوتوقراطية سواء كان الحاكم صالحا أو طالحا »

* * *

(١) نقلا عن صحيفة الوطن فى ٢٧ – ٢ – ١٩١٤

وإمعاناً فى حرمان المصريين من خيرات بلادهم أمر اللورد كتشنر بقصر جميع الوظائف الكبرى على أبناء جنسه مع إعطائهم المرتبات الضخمة التى تتجاوز المرتبات المقررة لهذه الوظائف . مثال ذلك الأمر العالى[1] الصادر فى ٩-٤-١٩١٣ بتعيين المستر لانجلى مفتش عموم رى الوجه البحرى مديراً عاماً لمصلحة الأملاك الأميرية الحرة ، ومع أن مربوط هذه الوظيفة كان من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ جنيها فى العام ، إلا أن مجلس النظار قرر أن يكون مرتب لانجلى ألفى جنيه فى العام بصفة استثنائية ، كما صدر قرار مجلس النظار فى التاريخ المذكور بتعيين المستر أنطونى وكيلا لمصلحة الأملاك الأميرية الحرة ، على أن يعطى أقصى مربوط هذه الوظيفة وقدره ألف ومائتا جنيه فى العام .

هذا ما كان يجرى بالنسبة للموظفين الإنجليز فى الحكومة والشركات ، بينما الشاب المصرى يتردد على المصالح والشركات مستجدياً وظيفة بجنيهين فى الشهر ، فيرد عنها رداً قبيحاً . فإذا احتج الحزب الوطنى على مثل هذه المظالم اتهم بالطيش والحمق ، ونشر الفوضى والاضطراب

وقد تحملت خزانة الدولة[2] نفقات مأدبة فاخرة أقامها ناظر الأشغال فى نادى محمد على تكريما للمستر لانجلى بمناسبة تعيينه فى وظيفته . فإلى هذا الحد بلغ هوان المصريين ! وزير الأشغال يقيم مأدبة فاخرة لتكريم مدير إنجليزى يعمل تحت رياسته !! وهكذا كانت الأحوال فى جميع الوزارات .

وفى عهد كتشنر أصبح معظم قضاة الإحالة فى المحاكم الوطنية من الإنجليز . وأصبحت جميع أراضى الوجه البحرى تزرع القطن لحساب مصانع الغزل فى

(١) الأهالى فى ١٠ - ٤ - ١٩١٣
(٢) الأهالى فى ١٣ - ٤ - ١٩١٣ .

منشستر . فقلت المواد الغذائية وأخذ التجار يستوردونها من الخارج ، فارتفعت نفقات المعيشة إلى أربعة أمثال ما كانت عليه من قبل .

* * *

ولم تحدث مصادمات بين الخديو وكتشنر بخصوص المسائل الوطنية ، وإنما حدث تصادم بينهما بسبب تصرفات معيبة صدرت من الخديو . فقد كان يتاجر في الرتب والنياشين ، وفي وظائف الأوقاف . وفي سنة ١٩١٣ طلب الخديو من ديوان الأوقاف أن يشترى صفقة أرض زراعية تبلغ مساحتها ٣٥٠٠ فدانا بناحية المطاعنة ، وكان ثمن الفدان يتراوح بين أربعين جنيها وخمسة وأربعين . ولكن الخديو أرغم ديوان الأوقاف على شرائها بسعر الفدان خمسة وتسعين جنيها . واغتصب لنفسه فرق السعر وقدره ستون ألف جنيه .

فلما علم كتشنر بذلك خشي من انتقاد الرأي العام البريطاني لسياسته ، فأمر في سنة ١٩١٣ بتحويل ديوان الأوقاف إلى وزارة . وحينما عارض الخديو في ذلك ؛ هدد كتشنر بعزله . كما أنشأ في العام المذكور وزارة الزراعة واختار أحد الإنجليز وكيلا لها . وأصدر قانون الخمسة أفدنة وينص على أنه لا يجوز الحجز على أملاك الفلاح إذا كانت تقل عن خمسة أفدنة .

وذرا للرماد في العيون وضع كتشنر عدة مشروعات لتجميل مدينة القاهرة . منها توسيع ميدان باب الحديد وجعله بالصفة التي هو عليها الآن ، وكان يشرف على هذا العمل بنفسه فتم في مدة وجيزة سنة ١٩١٣ ، كما أن السور الحديدي لمحطة القاهرة قد أقيم في تلك السنة . ووضع مشروعا لتوسيع شارع الخليج المصري « بور سعيد » بحيث يكون عرضه أربعين مترا . ووضع مشروعات لشق وتوسيع

بعض الشوارع . وهو الذى أنشأ ميدان صلاح الدين بالقلعة . ووضع مشروعا لهدم مبانى هندسة السكك الحديدية المقامة بميدان باب الحديد وتحويلها إلى حديقة . كما فكر فى هدم ثكنات قصر النيل . وفى أيامه تم إنشاء[1] كوبرى أبى العلاء ، والكوبرى الإنجليزى « الجلاء » وسارت عربات الترام إلى الجيزة عن طريق الزمالك .

* * *

إلا أن الهدف الرئيسى الذى وضعه كتشنر نصب عينيه وهو القضاء على الحركة الوطنية لم يتحقق . فقد ظهرت فى أماكن كثيرة منشورات ثورية تحرض على القيام فى وجه الإنجليز . ففى ١٩ ـ ٨ ـ ١٩١٢ وجدت منشورات معلقة على الجدران فى جميع أنحاء العاصمة ، فيها تحريض للمصريين على القيام فى وجه الحكومتين المصرية والإنجليزية . وفيها وعد لإمام واكد وزميليه بقرب انتقام الأمة لهم انتقاما سريعا تهتز له أركان العالم .

وفى ٣١ ـ ٨ ـ ١٩١٢ ضبط شابان يحملان حقيبتين كبيرتين مملوءتين بالمنشورات الثورية التى تحض على القيام ضد الخديو والوزراء ، وقد طبعت فى تركيا . ومما جاء فيها أن البلاد المصرية لم تعمل عملا مجيداً ، ولا ذكر التاريخ لها اسما إلا بعد استشهاد الوردانى وقتله بطرس غالى . وكان فيها حث للمصريين على اتباع خطة الوردانى ومجاراته فى وطنيته . وذكر فى المنشورات أنه لو وجد أربعة من أمثاله لتحررت البلاد من المظالم ، ونالت الأمة رغائبها . وجاء فيها إطراء لإمام واكد وزميليه .

---

(١) أول كوبرى أنشئ على النيل لربط القاهرة بالجيزة كان كوبرى قصر النيل ، ثم كوبرى عباس ثم كوبرى أبى العلاء . وأخيراً كوبرى الجامعة .

وفى ٦ ــ ٩ ــ ١٩١٢ وجدت منشورات ثورية معلقة على جدران بعض شوارع طنطا ، وكانت موجهة من قبل جمعية اليد السوداء .

وفى ٩ ــ ٩ ــ ١٩١٢ وجدت منشورات مشابهة فى المنصورة ، وبها رسم مسدس ورصاص ، صادرة من جمعية اليد السوداء .

وكانت موجة السخط تزداد شدة يوما بعد يوم . فاضطر كتشنر تحت ضغط الحركة الوطنية إلى التفكير فى إنشاء الجمعية التشريعية ، ووضع قانون نظامى جديد كما وسع اختصاصات مجالس المديريات . ولكن كل هذه الأمور كانت ذرا للرماد فى العيون ، لأن خيرات البلاد كانت كلها كما ذكرنا فى أيدى الأجانب . وقد كان الشعب المظلوم يجد متنفسا فى الصحافة حينما كانت تتمتع بالحرية فى عهد كرومر . فلما ضيق كتشنر على الصحافة ، واشتد ضغط إدارة المطبوعات ومحاكم الجنايات عليها وعلى مديريها وأربابها ومحرريها ، ونالها من التعطيل والإنذار والتوقف ما نالها ، ونالهم من السجون ما نالهم ؛ ظهرت المؤامرات والجمعيات السرية ، وكثرت المنشورات الثورية . وأصبحت حياة عظماء الحكومة ورجالها ، ومعتمد بريطانيا فى قلق وخطر . واتخذت الاحتياطات الشديدة للمحافظة على سلامة الأمير والوزير والمعتمد الكبير من الأخطار التى كانت تتهددهم فى كل حين .

والحق إن الأمة اعتبرت حريتها وحياتها ودستورها واستقلالها منحصرة فى حرية صحافتها . وموتها واستعبادها وحرمانها من جميع الحقوق التى تتمتع بها الأمم الراقية كائنة فى الحجر والضغط على صحافتها . فإذا نالت صحفها حريتها كان هذا هو المطلوب ، وإذا حرمت منها ثارت وسخطت مهما قام فى البلاد من إصلاحات .

أما الخديو عباس فكانت أخباره كالآتى :

المقطم فى ٧ — ٤ — ١٩١٣

« أمضى سمو الجناب العالى الخديو سحابة أمس فى مزارعه فى أنشاص . وقد قصد سموه إلى سراى المنتزه فى المساء . وسيسافر إلى مزارعه بالضولمان يوم ٩ الجارى »

المقطم فى ٩ — ٤ — ١٩١٣

« . . . ثم يركب سموه الباخرة إسماعيلية قاصداً الأناضول لزيارة مزارعه الخاصة بها وتعهد الأعمال الهندسية الجارى عملها هناك ، ثم يعود بسلامة الله بعد مضى أسبوعين»

المقطم فى ١٧ — ٥ — ١٩١٣

« وصل سمو الخديو إلى سراى القبة عائداً من مزارعه فى الإسماعيلية عن طريق الخانكة »

المقطم فى ٥ — ٩ — ١٩١٣

« قضى سمو الخديو اليومين الماضيين فى مريوط متعهداً مزارعه »

وهكذا لم يكن للخديو من عمل سوى زيارة مزارعه ، ولم يكن له من هم يشغله ليل نهار غير الاستكثار من المزارع والحصول على الثروة بطرق ليست مشروعة . طرق هى النهب والسلب بعينه لا أكثر ولا أقل . وقد ذكرنا صفقة أراضى المطاعنة كمثل بسيط . وهاك مثلا آخر ؛ وهو سكة حديد مريوط التى أنشأها الخديو لإصلاح أراضيه الزراعية الواقعة غرب الإسكندرية . قال أحمد [1]

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ ص ٣٢٤ و ٣٢٨

شفيق باشا « ... وقدمت له مصلحة السكة الحديد بعض ماعندها من الأدوات المستعملة اللازمة لهذه السكة بثمن قليل ، وكذلك أرسلت له نظارة الداخلية جماعة من المحكوم عليهم بالسجن ليساعدوه فى مدها ، وقد ترك الإنجليز هذه السكة للخديو ليلهو بها عن مناوأتهم ، وفضلا عن ذلك كان الخديو يشغل رجال الحرس فيها »

وقد أراد الخديو أن يبيع هذه السكة لشركة إيطالية ، وذلك بعد انتهاء غزو إيطاليا لطرابلس ؛ ولكن كتشنر عارض فى ذلك ، وهدد بخلع الخديو ، فلم يجد هذا مفراً من التراجع ، وطلب من الحكومة المصرية أن تشتريها فمارض كتشنر كذلك . فوسط الخديو رئيس النظار محمد سعيد لإقناع كتشنر بإجابة طلبه واعداً بتحسين[1] سيره فى المستقبل ، فوافق كتشنر وتسلمت الحكومة السكة الحديدية نظير مبلغ ٣٩٠ ألف جنيه مصرى دفعتها للخديو .

لقد هدد كتشنر بعزل الخديو مرتين : المرة الأولى حينما عارض فى إنشاء وزارة الأوقاف والمرة الثانية عند شروعه فى بيع سكة حديد مربوط لشركة إيطالية . فلم يكن التهديد بعزل الخديو لمصلحة وطنية ، بل كان على العكس من ذلك .

وقد فكر عباس[2] فى التنازل عن العرش لابنه عبدالمنعم فى صيف سنة ١٩١٤ ولكن كتشنر صرح لرسول الخديو بأنه لا يريد أن تكون له علاقة بهذا الموضوع ، فبعث الخديو رسولا خاصاً إلى لندن وكان ذلك فى منتصف يوليو

(١ و ٢) مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ ص ٣٢٤ و ٣٢٨

سنة ١٩١٤ ، إلا أن هذا الرسول لم يستطع مقابلة وزير خارجية بريطانيا نظراً لنشوب الحرب العالمية الأولى ، وانشغال الوزير فى كثير من الشئون .

ومن العجيب أن عباس لم يعرض على الإنجليز موضوع تنازله عن العرش لولى عهده حينما اشتدت الأزمة بينه و بينهم ؛ وحينما طلبوا منه أن يغادر تركيا إلى إيطاليا ، بل أظهر عزمه وتصميمه على العودة إلى مصر فوراً .

الفصل الثانى

التمهيد لإعلان الحماية

حينما دخلت إنجلترا الحرب ضد ألمانيا فى ٤ من أغسطس سنة ١٩١٤ كانت تعلم علم اليقين أن الدولة العثمانية ستحارب إلى جانب ألمانيا . لذلك شرعت منذ اللحظة الأولى تمهد الأذهان وتعد النفوس وتهيئ الظروف لإحداث التغيير المنتظر فى مركز مصر القانونى ، وفى خلع الخديو عباس الذى لم يخف ميوله الودية نحو العثمانيين . فطلبت من الحكومة المصرية إعلان حالة الحرب على ألمانيا ، والسماح للقوات البريطانية بمباشرة جميع حقوق الحرب فى مصر . وهذا هو نص الإعلان :

قرار عن الدفاع (١) عن القطر المصرى أثناء الحرب القائمة بين ألمانيا وبريطانيا العظمى

صادر من مجلس وزراء مصر

بما أنه قد قضى ؛ لسوء الحظ ؛ بإعلان الحرب بين جلالة ملك بريطانيا العظمى وأيرلندة والملحقات فيما وراء البحار وإمبراطور الهند ، وبين إمبراطور ألمانيا .

---

(١) الصحف اليومية فى ٧ ـ ٨ ـ ١٩١٤ .

ونظرا لأن وجود جيش الاحتلال فى القطر المصرى يجعل هذا القطر عرضة لهجوم أعداء صاحب الجلالة البريطانية .

وبما أنه من الضرورى ؛ نظرا لهذه الحالة الفعلية ؛ التمكن من اتخاذ جميع الوسائل اللازمة لدفع خطر مثل هذا الهجوم عن القطر المصرى .

وبما أنه قد أشير على الحكومة المصرية تحقيقا لهذا الغرض أن تتخذ الإجراءات الآتية .

فلهذه البواعث يكون معلوما لدى جميع ذوى الشأن أن مجلس النظار فى جلسته المنعقدة فى يوم ١٣ رمضان سنة ١٣٣٢ (٥ أغسطس سنة ١٩١٤) تحت رياسة عطوفتلو أفندم القائمقام الخديو قد قرر ما يأتى .

(ومضمون القرارات تحريم التعامل مع الرعايا الألمان سواء كان ذلك بالبيع أو الشراء . وتحريم مدهم بالمعلومات التى تضر بسلامة البلاد وأمنها) .

وقد جاء فى المادة الثالثة عشرة من هذا المرسوم ما نصه :

« القوات البحرية والحربية التابعة لصاحب الجلالة البريطانية يجوز لها أن تباشر جميع حقوق الحرب فى الموانى المصرية ، أو فى أرض القطر المصرى . وكل مايجرى الاستحواز عليه فى الموانى المصرية ، أو فى أرض القطر المصرى من سفن حربية ، أو مراكب تجارية ، أو بضائع ، يجوز إحالة النظر فيه إلى إحدى محاكم الغنائم البريطانية » .

وفى ١٣ من أغسطس أصدر مجلس النظار قراراً آخر بتطبيق مواد هذا المرسوم على النمسا والمجر .

* * *

وقد اعترضت صحيفة الأهالى[1] على هذه القرارات ، وحذرت الحكومة من أن تسير مغمضة العينين فى مسألة تكييف مركز مصر السياسى لئلا توقع آمال البلاد فى الحرية والاستقلال فى حفرة ، وهددتها بحكم التاريخ عليها بسبب القرار الذى أصدره مجلس النظار بشأن الدفاع عن مصر ، واعتبار البلاد محاربة فى جانب الجيش الإنجليزى . فردت عليها صحيفة[2] الوطن بمقال جاء فيه « يستحيل إبقاء مصر على الحياد فى حرب اشتبكت فيها الدولة المحتلة ، وذلك لسببين :

أولا : أن الدول المحاربة لإنجلترا لا تستطيع أن تعتبر هذا الحياد ، رضينا أم لم نرض . فهى لا بد أن تهاجمنا برا أو بحرا . وحينئذ يتحتم واجب الدفاع .

والسبب الثانى : أن إنجلترا لا يمكن أن تكون فى مصر ولا تجعلها محطة من محطاتها الحربية ، ومركزا من مراكزها الدفاعية أو الهجومية » .

وما قالته صحيفة الوطن فى هذا الموضوع لا يبعد عن الصواب . فقد كانت مصر فى خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) دولة غير محاربة ، ومع ذلك فإن دول المحور لم تعترف بهذا الموقف ، وأرسلت طائراتها لضرب المدن المصرية . ووصلت جيوشها إلى مسافة قريبة من الإسكندرية .

.. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الإجراءات التى اتخذها الإنجليز للدفاع عن مصر كان المقصود بها رد الغزو العثمانى الذى كان مؤكد الوقوع . فأرادت إنجلترا أن تفهم العثمانيين أنها مصممة على الاحتفاظ بمركزها فى مصر .

---

(١) الأهالى فى ٧ ـ ٨ ـ ١٩١٤ ، وكانت تعبر عن رأى الخديو .

(٢) الوطن فى ٧ ـ ٨ ـ ١٩١٤ .

وقد بدأ الإنجليز منذ قيام الحرب فى تقوية مركزهم فى مصر إلى حد كبير . فاستقدموا فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ قوات هائلة من الجنود الهندية والنيوزيلاندية والأسترالية ومن سائر المستعمرات الآسيوية والأفريقية . واتخذوا مصر قاعدة تتجمع فيها هذه الجيوش لاستكمال تدريبها وإرسالها تباعا إلى ميادين القتال . وفرضوا رقابة عسكرية على الأنباء الخارجية . فسرى الشك بين الجمهور فى صحة الأنباء الواردة عن انتصارات الحلفاء .

وأخذوا ينشرون الرعب فى قلوب المصريين . فبدأت القيادة البريطانية تستعرض جنود الاحتلال فى الشوارع والطرقات ، المشاة منهم والفرسان بكامل أسلحتهم الثقيلة والخفيفة وكل معدات الحرب . وكان أكثر طوافهم بالأحياء الوطنية الآهلة بالسكان .

ومنذ أول أكتوبر سنة ١٩١٤ بدأ قائد جيش الاحتلال فى إصدار الأوامر والقرارات. من ذلك(١) قرار أصدره فى ١-١٠-١٩١٤ بشأن رعايا الأعداء ، وهذا نصه :

«أنا الموقع على هذا جون جرنفل مكسويل قومندان جيش الاحتلال بمصر

آمر بأن يقيد جميع الرعايا الألمانيين والنمسويين الهنكاريين الذين من أصل ألمانى أو نمسوى هنكارى ، ويقيمون حالا بالقطر المصرى ؛ أسماءهم فى السجلات المودعة لهذا الغرض بالمحافظات والبنادر التى يقيمون بها قبل العاشر من شهر أكتوبر الجارى » .

---

(١) الوطن فى ٢-١٠-١٩١٤ .

« ومن خالف منهم هذا الأمر ؛ ألمانيا كان أو نمسويا هنكاريا ؛ قبض عليه بمعرفة السلطة العسكرية» .

إمضاء : ج ج . مكسويل

ومن جشع المستعمرين أنهم أرغموا الحكومة المصرية على أن تعطى الموظفين الإنجليز الذين يذهبون للحرب إجازة قدرها ستة أشهر بمرتب كامل ، مع إبقاء وظائفهم خالية على ذمتهم حتى يعودوا .

* * *

وقد عقدت جمعية الشبيبة المصرية اجتماعا بمدينة جنيف بمناسبة ذكرى دخول الإنجليز القاهرة فى ١٤ ـ ٩ ـ ١٨٨٢ وأرسلت إلى المستر سكويث رئيس الوزارة البريطانية البرقية[1] الآتية :

جمعية الشبيبة المصرية بأوربا المهتمة جدا بتصريحكم الأخير فى مجلس البرلمان لمصلحة الشعب البلجيكى ، والإعجاب الذى أظهرتموه بدفاع ذلك الشعب ضد الاحتلال الأجنبى ، تذكر سعادتكم فى هذا اليوم ، يوم ١٤ سبتمبر ، بالوعد الذى كررته الحكومة الإنجليزية مرات عديدة عن رد الحرية لمصر » .

« وهذا العمل لا يكون فى نظر العالم المتمدين إلا قوة عظيمة يعضد بها احتجاجكم » .

وبالطبع لم يكن لهذه البرقية أى أثر ، إذ أن الإنجليز كانوا قد عقدوا العزم على إهدار حرية الشعب المصرى إهدارا تاما .

* * *

---

(١) الوطن فى ١٩١٤/١٠/٧

ولما أشيع عزم الحكومة المصرية على تأجيل انعقاد الجمعية التشريعية، بعثت صحيفة « الجورنال دى كير[1] » الفرنسية أحد محرريها إلى سعد زغلول وكيل الجمعية المنتخب لاستطلاع رأيه فى هذا الموضوع .

المحرر — هل اتصل بسعادتكم نبأ عزم الحكومة على تأجيل عقد الجمعية التشريعية هذا العام ؟

سعد — كلا ، لم يتصل بى شىء رسمى عن ذلك .

— وهل الجمعية تنعقد فى أول نوفمبر القادم من تلقاء نفسها ؟ أم يقتضى لعقدها أمر عال ؟

— إن الجمعية تنعقد من تلقاء نفسها ، فإن القانون النظامى يخولها ذلك . ولذلك قررت الجمعية فى آخر جلساتها الماضية أن يكون اجتماعها فى أول نوفمبر القادم .

— وهل ترى سعادتك ما يوجب تأجيل انعقاد الجمعية فى ميعادها الاعتيادى؟

— لا ، بل إن انعقادها يعود على الحكومة بفائدة عظيمة ، لأنى أعتقد أن الحكومة تجد منها خير معين فى التدابير المشروعة التى تقررها لمصلحة البلاد ، ولإزالة العقبات التى وقفت فى سبيلها .

— إن الحكومة قد جاءت بتدابير عديدة فى هذه الأيام، ترى لو عرضت على الجمعية التشريعية ، كيف يكون رأيها فيها ؟

— إنى أعتقد أنها لاتصادف إلا كل استحسان عند زملائى ، لأنها والحق يقال من أفيد المشروعات التى يمكن أن تأتيها حكومة فى أحوال كالأحوال التى تتخبط البلاد فيها فى هذه الأيام .

---

(١) نقلا عن الشعب فى ١١—١٠—١٩١٤

ومع روح المسالمة التى أظهرها سعد زغلول فى حديثه المتقدم ، إلا أن الإنجليز لم يسمحوا بعقد الجمعية طوال مدة الحرب.

وقد وقف أعضاؤها من جميع الأحداث التى وقعت فى خلال فترة الحرب موقفا مخجلا ينطوى على الخوف والجبن ، والخنوع والمسكنة . بل ظهروا فى مواقف تكشف عما طبعوا عليه من النفاق والرياء للسلطات المحتلة . وكان سكوتهم على المظالم التى وقعت على الشعب ، وعدم ارتفاع صوت واحد منهم بالاستنكار أو الاحتجاج على طغيان المحتلين من العوامل التى أضعفت عزيمة الأمة وجعلتها تخضع وتستكين للإنجليز.

قانون منع التجمهر :

وقد طلب الإنجليز من حكومة حسين[1] رشدى إصدار قانون لمنع التجمهر ، نص على توقيع عقوبة لا تزيد عن ستة أشهر لكل من يقبض عليه فى حالة تجمهر . وإذا كان التجمهر مصحوباً بحمل الأسلحة أو الآلات التى يمكن أن يحدث استخدامها الموت ؛ فإن العقوبة لا تزيد عن سنتين ، وغرامة لا تتجاوز خمسين جنيها .

إعلان الأحكام العرفية :

وفى ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٤ أعلن قائد جيش الاحتلال الأحكام العرفية . وهذا نص الإعلان :

« إننى أمرت من حكومة صاحب الجلالة البريطانية أن أضع مصر تحت

---

(١) الصحف اليومية فى ١٩ — ١٠ — ١٩١٤ .

الأحكام العرفية لضمان حمايتها . وعليه فالبلاد موضوعة من الآن تحت أحكام القانون العرفى » .

مصر — تحريراً فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ إمضاء : جون مكسويل

قومندان قوات الجيش البريطانى بمصر

وأردف هذا الإعلان القصير بمذكرة تفسيرية ؛ هذا نصها :

أنا جون جرنفل مكسويل لفتننت جنرال قومندان الجيوش البريطانية فى القطر المصرى المنوط بتنفيذ الأحكام العرفية ؛ أعلن بهذا ما يأتى :

أولا : إن السلطة التى تستعمل تحت إشرافى بمعرفة الإدارة العسكرية ليس الغرض منها الحلول محل الإدارة الملكية ، بل تعتبر تكميلا لها . وعلى كل الموظفين الذين يعملون فى خدمة الحكومة المصرية الاستمرار على أداء واجباتهم بكل دقة فى وظائفهم .

ثانياً : إن أحسن ما يمكن للأهالى عمله للصالح العام ؛ هو الامتناع عن كل عمل من شأنه تكدير صفو السلام العام ، أو التحريض على التنافر ، أو مساعدة أعداء جلالة ملك بريطانيا وحلفائه . والمبادرة باتباع جميع الأوامر التى تحت إشرافى لحفظ السلام العام وحسن النظام عن طيب خاطر . ومتى اتبعوا ذلك فلا يكونون معرضين لأى تداخل فى شئونهم من السلطة العسكرية .

ثالثاً : جميع الطلبات التى ربما تلزم للأعمال العسكرية من خدمات الأفراد ، أو مما يمتلكونه ؛ تكون قابلة للتعويض التام ، وتحدد قيمتها بمعرفة سلطة مستقلة إن لم يحصل الاتفاق عليها بين الطرفين .

مصر ، تحريراً فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ إمضاء : ج . ج مكسويل

وفى التاريخ المذكور قررت السلطات البريطانية فرض الرقابة على كل ما ينشر فى الصحف المحلية، فلم يسمح بنشر شىء إلا بعد عرضه على الرقيب وأخذ الإذن بالموافقة على نشره .

وانطلق الجواسيس فى كل مكان لسماع ما يقوله الناس والتبليغ عنهم ، وما يتبع ذلك من اعتقال ونفى ، أو محاكمة أو تحديد إقامة . حدث هذا قبل إعلان الأحكام العرفية ، وزادت موجة الاعتقالات بعد إعلانها .

ومن أمثلة ذلك أن جنديا مصريا[١] كان راكبا الترام فأخذ يتكلم ضد الإنجليز ، فألقى القبض عليه وقدم إلى المحاكمة أمام مجلس عسكرى ، فحكم عليه بالحبس لمدة سنة مع الأشغال الشاقة . وكان ذلك قبل إعلان الأحكام العرفية بأسبوعين .

وفى اليوم الذى أعلنت فيه الأحكام العرفية ألقت الشرطة القبض على عدد كبير من الجالسين[٢] فى المقاهى لأنهم — كما قيل — كانوا يروجون للسياسة الألمانية .

وقبضت السلطات البريطانية على جميع أعضاء الحزب الوطنى ووضعتهم فى سجنى طرة والقلعة . كما قبضوا على كثير من المصريين فى الأقاليم ووضعوهم فى السجون .

وأخذت الشرطة فى جمع العصى[٣] الغليظة من الناس محافظة على الأمن .

الإنجليز والأزهر :

وكان الإنجليز متخوفين من ناحية الجامع الأزهر ، فطلبوا تعطيل الدراسة

(١ ، ٢ ، ٣) الشعب فى ٤ ، ٨ ، ٢٥ — ١١ — ١٩١٤ .

فيه ، ولكن رجال الأزهر فهموا مستشار الداخلية الإنجليزى أن الأزهر جامع تؤدى فيه الشعائر الدينية ، ولا يمكن إغلاقه . ففكر الإنجليز فى تقليل عدد الطلبة ، وكان عددهم فى ذلك الوقت ٨٢٢٢ طالبا ، فأوعزوا إلى شيخ الأزهر بفصل الطلبة الذين عرفوا بعدائهم للإنجليز من مصريين وأتراك وغيرهم من أبناء المستعمرات البريطانية والفرنسية . فتم فصل ٣٠٠٦ من الطلاب بحجة عدم انتظامهم فى الدراسة واشتغالهم بغير طلب العلم . واعتبروا الاشتغال بالسياسة اشتغالا بغير العلم . ونجحوا ألف طالب فى امتحان عقد على عجل ، وبذلك انخفض عدد الطلبة إلى النصف .

وطلبوا من مجلس الأزهر الأعلى أن يرسل منشوراً دورياً إلى المعاهد الدينية فى القاهرة والأقاليم لحض الطلبة على التزام الهدوء والسكينة . كما نشرت مشيخة الأزهر الإعلان الآتى بين طلبتها ، وهو لا يختلف عن المنشور الذى أرسل إلى الأقاليم إلا فى شىء واحد ، وهو أنه حظر على الطلبة الخروج من منازلهم بعد الساعة السادسة مساء ، وهذه صورته[1] :

« مشيخة الجامع الأزهر تلفت نظر طلاب العلم بمناسبة إعلان الأحكام العرفية فى القطر المصرى ، إلى وجوب التفرغ لدروسهم ، وعدم الخوض فى الأمور السياسية . وأن يلتزموا جانب السكينة والهدوء ، وأن يكونوا على الدوام بمعزل عن المجتمعات التى قد تقع عليهم فيها من المسئولية مالا يودونه ولا تحمد عقباه . وأن لا يتكلموا فى الأحوال الحاضرة بشىء ما » .

« كذلك تأمرهم المشيخة أن يلزموا بيوتهم من الساعة السادسة بعد الغروب وأن يكونوا قدوة للجمهور داخل الأزهر وخارجه .

والله يوفقهم إلى الخير والصلاح »

---

(١) الشعب فى ٦ — ١١ — ١٩١٤ .

ومن العجيب أن مشيخة الأزهر تأمر الطلبة بأن يمتنعوا عن التجول فى فى العاصمة وتحدد إقامتهم فى منازلهم ابتداء من الساعة السادسة مساء ؛ مع أن الإنجليز لم يمنعوا تجول الناس فى أى وقت .

الإنجليز وهيئة كبار العلماء :

وطلبوا من هيئة كبار العلماء أن تصدر منشوراً إلى المسلمين من سكان القطر المصرى تنصحهم فيه بالتزام الهدوء والسكينة . وقد كتبت [1] الهيئة المنشور الآتى وقدمت له بقولها :

« نظراً للظروف الحالية قد اجتمعت هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف ، ورأت بذل النصح للمسلمين من سكان هـــذا القطر بالتزام جانب السكينة والطمأنينة ، وحررت لذلك الدعوة الآتية التى بعثت بها لرياسة مجلس النظار لنشرها فى الجرائد اليومية . وها هى :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله الذى حذر عباده من الدخول فى الفتن ، وأمرهم باجتناب ما ظهر منها وما بطن ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى حض الناس على مكارم الأخلاق ، وحثهم على ملازمة السكينة وترك الشقاق . وعلى صحبه وآله الذين اتبعوه ونسجوا على منواله .

أما بعد ، فيامعشر المسلمين . أنتم تعلمون أن الحرب القائمة الآن على ساق وقدم ، قد تطاير إلى سائر الأقطار شررها ، وعم جميع البلاد ضررها . وقد دهم الناس مادهمهم من رزاياها ، وعمهم ما عمهم من بلاياها . وقد قيض الله لـكم

(١) الصحف اليومية فى ١٠ ــ ١١ ــ ١٩١٤ .

يا معشر المصريين أن تكونوا فى أمن من خوض غمراتها ، وهيأ لكم أن تجنبوا شرها وبلاءها ، بدون أن يكلفكم نفسا ولا نفيساً .

فالواجب عليكم بإزاء هذه الحال أن تلازموا السكون والسكينة ، وأن تخلدوا إلى الراحة والطمأنينة . وأن ينصح كل واحد منكم الآخر بذلك ، وأن لاتخوضوا فى شيء مما لا شأن لكم فيه . وأن يشتغل كل واحد منكم بشئونه ، فقد قال تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .

وإياكم أن تتعرضوا لما يجلب عليكم المضرة ، ولا تأمنوا عواقبه وشره ، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة . بل ألزموا فى جميع الأحوال الإحسان فى الأقوال والأفعال ، فقد قال تعالى ـ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين .

واحذروا أن تجلسوا مجالس أهل الفتن والشرور ، واجتنبوا المجامع التى يكثر فيها القيل والقال ، ولاتسمعوا إلى ما يشوش به عليكم ذوو الغايات والجهال . فلا خير فى سر هؤلاء ولا نجواهم ، كما قال تعالى فى أمثالهم ـ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء رضوان الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما .

وليحذر كل واحد منكم أن يتعرض لما يصيبه ضره ، ولا يقتصر عليه شره . فقد حذركم الله من ذلك فقال تعالى ـ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ـ وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى . من استشرف لاتستشرفه . فمن وجد منها ملجأ أو معاذا فليعذ به .

ومعنى هذا الحديث أن كل من كان أبعد عن الفتنة كان خيرا ممن قربه منها ، وأن من تعرض لها تهلكه .

فها نحن معاشر العلماء قد رأينا من واجبنا فى هذه الظروف الحاضرة أن نبذل لكم أيها المسلمون النصح امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم : الدين النصيحة. وفى الحديث الصحيح : من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه ، وكفى بهذا نصيحة ، والله الموفق » .

إمضاء ١٢ من هيئة كبار العلماء ، ١٥ من العلماء

ومعلوم أن رجال الدين المسلمين فى العصر الحديث موظفون حكوميون . ولذلك كان من السهل على الحكام أن يسخروهم لخدمة أغراضهم . وقد عرف الشعب المصرى ذلك فلم يأبه لأى نداء يصدر من هيئة دينية . ولو كان رجال الدين الإسلامى يعملون بوحى من ضمائرهم لما سكتوا عن القبائح والمظالم التى ارتكبها الإنجليز فى خلال هذه الحرب .

* * *

الحرب بين إنجلترا والدولة العثمانية :

وقد تتابعت الحوادث سراعا ، وبدأت بإعلان إنجلترا الحرب على الدولة العثمانية . وهذا نص مانشرته الصحف اليومية فى ٧ / ١١ / ١٩١٤ تحت عنوان « بريطانيا العظمى وتركيا فى حالة حرب »

« أنا اللفتننت جنرال جون جرنفل مكسويل قائد جيوش صاحب الجلالة البريطانية فى القطر المصرى .

قد كلفت بأن أعلن بأنه من يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ أصبحت بريطانيا العظمى وتركيا فى حالة حرب .

ولو أنه منذ ابتداء الحرب الناشبة بين جلالته وإمبراطورى ألمانيا والنمسا ؛ قد أقدمت الحكومة العثمانية مرارا تحت تأثير نفوذ أعداء جلالته على خرق الحقوق المكتسبة لجلالته بمقتضى القوانين الدولية والمعاهدات ؛ فإن حكومة

جلالته قد تحاشت مقابلة هذه الأعمال بمثلها تحاشيا دقيقا حتى أرغمت على ذلك ؛ ليس فقط بسبب الاستعدادات الحربية فى سوريا التى لايمكن إلا أن تكون موجهة ضد القطر المصرى ، بل بسبب خرق حرمة الحدود المصرية بواسطة عصابات مسلحة . وباعتداء قوات الدولة العثمانية البحرية على أملاك أحد[1] حلفاء جلالته تحت قيادة ضباط ألمانيين بدون سبب يحملها على هذا الاعتداء ؛ فإن بريطانيا العظمى تحارب الآن لغرضين وهما :

١ — الدفاع عن حقوق مصر وحريتها التى كسبها محمد على فى الأصل فى ميدان القتال .

٢ — واستمرار هذا القطر على التمتع بالسلم والرخاء اللذين تمتع بهما مدة الاحتلال البريطانى منذ ثلاثين سنة .

ولعلم بريطانيا بما للسلطان بصفته الدينية من الاحترام والاعتبار عند مسلمى القطر المصرى ؛ فقد أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصرى أية مساعدة ، ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الأهالى وتطلب منهم الامتناع عن أى عمل من شأنه عرقلة حركاتها الحربية أو أداء أى مساعدة لأعدائها » .

ج . ج . مكسويل

قائد الجيوش البريطانية فى القطر المصرى

ولكن هل قام الإنجليز حقا بعبء الدفاع عن مصر دون أن يأخذوا من المصريين شيئا ؟ إن الوقائع التى ستمر بنا فيما بعد تبين مدى الخلف بالوعد الذى حدث من الإنجليز ، ومقدار المظالم التى تحملها الشعب طوال سنى الحرب ، ومقدار الخسائر فى الأموال والأرواح التى لحقت بالمصريين ، لا فى الدفاع عن مصر

(١) المراد قيصر روسيا .

ضد الغزو العثمانى والسنوسى، بل فى الدفاع عن مصالح الإنجليز فى السودان والعراق وفلسطين وشبه جزيرة غاليبولى وغيرها .

المراسلات[1] التى تبودلت

بين نائب المعتمد البريطانى ، ورئيس نظار الحكومة المصرية

إلى صاحب العطوفة حسين رشدى باشا

رئيس مجلس نظار الحكومة المصرية

يا عطوفة الوزير

أتشرف بأن أرفع لعطوفتكم مع هذا صورة المنشور الذى أصدره جناب قائد الجيوش البريطانية العام فى القطر المصرى

وترون عطوفتكم من هذا المنشور أن السلطة فيما يتعلق بالوسائل الحربية اللازمة للدفاع عن القطر المصرى ، وبالتدابير التى يستدعيها هذا الدفاع ؛ أصبحت منحصرة فى يد جناب القائد العام . وأن حضرات النظار لا يزال كل واحد منهم حافظاً للسلطة التى له فى الأمور الملكية الخاصة بنظارته .

ملن شيتهام

رد رئيس النظار

إلى جناب المحترم المستر شيتهام

نائب معتمد دولة بريطانيا العظمى فى مصر

يا جناب الوكيل

علمنا ما جاء فى منشور قائد الجيوش البريطانية العام فى القطر المصرى الذى بعثتم به إلى

---

(١) الصحف اليومية فى ٧ — ١١ — ١٩١٤

ونظراً لغياب سمو الجناب الخديوى الذى نستمد منه سلطتنا ؛ أتشرف بإبلاغكم بأنا سنستمر أنا وزملائى على إدارة أعمال نظاراتنا الملكية تجنباً للمضار التى تلحق البلاد إذا تعطلت حركة إدارتنا الداخلية .

رئيس مجلس نظار الحكومة المصرية

إمضاء : حسين رشدى

وقد قيل إن حسين رشدى أعرب عن نيته فى الاستقالة [1] هو وزملاؤه ، وذلك بعد دخول الدولة العثمانية الحرب ، ولكن لم يعرف إلى أى جهة يقدم هذه الاستقالة بعد انقطاع المواصلات بينه و بين الخديو . إلا أن خطابه لنائب المعتمد البريطانى يسجل موافقته على الاستمرار فى الحكم .

* * *

وأصدر القائد العام للجيوش البريطانية فى مصر منشوراً ينص على أن تسرى على الدولة العثمانية القرارات التى سبق أن أصدرها مجلس وزراء مصر فى ٥ من أغسطس سنة ١٩١٤ بخصوص معاملة الرعايا الألمانيين والنمساويين .

وقد نشر الإنجليز [2] فى مصر كتاباً أبيض عن المخابرات التى دارت بينهم و بين الحكومة العثمانية قبل قيام الحرب بينهما . ومما جاء فيه:

« أظهرت التلغرافات العديدة التى أرسلها السير ماليت [3] الاستعدادات التى اتخذت ضد مصر وأقيمت بناء على إيعاز الأتراك .

وفى ٢٣ سبتمبر أنذر السفير تركيا بالنتائج الوخيمة التى تلحق بها من جراء تلك الاستعدادات ، فلم يؤثر ذلك ، واستمرت الاستعدادات فى طريقها .

(١) الشعب فى ١٠ ـ ١١ ـ ١٩١٤

(٢) الشعب فى ٢٥ ـ ١١ ـ ١٩١٤

(٣) كان سفيراً لبريطانيا فى الأستانة

وفى يوم ٢٤ منه أرسل السير إدوارد جراى إلى سفيره الخلاصة الآتية عن الأعمال العدائية التى تشكو منها انجلترا ، راجياً منه أن يبلغها إلى الصدر الأعظم ؛ وهى أن فيلق الموصل ودمشق ما فتئا يرسلان جنودهما إلى الجنوب من يوم التعبئة . وذلك بقصد إعداد غارة على مصر وقناة السويس عن طريق غزة والعقبة . وقد تألف فيلق عظيم من العرب الرحالة وسلح ليساعد هذه الحملة .

وقد جمعت النقالات ، ومهدت السبل حتى الحدود المصرية ، وأرسلت الألغام إلى العقبة وألقيت فى خليجها لحماية الجيش ضد هجوم بحرى . كما أن الشيخ جاويش المعروف ، والذى اشتهر لأنه كان سبباً فى الانقسام الذى ما كان الغرض منه سوى إثارة الخواطر الإسلامية ضد المسيحيين ؛ قد نشر ووزع فى جميع أنحاء سوريا ، ومن المحتمل فى الهند ؛ نشرة ملتهبة حاضة المسلمين على قتال بريطانيا العظمى .

والدكتور برفر الذى اشتغل طويلا فى دس الدسائس بالقاهرة ضد الاحتلال البريطانى قد كرس وقته جميعه فى سوريا على محاولة تحريض الأهالى على الاشتراك فى ذلك الخلاف .

وكان السير ماليت عشية أمس يحادث وزير البحرية الذى صرح له بأن تركيا تعتبر مصر جزءاً متمما لها ، ولا تهتم بالنسبة لطرابلس وتونس والهند الخ . . وأن تركيا لن تعمل شيئاً رسمياً ، ولكن ستغض الطرف عن كل هياج يوجه ضد الاحتلال البريطانى فى مصر . وبذلك لمح الوزير إلى منسألة كان قد عرضها منذ خمسة عشر يوماً ، وهى طلبه إمضاء معاهدة على قاعدة اتفاقية دريدموند[1] وولف ،

---

(١) كانت انجلترا قد عرضت على تركيا فى سنة ١٨٨٤ أن تجلو جنودها عن مصر =

محددة موعد جلاء الجنود البريطانيين عن مصر بعد نهاية الحرب .

قال السفير : وفى ذلك الوقت كانت الجرائد تفيض بذم سلوكنا فى مصر معللة على قبيل المثال أننا أغلقنا الأزهر . وهذا يدل بوضوح على أن الألمان كانوا يعملون فى ذلك لحض التعصب الدينى للأتراك ضدنا .

ولكى تظهر بريطانيا العظمى كيف ترغب فى اجتناب الحرب مع حليفتها القديمة ؛ كلفت منذ ٧ أغسطس المسيو بومون القائم بأعمال السفارة فى الآستانة أن يصرح التصريحات الآتية الهامة :

إذا بقيت تركيا على الحياد ، واستمرت مصر هادئة ، ولم تقع حوادث ليست فى الحسبان ؛ فإن حكومة جلالة الملك لا تعرض إدخال تغيير فى حالة مصر .

إن الإشاعة ذاعت بأن الحكومة الإنجليزية طرحت على بساط البحث مسألة ضم مصر إليها . ثم قال السير جراى : تفضل بتكذيب هذه الإشاعة تكذيباً باتاً ، وقل بأنه ليس لدينا نية إهانة تركيا . وزيادة على ذلك أكد ما جاء فى الفقرة الأولى السابقة .

وفى أول سبتمبر أرسل السير جراى تلغرافا إلى سفيره يقول :

تفضل بإخبار الحكومة التركية حتى لا يكون هناك مجال لسوء التفاهم أن الحكومة المصرية اتخذت جميع الإجراءات لمراقبة قنال السويس من شاطئيه . وأن هذا القرار ضرورى ليكون مرور المراكب التجارية من قنال السويس

= فى ظرف ثلاث سنوات ، على أن يكون لها وحدها حق العودة إلى احتلالها فى حالة قيام اضطرابات . وقد وافقت الحكومة العثمانية على ذلك ، إلا أنها عادت فسحبت موافقتها بإيعاز من فرنسا التى أشارت عليها بأن يكون جلاء الإنجليز عن مصر بلا قيد ولا شرط .

هادئاً منتظماً . وأضف إلى ما تقدم أننا لا ننوى أن نقوم فى منطقة سينا بأى عمل حربى » .

هذا أهم ما جاء فى الكتاب الأبيض الإنجليزى عن مصر . والمطلع على تاريخ العلاقات بين انجلترا والدولة العثمانية منذ احتلال الإنجليز لمصر ؛ يدرك مبلغ المغالطات التى انطوى عليها هذا الكتاب. فقد أظهروا منتهى العداء للدولة العثمانية فى خلال تلك الفترة (١٨٨٢ — ١٩١٤) وبخاصة فى حرب البلقان سنة ١٩١٢ وفى مدة الغزو الإيطالى لطرابلس ، مما جعل العثمانيين يرتمون فى أحضان الألمان ويربطون مصيرهم بمصير ألمانيا .

وعلى كل حال فإن انجلترا لم تقدم للدولة العثمانية أى وعد بالجلاء عن مصر ، وحتى فى قولها إنها لا تنوى إدخال أى تغيير على مركز مصر الدولى ، فإنها قيدت هذا الوعد بشرط عدم وقوع حوادث ليست فى الحسبان . وهذه عبارة من شأنها أن تجعل الوعد السابق لا قيمة له على الإطلاق .

فانجلترا فى وقت شدتها وضائقتها وانهزامها هى وحلفائها أمام الألمان فى الميدان الشرقى والغربى ، أرادت أن تشترى حياد الدولة العثمانية دون مقابل ، ولا حتى بمجرد الوعد الصريح بالإبقاء على مركز مصر الدولى دون تغيير .

وكان العثمانيون يعلمون أن روسيا لم تحارب إلى جانب الحلفاء إلا نظير ثمن باهظ ، وهو السماح لها فى حالة انتصار الحلفاء باحتلال شمال تركيا بما فى ذلك الأستانة . ولو بقيت روسيا إلى جانب الحلفاء إلى النهاية لحصلت من غير شك على هذا الثمن . ولكن قيام الثورة الشيوعية فى روسيا هو الذى أنقذها من المصير المظلم الذى كان ينتظرها . ثم إن انجلترا اقتسمت إيران بينها وبين روسيا . وكانت مطامعها فى البلاد العربية واضحة للعيان . فقد تحدثت الصحف الإنجليزية

والمصرية عن مشروعات الاستعمار الغربى فى الشام منذ أول يوم دخل فيه العثمانيون الحرب . فذكرت هذه الصحف أن فلسطين ستكون من نصيب اليهود ، وأن سوريا ولبنان سيكونان من نصيب فرنسا . مثال ذلك ما نشرته صحيفة مصر فى ٧–١٢–١٩١٤ تحت عنوان « مستقبل فلسطين – تجديد مملكة بنى إسرائيل القديمة ، أو إعادة الملك إلى إسرائيل » وهو « قرأنا فى الصحف الإنجليزية الأخيرة بأن انجلترا تريد جعل تلك البلاد – فلسطين – إمارة مستقلة لكى تفصل بين الأملاك المصرية وولاية سوريا التى ستصبح فرنسوية » .

« وقد أشار بعض الساسة بجعلها إمارة يهودية مستقلة ، وتعيين أحد كبار الإسرائليين والياً عليها » .

وقد طبعت السلطات البريطانية فى مصر الألوف من الكتاب الأبيض ووزعتها على طلبة المدارس والمعاهد والأعيان فى المدن الكبرى والأرياف .

• • •

وفى ١٠ من نوفمبر أمرت السلطات العسكرية بإخلاء المنازل المجاورة للقلعة التى كان يسكنها عرب اليسار .

وفى ١١ منه أصدر الجنرال مسكويل[١] المنشور الآتى :

« جميع الذين توجد معهم أوراق مكتوبة أو مطبوعة يقصد بها حض الأمة على التشيع لأعداء جلالته ، أو حملها على الاستهانة بنظام الحكومة القائمة بالأمر ، أو الحض عليها . والذين يذيعون تلك الأوراق وأشباهها ، أو يحاولون إدخالها فى القطر المصرى ، يعرضون أنفسهم للمحاكمة أمام المجلس الحربى » .

---

(١) الشعب فى ١٢–١١–١٩١٤ .

« فعلى الذين تقع إليهم أوراق من هذا القبيل أن يبادروا حتما من غير تأخير بتسليمها إلى السلطة القريبة منهم ، ملكية أم عسكرية » .

وفى منتصف شهر نوفمبر سنة ١٩١٤ علم الإنجليز أن العثمانيين يبثون الألغام فى خليج العقبة . فأرسلوا بارجة حربية عليها فصيلة من الجنود لاستطلاع الخبر . فلما رأى العثمانيون ذلك انسحبوا إلى شرق العقبة بعد أن أخلوا المدينة من سكانها .

* * *

ومنذ اليوم العشرين من نوفمبر سنة ١٩١٤ بدأت المناوشات بين العثمانيين وحرس خفر السواحل المصرية فى الجهة الواقعة بين بير الصف وقطية شرقى القنطرة . ودارت معركة صغيرة بين الطرفين انتهت بوقوع قوة خفر السواحل فى الأسر بعد أن قتل منها عدد من الجنود بينهم بعض الإنجليز .

ولما سمع المصريون بهذه الأنباء أظهروا الشماتة والفرح ، وارتفعت الأصوات بالدعاء للعثمانيين بالنصر . ثم وصلت شائعات بأن العثمانيين اقتربوا من الحدود المصرية فحدثت اضطرابات فى بعض أحياء القاهرة . فاضطرت السلطات العسكرية إلى إصدار المنشور [1] الآتى :

« إنه على أثر وقوع عدة حوادث فى الأيام الأخيرة ببعض أحياء القاهرة نشأت من الأخبار الكاذبة التى أذاعها بعض الأشخاص بدون أن يقبض عليهم فى الحال ، لا من السلطات العسكرية ، ولا من السلطات المحلية ؛ رأت السلطات العسكرية أن تتخذ تحوطات شديدة للمستقبل ، فأرسلت إلى رجال السلطة الملكيين والعسكريين تأمرهم بالقبض على كل شخص يذيع أخباراً كاذبة

(١) الوطن فى ٢٦–١١–١٩١٤ .

ينشأ عنها وقوع رعب أو خوف فى نفوس السكان . والموظف الذى يقصر فى واجبه من هذا القبيل ينزل به عقاب صارم » .

* * *

وكان الرأى العام المصرى يميل إلى العثمانيين ويجاهر بانتصاره لهم غير مكترث بالأحكام العرفية أو الاعتقالات التى كانت تقع كل يوم . فقد حدث [١] فى ٢٤-١-١٩١٥ أى قبل وقوع الغزو العثمانى بأيام أن أحد أبناء الأعيان بالوجه البحرى جمع حشداً من الفلاحين وتحدث معهم عن قرب دخول العثمانيين مصر وتحريرها من الإنجليز . فأبلغ أمره إلى السلطات العسكرية فألقت القبض عليه . وكان الناس [١] يجلسون فى المقاهى ويتكلمون بأصوات مرتفعة عن النصر المؤكد الذى سيحرزه العثمانيون ، ويرسمون خطط القتال على أفاريز المقاهى وقارعة الطريق ، ويحددون الساعة التى يدخل فيها الجيش العثمانى مدينة القاهرة ، ويقولون إنهم تغلبوا على مشكلة المياه فى شبه جزيرة سينا بأن مدوا أنبوبة طويلة من المطاط لنقل المياه من مواردها إلى أى جهة يريدون .

* * *

وقد سمحت السلطات العسكرية بنشر ما يهيئ الأذهان للتغيير السياسى الذى كانت انجلترا تنوى إجراءه فى مسند الخديوية . مثال ذلك ما نشرته صحيفة الوطن فى ٢-١١-١٩١٤ تحت عنوان « كثرة الأقاويل حول مقدم البرنس حسين » وهو « لما ذاع أمس خبر قدوم دولة الأمير الجليل حسين باشا كامل عم الجناب العالى الخديوى من مصيفه بالمعمورة إلى القاهرة فى قطار خاص ، ومقابلته لعطوفة القائمقام : كثرت الأقاويل حول هذا القدوم ، وانتشرت الإشاعات العديدة المتنوعة فى العاصمة ، وربما انتقلت منها إلى الأقاليم » .

---

(١) المقطم فى ٢٥-١ ، ٣-٢-١٩١٥ .

ونشرت صحيفة الشعب فى ٦ - ١١ - ١٩١٤ تحت عنوان « البرنس حسين كامل » مانصه « نشرت الغازيت أن حقيقة الواقع من سفر البرنس حسين كامل باشا بغتة بدعوة من العاصمة ، ووصوله إليها على قطار خاص ؛ هى أن الضرورة الهامة دعت لذلك . وأن دولته قابل عطوفة القائمقام الخديوى مقابلة طويلة وقابل أيضاً جناب المستر شيتهام ، وأنه من الواضح أن أهمية عظمى تعلق على هذه المسألة ، ولكن جلية الأمر لم تعرف لأحد مطلقاً فى هذا الموضوع » .

ونشرت الشعب فى ٢٢ - ١١ - ١٩١٤ تحت عنوان « مأدبة » ما نصه : «أقام جناب قائد جيش الاحتلال مأدبة فى منزله لدولة الأمير حسين كامل باشا . وقد حضرها جناب المستر شيتهام القائم بأعمال الوكالة البريطانية » .

ونشرت الوطن فى ١٦-١٢ - ١٩١٤ برقية من لندن جاء فيها « أرسل لورد كرومر رسالة إلى جريدة التيمس قال فيها : إن انتقاض الخديو ليس ذا أهمية سياسية كبيرة على الراجح ، لأن نفوذه الشخصى فى القطر المصرى لا يذكر . على أنه كيفما كانت النظامات الجديدة التى ستسن للقطر المصرى ، فلا يصح أن يبقى الخديو ولى الأمر فيه . والواجب أن ترفع ولاية الترك عن مصر ، وتحل مصر من قيودهم الثقيلة» .

وقد ذكر كرومر قيود تركيا الثقيلة مع أن هذه القيود لم يكن لها وجود ، ولكنه التعصب الشديد الذى انطوت عليه قلوب الإنجليز ضد الدولة العثمانية . ولم يذكر كرومر قيود بريطانيا التى كان الشعب على اختلاف طبقاته يئن منها ويرزح تحتها .

ونشرت الوطن فى ١٧ - ١٢ - ١٩١٤ ما نصه « يرى المار فى ميدان

عابدين الآن معدات الزينات لمهرجان عظيم . وينتظر أن ينتهى العمال منها قبل يوم الإثنين القادم » أى قبل اليوم الذى حدد لإعلان التغيير السياسى . وهذا السرادق أعد لجلوس الأعيان والكبراء الذين كان من المقرر أن يحضروا لتهنئة السلطان .

وقالت الوطن فى العدد المتقدم « الوزراء يجتمعون فى منزل عطوفة رئيس النظار . وقد زارهم على الأثر حضرة صاحب الدولة حسين كامل باشا . وبعد ذلك زار عطوفة رئيس النظار الوكالة البريطانية» .

ويلاحظ أن صحيفة الوطن ذكرت حسين رشدى بوصفه رئيساً للنظار ، ولم تقرن اسمه بلقب القائمقام الخديوى .

وعلى كل حال فقد أدرك المصريون فى طول البلاد وعرضها مضمون الأوضاع الجديدة . بل إنهم عرفوا منذ أوائل أغسطس سنة ١٩١٤ أن الإنجليز منعوا الخديو من العودة إلى مصر . ثم عرفوا أن العرش عرض على الأمير محمد على توفيق فرفضه رفضاً باتاً . كما عرفوا أنه عرض على الأمير حسين كامل فلم يوافق على قبوله . وتضامن الأمراء جميعاً فى هذا الموقف . فحينئذ فكر الإنجليز فى عرض العرش على زعيم الطائفة الإسماعيلية فى الهند أغا خان . وبالفعل جاءوا به إلى مصر . وقام برحلة إلى طنطا فزار ضريح أحمد البدوى والمعهد الدينى واجتمع ببعض رجال الدين بالقاهرة وطنطا والإسكندرية . وقد ذكر هذه الواقعة أحمد شفيق باشا . وأيدها عباس محمود العقاد حينما سألته عنها ، كما أيدها محمد مصطفى الماحى ممن عاصروا تلك الأحداث . وذكر لى العقاد أنه قيل للإنجليز إن أغاخان إسماعيلى ولا يمكن أن يرضى به المصريون الذين يدينون بمذهب أهل السنة ،

ولا يعترفون بالتعاليم الإسماعيلية . وقد استبعد محمد شفيق غربال فكرة إسناد عرش مصر إلى أغاخان دون أن يقدم دليلا على ماقال .

ثم ذكر لى العقاد وكذلك محمد مصطفى الماحى أن الإنجليز فكروا فى تولية محمود سليمان باشا ـ والد محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين فيما بعد ـ سلطانا على مصر . فقيل لهم إن القطر المصرى به مئات العائلات التى تفوق عائلة محمود سليمان أدبياً ومادياً . فاحترام المصريين لهذه العائلة أمر مشكوك فيه . فحينئذ ترجحت كفة القائلين بضم مصر نهائياً إلى الإمبراطورية البريطانية .

وقد كان الإنجليز يقدرون هذه الظروف كلها . ولذلك ألحوا على عباس بالانتقال إلى إيطاليا ليكون تحت رقابتهم . وحينئذ يمكن أن يترك الأمر معلقا إلى أن تنتهى الحرب .

وفى النهاية نجحت جهود الإنجليز فى حمل الأمير حسين كامل على قبول العرش . وذكر لى محمد مصطفى الماحى أن الأمراء ألحوا على حسين فى قبوله حرصاً على بقاء عائلة محمد على فى الحكم بعد أن تأكدت نيات الإنجليز فى ضم مصر إلى مستعمراتهم . فقبل حسين العرش ، وأعلن عن موافقته منذ أوائل ديسمبر سنة ١٩١٤ ، أما تأخير إجراء التغيير السياسى فكان من جانب الإنجليز لأن فكرة الضم كانت مسيطرة على فريق كبير من أعضاء الحكومة البريطانية كما كان لها أنصار كثيرون فى مجلس النواب البريطانى . وكانوا يخشون أنه يسبب لهم السلطان الجديد بعض المتاعب .

الفصل الثالث

إعلان الحماية، وعزل عباس ، وتولية حسين

القطر المصرى[1]

تحت حماية بريطانيا العظمى

يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر إلى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا ، قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية .

و بذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر . وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها .

القاهرة فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ .

عزل سمو عباس باشا[2] حلمى خديوى مصر

وتنصيب صاحب السمو السلطانى حسين الأول سلطانا لمصر

يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمى باشا خديوى مصر السابق على الانضمام لأعداء جلالة الملك ؛ قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية .

---

(١) الصحف اليومية والوقائع المصرية فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ .

(٢) الوقائع المصرية عدد خاص فى ١٩ — ١٢ — ١٩١٤ .

وقد عرض هذا المنصب السامى مع لقب سلطان مصر على سمو الأمير حسين كامل باشا ؛ أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد على ؛ فقبله .

القاهرة فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩١٤ .

التبليغ الوارد إلى السلطان[١]

من قبل الحكومة البريطانية

يا صاحب السمو .

كلفنى جناب ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أن أخبر سموكم بالظروف التى سببت نشوب الحرب بين جلالته و بين سلطان تركيا ، و بما نتج عن هذه الحرب من التغيير فى مركز مصر .

كان فى الوزارة العثمانية حزبان : أحدهما معتدل ، لم يبرح عن باله ما كانت بريطانيا العظمى تبذله من العطف والمساعدة لكل مجهود نحو الإصلاح فى تركيا ، ومقتنع بأن الحرب التى دخل فيها جلالته لا تمس مصالح تركيا فى شىء . ومرتاح لما صرح به جلالته وحلفاؤه من أن هذه الحرب لن تكون وسيلة للإضرار بتلك المصالح ، لا فى مصر ولا فى سواها .

وأما الحزب الآخر فشرذمة جنديين أفاقين لا ضمير لهم . أرادوا إثارة حرب عدوانية بالاتفاق مع أعداء جلالته ، معللين أنفسهم أنهم بذلك يتلافون ماجروه على بلادهم من المصائب المالية والاقتصادية .

---

(١) ولد السلطان حسين كامل فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٨٥٣ وهو ثانى أنجال الخديو إسماعيل .

أما جلالته وحلفاؤه ؛ فمع انتهاك حرمة حقوقهم ؛ قد ظلوا إلى آخر لحظة وهم يأملون أن تتغلب النصائح الرشيدة على هذه الحرب . لذلك امتنعوا عن مقابلة العدوان بمثله حتى أرغموا على ذلك بسبب اجتياز عصابات مسلحة للحدود المصرية ومهاجمة الأسطول التركى بقيادة ضباط ألمان ثغوراً روسية غير محصنة .

ولدى حكومة جلالة الملك أدلة وافرة على أن سمو عباس حلمى باشا خديوى مصر السابق قد انضم انضماماً قطعياً إلى أعـداء جلالته منذ نشوب الحرب مع ألمانيا .

بذلك تـكون الحقوق التى كانت لسلطان تركيا وللخديوى السابق على بلاد مصر قد سقطت عنهما وآلت إلى جلالته .

ولما كان قد سبق لحـكومة جلالته أنها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته فى بلاد مصر أنها أخذت على عاتقها وحدها مسئولية الدفاع عن القطر المصرى فى الحرب الحاضرة ؛ فقد أصبح من الضرورى الآن وضع شكل للحكومة التى ستحكم البلاد بعد تحريرها — كما ذكر — من حقوق السيادة ، وجميع الحقوق الأخرى التى كانت تدعيها الحـكومة العثمانية .

فحـكومة جلالة الملك تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصرى جميع الحقوق التى آلت إليها بالصفة المذكورة . وكذلك جميع الحقوق التى استعملتها البلاد مدة سنى الإصلاح الثلاثين الماضية ، ولذا رأت حكومة جلالته أن أفضل وسيلة لقيام بريطانيا العظمى بالمسئولية التى عليها نحو مصر ؛ أن تعلن الحمـاية البريطانية إعلانا صريحاً ، وأن تـكون حكومة البلاد تحت هذه الحماية بيد أمير من أمراء العائلة الخديوية طبقاً لنظام وراثى يقرر فيما بعد .

بناء عليه قد كلفتنى حكومة جلالة الملك أن أبلغ سموكم أنه بالنظر لسن سموكم وخبرتكم ؛ قد رؤى فى سموكم أكثر الأمراء من سلالة محمد على أهلية لتقلد منصب الخديوية مع لقب « سلطان مصر » . وإننى مكلف بأن أؤكد لسموكم صراحة عند عرضى على سموكم قبول عبء هذا المنصب ؛ أن بريطانيا العظمى أخذت على عاتقها وحدها كل المسئولية فى دفع أى تعد على الأراضى التى تحت حكم سموكم مهما كان مصدره .

وقد فوضت إلى حكومة جلالته أن أصرح بأنه بعد إعلان الحماية البريطانية يكون لجميع الرعايا المصريين أينما كانوا الحق فى أن يكونوا مشمولين بحماية حكومة جلالة الملك .

وبزوال السيادة العثمانية تزول أيضاً القيود التى كانت موضوعة بمقتضى الفرمانات العثمانية لعدد جيش سموكم ، وللحق الذى لسموكم فى الإنعام بالرتب والنياشين .

أما فيما يختص بالعلاقات الخارجية فترى حكومة جلالته أن المسئولية الحديثة التى أخذتها بريطانيا العظمى على نفسها تستدعى أن تكون المخابرات منذ الآن بين حكومة سموكم ، وبين وكلاء الدول الأجنبية بواسطة وكيل جلالته فى مصر .

وقد سبق لحكومة جلالته أنها صرحت مراراً بأن المعاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الأجنبية المقيدة بها حكومة سموكم ؛ لم تعد ملائمة لتقدم البلاد ، ولكن من رأى حكومة جلالته أن يؤجل النظر فى تعديل هذه المعاهدات إلى ما بعد انتهاء الحرب .

وفيما يختص بإدارة البلاد الداخلية ؛ على أن أذكر سموكم أن حكومة جلالته طبقاً لتقاليد السياسة البريطانية ؛ دأبت على الجد بالاتحاد مع حكومة البلاد

وبواسطتها ؛ فى ضمان الحرية الشخصية وترقية التعليم ونشره ، وإنماء مصادر ثروة البلاد الطبيعية ، والتدرج فى إشراك المحكومين فى الحكم بمقدار ما تسمح به حالة الأمة من الرقى السياسى .

وفى عزم حكومة جلالته المحافظة على هذه التقاليد ، بل إنها موقنة بأن تحديد مركز بريطانيا العظمى فى هذه البلاد تحديداً صريحاً يؤدى إلى سرعة التقدم فى سبيل الحكم الذاتى .

وستحترم عقائد المصريين الدينية احتراماً تاماً ، كما تحترم الآن عقائد نفس رعايا جلالته على اختلاف مذاهبهم . ولا أرى لزوما لأن أؤكد لسموكم أن تحرير حكومة جلالته لمصر من ربقة أولئك الذين اغتصبوا السلطة السياسية فى الأستانة ؛ لم يكن ناتجاً عن أى عداء للخلافة . فإن تاريخ مصر السابق يدل فى الواقع على أن إخلاص المسلمين المصريين للخلافة لاعلاقة له البتة بالروابط السياسية التى بين مصر والأستانة .

وإن تأييد الهيئات النظامية الإسلامية فى مصر والسير بها فى سبيل التقدم هو بالطبع من الأمور التى تهتم بها حكومة جلالة الملك مزيد الاهتمام ، وستلقى من جانب سموكم عناية خاصة . ولسموكم أن تعتمدوا فى إجراء ما يلزم من الإصلاحات على كل انعطاف وتأييد من جانب الحكومة البريطانية .

وعلى أن أزيد على ما تقدم أن حكومة جلالة الملك تعول بكل اطمئنان على إخلاص المصريين ورويتهم واعتدالهم فى تسهيل المهمة الموكولة إلى قائد جيوش جلالته المكلف بحفظ الأمن داخل البلاد ، وبمنع كل عون للعدو .

وإنى أنتهز هذه الفرصة فأقدم لسموكم أجل تعظيماتى »

تحريراً فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ — إمضاء : شيتهام .

هذا ما جاء فى البلاغ الذى أرسله شيتهام للسلطان . وهو بلاغ تم وضعه

بالاتفاق مع الحكومة البريطانية . وإذا كان البلاغ يذكر تحرر مصر من النفوذ العثمانى ؛ فإنه نص على وضع القيود البريطانية فى أعناق المصريين ، وهى قيود لا تذكر بجانبها القيود العثمانية التى لم يكن لها فى الحقيقة أى وجود . وإنما كان الوجود كل الوجود للنفوذ البريطانى . وإن القول بأن الحماية حررت مصر من النفوذ العثمانى ينطوى على مغالطة مكشوفة . ولم تشأ انجلترا أن تلغى الامتيازات الأجنبية ، بل وعدت مجرد وعد بأنها ستنظر فى هذا الموضوع بعد انتهاء الحرب . أما القول بأنها ستأخذ على عاتقها وحدها مهمة الدفاع عن مصر فإن هذا لم يحدث ، وإنما الذى حدث أن مصر قدمت مليوناً من شبابها ، ووضعت مواردها كلها تحت تصرف السلطات العسكرية البريطانية . وأما قولها بأنها ستعمل على رقى التعليم ، فإن المستشار المالى وهو بريطانى لم يكن يسمح بزيادة ميزانية وزارة المعارف إلا زيادة طفيفة . بل إنه خفض ميزانية هذه الوزارة لسنة ١٩١٥ .

أما حرية السلطان فى زيادة جيشه ، فإن هذا الجيش كان المفروض أنه سيسخر لخدمة الدولة البريطانية فى الدفاع عن مصر وفى ميادين القتال الأخرى كميدان العراق والسودان وسيناء وفلسطين وشبه جزيرة غاليبولى ، وفى الصحراء الغربية . وكان يسيطر عليه الإنجليز ولم تكن لديه مصانع للأسلحة والذخيرة . فما قيمة زيادة الجيش والحالة هذه ؟ بل إن زيادته اقتضت إنفاق مبالغ طائلة تحملتها الخزانة المصرية دون أى مبرر .

أما حرية السلطان فى وضع الرتب والنياشين فلم تكن لها أية قيمة . أما القول بأن تحرير مصر من السيادة التركية لم يكن ناتجا عن أى عداء للخلافة العثمانية فهو قول غير صحيح . فإن الإنجليز كانوا يجتهدون فى تحطيم هذه الخلافة لأن وجودها يذكر المسلمين بأمجادهم السالفة ، ويدفعهم إلى التكتل والتجمع تحت

لوائها . وفى هذا ما فيه من خطر يهدد الاستعمار البريطانى . وقد كشف عن هذا العداء اللورد كرومر فى مقال نشرته «التيمس» فى ١٥ — ٥ — ١٩١٥ ومما جاء فيه :

« ومما لا ريب فيه هو أن علماء الشرق من كبيرهم إلى صغيرهم يعلمون أن الخلافة لم تكن لدولة آل عثمان . وأن السلطان سليم الأول أخذها اغتصابا سنة ١٥١٧ ، على أن اتخاذ هذا اللقب بات فى الحقيقة اسما على غير مسمى ، إلا أن السلطان عبد الحميد فى القرن الأخير كان أشد حرصاً عليه .

وفى سنة ١٨٩٠ أمر مختار باشا أن يوزع فى مصر طبعة من صحيح البخارى حذف منها كل ما يشير إلى الشروط التى ينبغى أن تتوفر فى الخليفة ؛ وقد أغضى العلماء عن هذه المسألة ، ولم يقاوموا هذا الافتئات » .

وقال إن مستقبل الخلافة من خصائص العالم الإسلامى . فالمسلمون هم الذين يحكمون فيه . وأنكر على الحكومة البريطانية أى تداخل كان من هذا القبيل .

فما الذى جعل كرومر يطعن فى الخلافة العثمانية غير الرغبة فى هدم هذه المؤسسة بكافة الطرق . وقد كان يعلم أنه لو زالت الخلافة العثمانية لما قامت خلافة أخرى . وقد حرص الإنجليز على عدم قيام خلافة إسلامية ، وهللت الصحف الاستعمارية لمصطفى كمال حينما ألغى الخلافة العثمانية ، كما هللت لبعض المصريين الذين كتبوا محبذين إلغاءها لعدم الحاجة إليها .

ومن عجيب ما جاء فى هذا البلاغ القول بأن إعلان الحماية على مصر يؤدى إلى التقدم فى سبيل الحكم الذاتى ، مع أن الإنجليز كانوا منذ عصر كرومر قابضين بيد من حديد على ناصية البلاد ، وكانوا يصرفون أمورها كيفما يشتهون ، ولم يكن الوزير المصرى قادراً على تنفيذ أمر من الأمور إلا بعد موافقة المستشار

البريطانى. ومن المضحك أن بعض المصريين اعتقدوا أنه ما دام الجالس على عرش مصر قد تلقب بلقب سلطان مقروناً بحضرة صاحب العظمة ، وهذا كان نفس لقب الجالس على العرش العثمانى . وهو أكبر من لقب الخديو ، فإذن تكون مصر قد تقدمت نحو الاستقلال .

قال حافظ إبراهيم :

أضحت ربوع النيل سلـ ـطنة وقد كانت ولايه

ويكفى أن إعلان الحماية تبعه إلغاء وزارة الخارجية المصرية ، وهى المظهر الوحيد الذى كان يدل على استقلال البلاد وسيادتها . وترتب على ذلك أن وكلاء الدول الأجنبية لم يكن لهم حق الاتصال بالحكومة المصرية مباشرة ؛ وإنما عن طريق دار الحماية .

. . .

والحقيقة أن انجلترا كانت تسعى إلى إعلان حمايتها على مصر منذ أن عقدت مع فرنسا الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ وقد ظهر هذا واضحاً فى حادثة « طابا » سنة ١٩٠٦ ، إذ أن الدولة العلية أرادت أن تسترد هذا الموقع وكان وديعة [1]

(١) لم تكن شبه جزيرة سينا داخلة ضمن حدود مصر بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ولكن الحكومة العثمانية عهدت بإدارتها إلى محمد على ، وظل الأمر على ذلك إلى وفاة الخديو توفيق سنة ١٨٩٢ ، فلما تولى الخديو عباس أرادت الدولة العثمانية إخراج سينا من فرمان الولاية ، فعارضت انجلترا فى ذلك ، وفى سنة ١٩٠٦ رغبت الدولة فى استرداد ميناء «طابا» الواقع على خليج العقبة وذلك لمرور سكة حديد الحجاز به ، وكان الخديو يريد إجابة طلب الدولة ، ولكنه أخفى ذلك عن الانجليز الذين عارضوا معارضة شديدة فى تسليم « طابا » للعثمانيين ، وقدأرسلت الدولة نفراً من الجنود لاحتلال الميناء المذكور ، فما كان من انجلترا إلا أن قامت بمظاهرة بحرية بقرب شواطىء تركيا ، فاضطرت الدولة إلى التراجع ، وبقيت « طابا» ضمن الممتلكات المصرية ، ولما وقف الانجليز على مكاتبات الخديو السرية التى كان قد بعثها إلى السلطان حقدوا عليه وهددوا بعزله :

فى يد مصر ، وذلك لمرور سكة حديد الحجاز به ، فهبت انجلترا فى وجهها وهددتها بالحرب فاضطرت الدولة العلية إلى التراجع مع أنها كانت صاحبة حقوق شرعية فى مصر وملحقاتها . وقد نبهت هذه الحادثة الأذهان إلى أن انجلترا بسطت حمايتها فعلا على مصر وإن لم تعلن ذلك صراحة . وبدأت الصحف تكتب فى موضوع الحماية .

وإذا كانت انجلترا لم تعلن الحماية على مصر فى ذلك الوقت ، فلأن الظروف لم تكن ملائمة لها . فقد كانت الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل على أشدها ، وكانت الأصوات تنادى بالجلاء ، وكان الخديو واقفاً إلى جانب الحركة الوطنية . أما فى سنة ١٩١٤ فقد اتخذت انجلترا قبل إعلان الحماية إجراءات كثيرة باسم الحرب مكنتها من تحقيق رغبتها . إنها لم تعلن الحماية إلا بعد أن فرضت الأحكام العرفية ، واستقدمت عدداً كبيراً من جنود المستعمرات وحرمت الاجتماعات ، وراقبت الصحف ، واعتقلت زعماء الحركة الوطنية وكممت الأفواه . ثم إنها بررت الحماية بحجة الدفاع عن مصر ضد الغزو العثمانى . وهذه الظروف كلها لم تكن موجودة سنة ١٩٠٦ .

الوزارة الرشدية الثانية :

وكان أول أمر أصدره السلطان حسين هو الأمر الذى وجهه إلى حسين رشدى باشا لتأليف الوزارة بتاريخ ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وهذا نصه :

عزيزى رشدى باشا

إن الحوادث السياسية التى وقعت فى هذه الأيام أدت إلى بسط بريطانيا العظمى حمايتها على مصر ، وإلى خلو الأريكة الخديوية .

وبهذه المناسبة أرسلت الحكومة البريطانية إلينا رسالة نبعث بصورتها إليكم لنشرها على الأمة المصرية ، موجهة فيها نداءها إلى ما انطوى عليه فؤادنا من عواطف الإخلاص نحو بلادنا لكى نرتقى عرش الخديوية المصرية بلقب « السلطان » وستكون السلطنة وراثية فى بيت محمد على طبقاً لنظام يقرر فيما بعد .

وقد كان لنا بعد أن وقفنا حياتنا كلها إلى اليوم على خدمة بلادنا ، أن يكون الإخلاد إلى الراحة من عناء الأعمال مطمح أنظارنا إلا أننا بالنظر إلى المركز الدقيق الذى صارت إليه البلاد بسبب الحوادث الحالية ؛ قد رأينا مع ذلك أنه يتحتم علينا القيام بهذا العبء الجسيم ، وأن نستمر على خطتنا الماضية ، فنجعل كل ما فينا من حول وقوة وقفاً على خدمة الوطن العزيز . هذا هو الواجب المفروض علينا لمصر ، ولجدنا محمد على الكبير الذى نعمل على تخليد الملك فى سلالته .

وبما فطرنا عليه من الاهتمام بمصالح القطر ، سنوجه عنايتنا على الدوام إلى تأييد السعادة الحسية والمعنوية لجميع أهاليه ، مواصلين خطة الإصلاحات التى بدىء العمل فيها . لذلك ستكون حكومتنا منصرفة إلى تعميم التعليم وإتقانه بجميع درجاته ؛ وإلى نشر العدل ، وتنظيم القضاء بما يلائم أحوال القطر فى هذا العصر . وسيكون من أكبر ما نعنى به توطيد أركان الراحة والأمن العام بين جميع السكان ، وترقية الشئون الاقتصادية فى البلاد .

أما الهيئات النيابية فى القطر فسيكون من أقصى أمانينا أن نزيد اشتراك المحكومين فى حكومة البلاد زيادة متوالية .

ونحن على ثقة بأننا فى سبيل تحقيق هذا المنهاج سنجد لدى حكومة صاحب

الجلالة البريطانية خير انعطاف فى تأييدنا . وإننا لموقنون بأن تحديد مركز الحكومة البريطانية فى مصر تحديداً واضحاً بما يترتب عليه من إزالة كل سبب لسوء التفاهم يكون من شأنه تسهيل تعاون جميع العناصر السياسية بالقطر المصرى لتوجيه مساعيها معا إلى غاية واحدة .

وإننا نعتمد على إخلاص جميع رعايانا لتعضيدنا فى العمل الذى أمامنا ولوثوقنا بكمال خبرتكم ، وبما تحليتم به من الصفات العالية ، واعتماداً على وطنيتكم ؛ نطلب منكم مؤازرتنا فى المهمة التى أخذناها على عاتقنا ، وندعوكم بناء على ذلك إلى تولى رياسة مجلس وزرائنا ، وإلى تأليف وزارة تختارون أعضاءها لمعاونتكم ، وتعرضون أسماءهم على تصديقنا العالى .

ونسأل الحق جلت قدرته أن يبارك لنا جميعاً فيما نبتغيه من نفع الوطن وبنيه .

إمضاء : حسين كامل

جواب حسين رشدى باشا

مولاى

أقدم لسدة عظمتكم السلطانية مزيد الشكر على ما أوليتمونى من الشرف السامى ؛ إذ تفضلتم على بأمركم الكريم الذى فوضتم به إلى تأليف هيئة الوزارة.

نعم ، إنى كنت وكيلا عن ولى الأمر السابق ، ولكننى مصرى قبل كل شىء . وبصفتى مصرياً قد رأيت من المفروض على أن أجتهد تحت رعايتكم السلطانية فى أن أكون نافعاً لبلادى . فتغلبت مصلحة الوطن السامية التى كانت رائدى فى كل أعمالى على جميع ما عداها من الاعتبارات الشخصية .

لهذا فإنى أقبل المهمة التى تفضلتم عظمتكم السلطانية بتفويضها إلى . ولما كان زملائى بالأمس الموجودون الآن بمصر متشربين بنفس هذه العواطف ، وهم لذلك مستعدون للاستمرار على معاونتهم لى ، فإنى أتشرف بأن أعرض على تصديق عظمتكم السلطانية رفق هذا مشروع المرسوم السلطانى بتشكيل هيئة الوزارة الجديدة.

و إنى بكل احترام و إجلال لعظمتكم السلطانية

تحريراً فى ٢ صفر سنة ١٣٣٣ العبد الخاضع المطيع المخلص

(١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤) إمضاء : حسين رشدى

وقد صدر المرسوم السلطانى فى نفس اليوم بتشكيل الوزارة ، وكانت تتألف من : حسين رشدى للرياسة والداخلية . إسماعيل سرى للأشغال العمومية وللحربية والبحرية . أحمد حلمى للزراعة . يوسف وهبه للمالية . عدلى يكن للمعارف . عبد الخالق ثروت للحقانية . إسماعيل صدقى للأوقاف .

* * *

قال السلطان حسين فى كتابه لرئيس وزرائه إنه سيوجه عنايته إلى تأييد السعادة الحسية والمعنوية لجميع الأهالى ، وأنه سيعمل على تعميم التعليم و إتقانه بجميع درجاته ، ونشر العدل ، وتنظيم القضاء ، وترقية الشئون الاقتصادية .

وقد كان السلطان يعلم علم اليقين أنه لا يستطيع أن يبر بشىء من هذه الوعود . وذلك لأن الحكم لم يكن له وإنما كان فى أيدى المستشارين الإنجليز ، ولم تكن الحكومة المصرية قادرة على إنشاء مدرسة أولية واحدة دون موافقة المستشار المالى . وكانت سياسية الإنجليز كما يعلم السلطان حسين تعمل على وضع المراقيل فى سبيل نشر التعليم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن أبواب

العمل كانت مغلقة بإحكام فى وجوه المصريين . فقد كانت الشركات والمصارف كلها أجنبية ، وكانت وظائفها قاصرة على أبناء الجاليات الأجنبية . كما كانت وظائف الحكومة الكبرى قاصرة على الإنجليز . ثم إن تعيين المصريين فى الوظائف الحكومية كان نظير مرتبات تافهة ، أو بأجر يومى . وكان معظم الموظفين يشغلون وظائف مؤقتة يسمونها « ظهورات »

أما نشر العدل فلم يكن فى الإمكان تحقيقه مع وجود الامتيازات الأجنبية . أما الشئون الاقتصادية فإن أسعار القطن وهو المحصول الرئيسى للبلاد قد انخفضت انخفاضا فاحشا فى أول عهد السلطان حتى اضطر الفلاحون إلى بيع حلى نسائهم ، بل إنهم باعوا أثاث منازلهم ومواشيهم لتسديد الضرائب . وكانت قضايا الحجز الإدارى على أملاك الفلاحين تجرى بواقع ١٢٠٠ قضية فى الشهر . فما الذى فعله السلطان حسين لترقية الشئون الاقتصادية ؟

إنه لم يفعل شيئا على الإطلاق لصالح الوطن . بل وجد الغنم كل الغنم فى الحرص على إبقاء عرش مصر فى سلالة جده المجيد محمد على ! ! وقد اعتقد لسذاجته أن الإنجليز يساعدونه على النهوض بالبلاد ثقافيا واقتصاديا . إن انجلترا احتلت مصر إشباعا لحاجاتها الاستعمارية . ولا يتيسر لها البقاء إلا إذا ظل الشعب فى حالة تأخر أدبى ومعنوى .

أما حكومة حسين رشدى فإنها تركت للإنجليز الحبل على الغارب ، وركن الوزراء إلى الراحة والسكون .

وقد قدر الإنجليز لحسين [1] رشدى موقفه المخزى فى هذا الانقلاب ،

---

(١) ولد حسين رشدى باشا فى مدينة القاهرة سنة ١٨٦٣ ودرس بمصر وفرنسا =

فأنعم عليه ملكهم بوسام سان ميشيل وسان جورج من درجة جران كروا فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٤

* * *

وقد سرت بين الشعب موجة من الحنق والحقد على السلطان لأنه قبل العرش منحة من الإنجليز ، وكذلك على حسين رشدى الذى اعتبر فى نظر الأمة خائنا لبلاده ، خارجا على وطنه لاستسلامه للإنجليز استسلاما معيبا .

وزاد من سخط الشعب وغضبه تلك المظاهرة العسكرية البريطانية التى صحبت الإعلان الرسمى لتولى السلطان العرش . فمنذ صباح يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٤ وقفت العساكر الإنجليزية صفوفا متراصة بكامل أسلحتهم الحربية ؛ مشاة وفرسانا ومدفعية فى الشوارع التى تقرر أن يجتازها ركب السلطان من قصر ابنه كمال الدين حسين ، وهو الذى تشغله وزارة الخارجية الآن ، والواقع أمام مبنى جامعة الدول العربية ، إلى قصر عابدين مارا بشارع سليمان فشارع بولاق « ٢٦ يوليو » فشارع كامل « الجمهورية » إلى قصر عابدين . ولم يترك للشرطة المصرية من عمل سوى منع الزحام خلف ظهور الجنود الإنجليزية .

وكان مع كل فرقة إنجليزية موسيقاها . أما كبار الضباط الإنجليز فإنهم توجهوا إلى قصر عابدين ليكونوا ضمن المهنئين .

= ولما تخرج عين مفتشا بوزارة المعارف ، ثم نقل منها إلى القضاء . وأخذ يتدرج فى سلك القضاء حتى شغل وظيفة مستشار فى محكمة الاستئناف العليا .

واختير بعد ذلك مديرا لديوان الأوقاف . ثم عين وزيرا للحقانية فى وزارة محمد سعيد باشا سنة ١٩١٠ . ولما استقالت الوزارة السعيدية سنة ١٩١٤ عهد إليه الخديو عباس برياسة الوزارة . ثم عينه قائم مقام له مدة غيابه فى أوربا . ولما قامت الحرب تولى رياسة الوزارة بتكليف من السلطان حسين وظل شاغلا هذا المنصب إلى سنة ١٩٢٢ ، وعين فى أواخر سنة ١٩٢٥ رئيسا لمجلس الشيوخ ، وتوفى سنة ١٩٢٨

وفى الساعة التاسعة والنصف صباحا أطلقت المدافع إعلانا بخروج السلطان من قصر نجله ، وكان يجلس إلى يساره فى العربة السلطانية رئيس الوزراء . وسارت أمام العربة فرقة إنجليزية مؤلفة من ١٢٥ فارسا وخلفها فرقتان من الحرس المصرى مؤلفتان من ٢٥٠ فارسا .

ثم مركبتان تقلان الوزراء تتقدمهما وتتبعهما فرقتان من الفرسان الإنجليز ومثلها من جنود الحرس المصرى . وبعد قليل أقبل المستر شيتهام فى عربة سلطانية يتقدمها ويتبعها ١٢٥ فارسا إنجليزيا . ويليه موكب الجنرال مكسويل فى عربة أخرى وبجواره ضابط بحرى كبير ، وكان فى مثل الموكب المتقدم .

أما الشعب فقد قابل الموكب السلطانى بالوجوم ، وكان الحزن مرتسما على الوجوه ، فلم يسمع هتاف أو تصفيق . وانتشر المصورون السينمائيون فى طريق الموكب . ولما وصل السلطان إلى قصر عابدين أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى بالنشيد السلطانى .

وكان قد أعد فى فناء القصر سرادق كبير لجلوس الأعيان وكبار الموظفين من مصريين وأجانب . فوقف هؤلاء تحية للسلطان وصفقوا له .

ثم صعد المستر شيتهام والمستر ستورس السكرتير الشرقى لدار الحماية ، والجنرال مكسويل وهنأوا السلطان بارتقائه العرش. وبعد انصرافهم أخذ الأمناء يقدمون المدعوين فئة فئة . ولما جاء دور الآباء الروحيين تقدم مطران الإسكندرية وقال للسلطان عبارات معناها أن الإنجيل يقول : لا سلطان إلا وهو مقام من الله ، ولذلك فالله هو الذى اختار السلطان لهذا العرش ، والخضوع للسلطان خضوع لله. فتبسم السلطان شاكرا .

ولما جاء دور أعضاء الجمعية التشريعية وقف رئيس الجمعية أحمد مظلوم باشا وألقى أمام السلطان الكلمة الآتية :

بالأصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن زملائى أعضاء الجمعية التشريعية ؛ أتقدم لمقام عظمتكم السامى بالتهانى الخالصة لمصر العزيزة على تشرفها باستواء ذاتكم الفخيمة على عرشها الرفيع . فقد عرفتكم بشدة الغيرة على مصالحها ، والعمل دائما على مافيه خيرها وسعادتها . وهى واثقة بأنها ستدخل تحت ظلال ملككم فى عصر جديد مملوء بالخيرات .

ونسأل الله أن يمد فى حياتكم حتى تتمكن من تحقيق مقاصدكم السامية فى رقيها وتقدمها المادى والأدبى .

وأمن الأعضاء على هذا الدعاء

* * *

وقد تلقى السلطان برقية تهنئة من ملك الإنجليز ؛ هذا [٢] نصها :

إلى صاحب العظمة السلطانية سلطان مصر بالقاهرة

فى الوقت الذى ترتقى فيه عظمتكم السلطانية منصبها السامى ؛ أرغب أن أقدم إلى عظمتكم السلطانية عواطف الوداد المنبعثة عن أكمل إخلاص مع تأكيدى لكم بأننى لا أنفك عن تأييدكم فى سبيل المحافظة على كيان مصر ، وضمان رفاهيتها فى المستقبل وسعادتها . ولقد دعيتم عظمتكم السلطانية إلى تحمل مسئولية منصبكم السامى إبان أزمة خطيرة فى الحياة الأهلية بمصر . وإنى على يقين

(٢) المقطم فى ٢١ / ١٢ / ١٩١٤

أنه بمعاونة وزرائكم وبحماية بريطانيا العظمى يتسنى لكم التغلب على كل المؤثرات التى يراد بها العبث باستقلال مصر ، وبرفاهية أهلها وحريتهم وسعادتهم .

جورج
ملك وإمبراطور

فرد عليه السلطان بالبرقية الآتية :

أقدم لجلالتكم فائق الامتنان على ما تفضلتم به من شعائر الوداد التى شرفتمونى بها ، وعلى ما أكدتموه لى من نفيس التعضيد للمحافظة على كيان مصر واستقلالها .

ولما كنت على علم تام بالمسئولية التى أخذتها على عاتقى ، وقد عقدت النية على تخصيص كل ما فى وسعى لتقدم أمتى وسعادتها ، سالكا مع الحماية فى ذلك سبيل الوئام ؛ فإننى أعتبر من حسن حظى أن يتاح لى الاعتماد فى القيام بهذا العبء على جميل عواطف جلالتكم ، وعلى معاونة حكومتها .

حسين كامل

وبعث لورد كتشنر ببرقية تهنئة إلى السلطان ، فرد عليه رداً جميلا .

* * *

أما سخط الأمة على السلطان ، فقد ظهر منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها العرش . ففى يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٤ قبضت السلطة العسكرية فى العاصمة على كاتب بالمحكمة المختلطة اسمه عبد الله محيسن لتفوهه بألفاظ التهديد للسلطان . وبتفتيشه وجد معه مسدس . وقد فتشت الشرطة منزله ومنازل أقربائه

وأصدقائه واعتقلت[1] بعضهم ، ثم أفرجت عنهم لعدم وجود تهمة ضدهم . وكان عبد الله محيسن قد ارتدى ملابس الحداد يوم إعلان الحماية ، كما حذا حذوه كثيرون من الشبان . وقد أفرج عنه بعد أن أمضى فى السجن حوالى خمسين يوما .

وحكمت محكمة العطارين الجزئية بالإسكندرية[2] بحبس مصطفى الترمذى سنة مع الشغل للمنشورات الثورية التى ضبطت معه فى نهاية ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وكانت موجهة من جمعية تحرير مصر — فرع الإسكندرية .

ولما ذهب السلطان لزيارة مدرسة الحقوق فى ١٧ فبراير سنة ١٩١٥ ، كان الطلبة قد اتفقوا فيما بينهم على التغيب عن المدرسة فى ذلك اليوم . وقد اجتمع مجلس إدارة المدرسة وحقق فى الموضوع ، ثم وضع تقريراً جاء فيه أن ما وقع[3] من بعض الطلبة كان مظاهرة اتفقوا عليها فيما بينهم ، واصطنعوا لتنفيذها خطاب تشييع جنازة لشخص موهوم لينتحلوا لأنفسهم عذراً . واقترح المجلس فصل ٥٤ طالباً ، وحرمان ٣١ من امتحان آخر السنة مع إيقاف التنفيذ بالنسبة إلى طلبة السنة الأولى وعددهم ١٨ طالباً .

وكان من ضمن الطلبة الذين تقرر فصلهم نهائيـاً : محمد صبرى أبو علم ، يوسف أحمد الجندى ، أحمد والى الجندى ، سليمان حافظ ، محمد فكرى أباظة ، محمد أمين الشاهد ، حسن يسين .

ومن ضمن الطلبة الذين حرموا من امتحان آخر السنة : حسن مختار رسمى ، وحسن إسماعيل المضيبى ، ومحمود سامى جنينه ، وأحمد حسنى ، وعلى محمد بدوى .

---

(١) الوطن فى ٢١—١٢—١٩١٤ (٢، ٣) الوطن فى ١٣—١ ، ١٨—٢—١٩١٥ .

ومن ضمن الطلبة الذين حرموا من امتحان آخر السنة مع إيقاف التنفيذ : محمد عبد الله عنان ، وعبد الحميد عمر وشاحى ، وموسى فرحات ، ومحمود حلمى لهيطة ، ومحمد عمر دمرداش .

وقد اعتقلت السلطة العسكرية الطلبة الذين حرضوا على الإضراب ووضعتهم فى سجن طرة . ثم أطلقت سراحهم وألزمت كلا منهم بالإقامة فى بلده . وفتشت الشرطة منازل أربعة عشر طالباً بناء على أمر السلطة العسكرية .

وقد عفا السلطان عن جميع الطلبة الذين اشتركوا فى هذه المظاهرة بعد أن أعربوا عن إخلاصهم وولائهم له . وعلى أثر هـذا الحادث تقرر نقل مدرسة الحقوق من مكانها — وكان إذ ذاك بين شارع حسن الأكبر وشارع عبد العزيز — إلى الجيزة ، ونفذ هذا القرار ابتداء من العام الدراسى لسنة ١٩١٥-١٩١٦

* * *

وقد أراد السلطان حسين أن يبرر قبوله للعرش من الإنجليز أمام الرأى العام المصرى ، فأدلى إلى مراسل « التيمس[١] » فى القاهرة بتصريح بدأه بتسفيه صنيع تركيا فى خوضها غمرات الحرب ، وقال إن سياسة رجالها مبنية على الجهل والطمع والطيش والغرور وقلة التبصر . و بذلك جنت هذه الدولة على نفسها ، وانسلخت مصر منها إلى الأبد .

ثم أطرى بريطانيا وقال « إننا لا نستطيع أن نفيها حقها من الشكر على ما فعلته لمصر » وصرح بأنه موقن من زمان طويل بأن مصر وسائر الأقطار الشرقية فى احتياج إلى الأوربيين .

---

(١) الوطن فى ٢٢ ـ ١٢ ـ ١٩١٤

وانتقل إلى سياسة عهد الخديو عباس فقال: إن المصريين حاروا بين السراى الخديوية والوكالة البريطانية ، والحكومة المصرية . فكانوا لا يعرفون أيها يؤمون ، ولأيها يتوجهون . وكثيرا ما ضلوا السبيل بسبب عدم نضوج خبرتهم ، فعرضوا مصالحهم ومصالح بلادهم للعطب .

وأشار إلى ما كان من قبوله رياسة مجلس شورى القوانين لأجل تخفيف تلك الحالة ، ولكن لما حالت مساعى عابدين ، وبالتالى لما قتل رئيس الوزراء الأسبق — يعنى بطرس غالى — استقال من تلك المهمة .

ثم بسط أول آماله فجعل هذا الأمل معقوداً بالجمعية التشريعية بعد أن أصبحت حرة من المداخلات والتأثيرات والمساعى الخفية .

وثانى آماله أن تثق به إنجلترا كما هو يثق بها فتلقى عليه الحمل وتجعله الموئل الوحيد ، وتأتمنه على مصالحها ومصالح المصريين ما دام قد برهن فى ماضيه على إخلاصه لها وسعيه فى التوفيق بين المصلحتين .

وثالث آماله أن يتمكن من ترقية الإحساس الوطنى الحقيقى فى الأمة ، وتهذيب العاطفة السياسية فيها حتى تستطيع مصر أن تبرهن على تقدمها الأدبى برهانا عمليا فيما إذا اتفق لها فى المستقبل حرب مع دولة معادية ، فتقف إذ ذاك مدافعة عن حوزة البلاد مع الجنود البريطانية جنبا إلى جنب .

* * *

إن تسفيه السلطان لصنيع تركيا بدخولها الحرب هو ترديد لما كانت تذيعه الدعاية البريطانية فى ذلك الوقت ، وكان الغزو العثمانى لمصر على وشك الوقوع .

وقوله إنه لا يستطيع أن يفى إنجلترا حقها من الشكر على ما فعلته لمصر ؛

هو قول باطل قصد به تملق الإنجليز . وهو قول مصادم لشعور المصريين أجمعين الذين كانوا ساخطين أشد السخط على أعمال المحتلين . أما ما زعمه السلطان من حيرة المصريين بين السراى الخديوية ، والوكالة البريطانية ، والحكومة المصرية؛ فإنه يريد أن يقول إن هذه الحيرة قد انتهت فى عهده . ولكن كيف انتهت ؟ لقد أصبحت دار الحماية هى الحاكمة الفعلية فى طول البلاد وعرضها ! !

أما قوله بأنه أراد بقبوله رياسة مجلس شورى القوانين أن يخفف من حيرة المصريين ، ثم قوله إن مساعى عابدين حالت بينه و بين ما يبغى ، أو أن مقتل بطرس غالى حال بينه و بين ما يبغى فلذلك استقال ؛ فما دخل مساعى عابدين فى مقتل بطرس غالى ؟ إن بطرس غالى قتل بسبب تحبيذه لمشروع مد امتياز قنال السويس على الرغم من معارضة الأمة كلها لهذا المشروع . فكلام السلطان فى هذه النقطة فيه خلط غريب ربما كان من خرف الشيوخ .

وجميل جداً أن يعلق السلطان آماله على الجمعية التشريعية ، ولكن هل سمح الإنجليز بعقد هذه الجمعية ؟

أما أمله فى أن تثق به إنجلترا وتأتمنه على مصالحها فتلقى عليه الحمل وتجعله الموئل الوحيد ؛ فلم يكن تحقيق هذا الأمل فى الإمكان ، لأن مصالح الاستعمار تتعارض مع مصالح أهل البلاد . فكيف يمكن التوفيق بين النقيضين ؟ ولعله أراد بقوله « فتلقى عليه الحمل وتجعله الموئل الوحيد » أن تخفف من قبضتها على البلاد وتمنحه نوعا من الاستقلال الداخلى.

أما أمله الثالث وهو أن يتمكن من ترقية الإحساس الوطنى الحقيقى فى الأمة وتهذيب العاطفة السياسية حتى تستطيع أن تحارب جنبا إلى جنب مع الجنود

البريطانيين إذا تعرضت مصر لغزو أجنبي ؛ فمعناه أنه يريد أن يقبل المصريون الحماية البريطانية .

* * *

وقد كان حسين رشدي أوضح من السلطان فى تصريحاته . فأدلى إلى مراسل صحيفة « الفاردى السكندرى[1] » بعد إعلان الحماية بتصريح جاء فيه :

« بصفتي وزيراً أصرح بأن مصر إذا فرض ولم تكن حاصلة على مساعدة ومعونة إنجلترا لوجب أن تفتش لها على دولة قوية وصديقة مثلها لتكون عونا لها » .

« وإنى أقول مرة أخرى بأننا لا نستطيع أن نعيش وحدنا ، ولا يمكن لمصر أن تستقل عن سواها استقلالا سياسيا وذلك لأن موقعها الجغرافى وحدودها الغربية المتصلة بالصحراء ، ومركزها بإزاء القنال ، وكونها طريقا للهند ؛ كل هذه العوامل تجعلها مطمعا للغير » .

« إنى أريد أن تكون لمصر حماية تعطى لإنجلترا حق المراقبة المطلقة على القنال ، وحق المراقبة المالية أيضا ، ولكنى أريد بأن تبقى فى مصر حكومة حرة ذات حاكم مستقل ووزارة وهيئة نيابية مستقلتين كذلك . وأريد فوق هذا أن تكون أمورنا الدينية وأحوالنا الشرعية فى أيدى رجال من أبناء بلدنا . وبالجملة فإنى أحب أن تصبح مصر مملكة عظيمة تحصل على المكان اللائق بها وعلى الحرية اللازمة لها بمساعدة وحماية إنجلترا » .

« إنى قط ما تقلبت فى مبادئى ، ولا خالفت ضميرى وذمتى ومن يوم أن أدركت المسئولية الخطيرة الواقعة على بسبب مركزى ؛ لا أتذكر أنى فعلت شيئا

(١) الوطن فى ٢٤ ـ ١٢ ـ ١٩١٤ .

أو أظهرت ضعفا ألام عليه . وأعتقد كذلك بأن أصدقاءنا الإنجليز يعرفوننى جيدا فى مواقفى المختلفة و يحترموننى . وكما أنهم رجال حق و إخلاص ؛ هكذا أنا رجل حق و إخلاص » .

وكان رشدى باشا على ما قيل قد قدم مذكرة شفوية إلى القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى مصر بأنه إذا دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا، فإن مصر تعلن استقلالها عنها تحت شروط[1] .

١ — أن انجلترا تحل محل الدائنين الأجانب فى صندوق الدين .

٢ — ألا تسن قوانين بخصوص الأجانب إلا بعد مصادقة إنجلترا .

٣ — أن عساكر إنجلترا تحمى قناة السويس .

ولكنه ما لبث أن تراجع عما جاء فى هذه المذكرة ، وقبل وضع مصر تحت الحماية البريطانية دون قيد أو شرط . ولم يجد فى ذلك مخالفة لذمته وضميره ، ولا تقلبا فى مبادئه ، بل وجد الصواب كل الصواب فيما فعل . و بعد أن كان يريد أن يعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية ، أصبح مقتنعا بأن مصر لا يمكن أن تستقل عن سواها استقلالا سياسيا . و يرى أنه فى حالة تخلى إنجلترا عن حماية مصر ، فالواجب يقضى عليه بأن يبحث عن دولة قوية تحتل مصر وتضمها تحت حمايتها ! ! وهو يقول إنه لم يظهر ضعفاً يلام عليه ! مع أنه نفذ بأمانة جميع رغبات المحتلين ، ولم يذكر التاريخ أنه وقف فى أى أمر من الأمور . فهل بعد هذا ضعف أو استخذاء ؟ وهو يتمنى أن تكون مصر مملكة قوية فى ظل الحماية البريطانية . ولا أحد يدرى كيف يمكن أن تكون مصر مملكة قوية فى ظل الحماية الأجنبية . وهو يقول « إنى أريد أن تكون لمصر حماية تعطى لإنجلترا

(١) مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق ٢/٢٤٢ .

حق المراقبة المطلقة على القنال ، وحق المراقبة المالية أيضاً ، ولكنى أريد بأن تبقى فى مصر حكومة ذات حاكم مستقل ووزارة وهيئة نيابية مستقلتين كذلك » فهو حدد وظيفة الحماية من جانبه ، ولكنه لم يفاوض الإنجليز فى هذه الشروط قبل إعلان الحماية .

وهو يقول إنه يريد أن تكون أمورنا الدينية وأحوالنا الشرعية فى أيدى رجال من أبناء بلدنا . ولكن مسلمى مصر كانوا معترفين بالخليفة ، وحتى بعد انفصال مصر عن الدولة العثمانية ظل الدعاء فى خطبة الجمعة لخليفة المسلمين . فكيف تكون أمورنا الشرعية فى أيدى رجال منا مع اعترافنا بالخليفة وبحقوقه! ولا يخفى أن الخلافة وظيفة دينية وسياسية . وما قيمة أمورنا الدينية التى كانت تنحصر فى إصلاحات طفيفة كان يراد إدخالها على قانون الأحوال الشخصية ؛ بجانب أمورنا الدنيوية التى لم نكن نملك منها شيئاً ؛ لا قليلا ولا كثيراً ؟

* * *

وصرح حسين رشدى لمدير صحيفة[1] « الجورنال دى كير » بقوله :

« إن التغيير الذى طرأ علينا إنما هو تغيير فى الصيغة القانونية لا فى الواقع . فإن الاحتلال ينطوى تحته فى الواقع ما ينطوى تحت الحماية . فليس فيما جرى دورة أو انقلاب . ولكن لفظة حماية واسعة النطاق . فيمكنك بحسب الظروف أن تستخرج منها معنى الضم ، أو معنى الاستقلال . والسر الآن فى تحديد المعنى الذى يجب أن نطويه تحتها ونصرفها إليه . ولا ريب فى أننا نصرفها إلى الحرية بأوسع معانيها . ويؤيد ذلك نص كتاب ملن شيتهام وتقاليد إنجلترا الحرة » .

---

(١) مصر فى ٢٦ ـ ١٢ ـ ١٩١٤

« ويجب أن يكون الإخلاص قاعدة الأخذ والعطاء فى المستقبل بين القطر المصرى والدولة الحامية له . فإنى أعد الحماية نعمة عظيمة لأنها تزيل العقبات التى كانت تقف فى سبيل التقدم والارتقاء ، وتبث فى البلاد روحا حية جديدة تتناول القضاء والزراعة والصناعة » .

« وغنى عن البيان أن القضاء سيكون قضاء مصريا بحتاً ، ولكن ذلك لا يطلق عليه لفظ انقلاب » .

« نعم ! إن القوانين يجب توحيدها ، وإلغاء الامتيازات يبطل حق الدول فى اختيار القضاة الذين يمثلونها فى المحاكم . ولكن ذلك لا يؤدى إلى إقصاء القضاة الأجانب أنفسهم ولاسيما أنى أرى أنه لا يمكن الاستغناء عنهم فى عهد قريب ، ولا بد من وجود قضاة أجانب فى محاكمنا زمناً طويلا لحسن سير القضاء ، ولتأمين الأجانب على مصالحهم » .

« وأنت تعلم أن عندنا جمعية تشريعية استشارية . فالواجب علينا الاحتفاظ بها ، ولكن هذه الجمعية تكون اسمية أكثر منها فعلية لو بقيت ضمن الحدود المضروبة لها الآن » .

« ولذلك أرى من الحكمة أن لا تعطى هذه الجمعية رأيا قاطعاً فى جميع الأحوال ، بل أن تعطى هذا الاختصاص بالنظر إلى بعض الأمور فقط ، وأعنى بها الأمور المتعلقة بالمسلمين دون سواهم كالأوقاف والمجالس الحسبية والمحاكم الشرعية . ولا ريب فى أن هذه الأمور لا علاقة للأجانب بها ، ولا يمكن أن تمسهم القرارات التى تصدرها الجمعية التشريعية بشأنها . أما سائر الأحوال

التى يمكن أن تمس بوجه من الوجوه الأجانب ؛ فرأى الجمعية التشريعية يكون فيها استشاريا فقط » .

« وقد اتخذنا فى المحاكم الشرعية قرارات خطيرة ، ولكننا لا نقصد منها الإعنات ، بل الرجوع إلى أحكام العقل والصواب وتنفيذ القانون تنفيذاً صحيحا . فإن وظيفة قاضى القضاة كان يجب إلغاؤها من عهد بعيد ، لأنها شاذة عن القانون ، ولا معنى لها لأن جميع المحاكم الشرعية فى القطر المصرى مرجعها نظارة الحقانية ، فلا نرى لماذا تشذ محكمة القاهرة وحدها عن هذه القاعدة . ولماذا يعهد إلى قاضى القضاة فى تعيين القضاة الذين يرأسهم ؟ » .

« فهى أثر من آثار عهد انقرض منذ سنوات ، وعامل من عوامل الظلم والاستبداد التى كان لها أسوأ تأثير فى أحوال الأمة . إن محكمة مصر الشرعية كانت حكومة وسط حكومة ؛ فبطلت أن تكون كذلك بعد القرارات التى اتخذناها » .

ثم تكلم عن وجوب العناية بنشر العلم فقال « والواجب على أبناء وطنى أن يدركوا أن أول وسيلة لإدراك الاستقلال الداخلى الذى يجب أن ترمى مجهوداتنا إليه ؛ إنما هو العلم الراسخ ، لا العلم السطحى » .

* * *

والمآخذ على هذا التصريح كثيرة ؛ منها :

١ — التناقض فى قوله إن الاحتلال ينطوى تحته ما ينطوى تحت الحماية . ثم قوله : « إنى أعد الحماية نعمة عظيمة لأنها تزيل العقبات التى كانت تقف فى سبيل التقدم والارتقاء » .

فإذا كان الاحتلال هو الحماية ، والاحتلال موجود منذ سنة ١٨٨٢ ، فكيف يكون التغيير فى الصيغة القانونية من شأنه أن يزيل العقبات التى كانت تقف فى سبيل التقدم والارتقاء ؟ ومن وضع هذه العقبات ؟ أليست هى الدولة المحتلة ؟ هل قاوم العثمانيون إنشاء المدارس والمصانع فى مصر ؟ هل قبضوا على اقتصاديات البلاد ؟ هل كانوا يتدخلون فى تعيين الوزراء وكبار الحكام ؟ وهل زالت هذه العقبات حقاً بإعلان الحماية ؟

٢ — زعمه بأن الحماية تنطوى على الاستقلال أو الحرية بأوسع معانيها . وهو زعم باطل أثبتت الأيام فساده . فالحماية كانت حجرا على الحرية . وأصبح نائب الملك يعامل كأنه ملك . وكانت دار الحماية هى مصدر السلطات كلها ، تحكم البلاد عن طريق المستشارين الإنجليز . وقوله « ولكن لفظة الحماية واسعة النطاق . فيمكنك بحسب الظروف أن تستخرج منها معنى الضم أو معنى الاستقلال . والسر الآن فى تحديد المعنى الذى يجب أن نطويه تحتها ونصرفها إليه » أما كان يجب عليه — والحالة هذه — أن يحدد معناها مع الإنجليز فى اتفاق صريح ؟

٣ — قوله إن القضاء سيكون مصريا بحتاً ، ثم قوله « إن البلاد لا يمكن أن تستغنى عن القضاة الأجانب زمنا طويلا لحسن سير القضاء ولتأمين الأجانب» فبين القولين تناقض ، وفضلا عن ذلك فإنه طعن فى القضاة الوطنيين طعنا قبيحا ؛ إذ اعتبرهم غير أكفاء لتحقيق العدالة وليسوا أهلا لتأمين الأجانب .

٤ — أما القرارات المتعلقة بالمحاكم الشرعية والتى هال لها وكبر ؛ فلم يظهر لها أى أثر . وقد بقيت هذه المحاكم كما كانت من قبل .

٥ — أما موضوع قاضى القضاة فهو أثر من آثار اعتراف المصريين بالخلافة

العثمانية . وما قيمة هذا الموضوع إزاء وجود المستشار القضائى البريطانى الذى كان يملى إرادته وينفذ مشيئته على الرغم من رئيس الحكومة ؟ وما قيمة المحاكم الشرعية التى تنظر فى قضايا الطلاق والميراث والوصاية بجانب المحاكم المختلطة ؟

٦ — أما نشر التعليم وقوله إن الاستقلال الداخلى لا يمكن أن يتحقق إلا إذا انتشر التعليم الصحيح لا السطحى ؛ فهذا القول كان يحتج به الإنجليز دائماً على وجودهم فى مصر . وكانوا يقولون إن الشعب جاهل ، ولا يستحق الاستقلال ، وأنهم باقون حتى يتعلم الشعب العلم الصحيح . ومن ناحية أخرى كانوا يضعون العقبات فى سبيل إنشاء المدارس والمعاهد . وحاربوا فكرة إنشاء جامعة بالترويج لفكرة إنشاء الكتاتيب ، مع أن الجامعة هى التى تنشر العلم الصحيح .

٧ — ويقول إن الجهود ترمى دائماً إلى الوصول إلى الاستقلال الداخلى لا التام . أى أنه كان يريد لمصر مركزا كمركز إحدى المستعمرات البريطانية التى كانت تتمتع بشىء من الاستقلال الداخلى . وحتى هذا القدر المتواضع كان يرى أن وقته لم يحن بعد ، ولا يمكن تحقيقه إلا بنشر العلم الصحيح بعد عمر طويل . ولم يكن الإنجليز يقولون أكثر من هذا .

ولم يخف الإنجليز ابتهاجهم بالنصر المؤقت الذى أحرزوه بتنصيب السلطان حسين . وقد أرادوا أن يفهموه من أول وهلة أنهم قادرون على خلعه متى شاءوا . قالت مجلة[1] « سبكتاتور » الإنجليزية ما ترجمته « إننا قوامون على الشعب المصرى . ولكى تكون قوامتنا ذات نتيجة يجب أن تكون حرة غير مقيدة ما دامت هذه القوامة » .

ثم قالت « وعبارات الإعلان — لحسن الحظ — تدل على أننا أحرار

(١) الوطن فى ١٨ — ١ — ١٩١٥ .

فى اختيار الحاكم الذى نثق به من بيت محمد على ، والذى نعتقد أن نفوذه يكون خيراً لمصر جملة » .

« وسيبقى سلاطين مصر كقضاتنا ما داموا يحسنون سلوكهم . ولاشك فى أن هذه الطريقة قد تدل على أنها من آمن الطرق فى العالم ، كما دلت على ذلك فى قضاتنا والحكام الهنود . وهذه الطريقة فوق ذلك تترك للقيم حرية العمل . ونحن لم نتعهد بأن نجعل على العرش أى أمير من بيت محمد على لمجرد كونه الأحق بالوراثة » .

« وفوق هذا فإننا لسنا مقيدين ببيت محمد على إذا لم يكن فيه كفء ، ولو أننا نرغب فى المحافظة على توارثه » .

وقال لورد كرومر[١] « ... وهناك أمر جدير بالاعتبار ، وقد يجىء يوم يكون له أهمية كبرى ، وهو أنه لم يتقرر شىء نهائى بشأن نظام الوراثة فى حالة خلو عرش السلطنة . ولا نستطيع أن ننكر أن هناك بعض الخلل فى التوازن والأفضلية لو قورنت الحماية بالضم البسيط المادى . فالامتيازات الأجنبية التى كانت منذ عام ١٨٨٢ شوكة فى جنب الحكومة البريطانية لا تزول بالمعنى الأكيد . وزد على ذلك أن هناك خطراً من أن البلاط قد يصبح ؛ كما هى الحالة فى البلدان الشرقية الأخرى ؛ مركز دسائس مؤذية ومجلبة للعداء » .

« ومع كل ذلك فلا شك عندى مطلقا فى أن الحكومة البريطانية قد سلكت سبيل الحكمة والصواب فى مجاراتها للرأى العام وتفضيلها الحماية على بسط السيادة التامة » .

---

(١) الوطن فى ٢٦ – ٢ – ١٩١٥ .

ثم تكلم عن عائلة محمد على وقال إنها ليست مصرية . ثم قال « يوجد هناك ـ عدا الاعتبارات الوطنية ـ شعور إسلامى شرعى يستميله ويرضيه أن يشغل مسلم أكبر مناصب الحكومة » .

الدعاء فى خطبة الجمعة[1] :

وقد تغير الدعاء فى خطبة الجمعة فأصبح يدعى فيها للسلطان حسين بدلا من السلطان العثمانى ، مع إبقاء الدعاء للخليفة دون ذكر اسم شخص معين . وهذا هو نص الدعاء :

« اللهم إنا نسألك أن تؤيد الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى بفضلك كلمة الدين ، وأن تشمل بعنايتك وتوفيقك خليفة المسلمين . كما نسألك أن تؤيد عبدك وابن عبدك الخاضع لعز جلالك ومجدك ، من أعنته بنصرك وعنايتك ، وحفظته بعين رعايتك ؛ سلطان مصر المعظم حسين كامل نصره الله » :

اجتماع مجلس الوزراء تحت رياسة السلطان :

وفى ٢١ من ديسمبر سنة ١٩١٤ اجتمع مجلس الوزراء لأول مرة تحت رياسة السلطان وأصدر قراراً بإلغاء وظيفة قاضى مصر ، وهو القاضى الذى كان يعينه الخليفة العثمانى . وبهذا انقطع آخر خيط كان يربط بين مصر والدولة العلية . وصدر قرار بتعيين الشيخ محمد ناجى رئيساً للمحكمة الشرعية العليا ، وإحالة الشيخ محمد بكرى الصدفى مفتى الديار المصرية إلى المعاش وتعيين الشيخ محمد بخيت خلفا له . وصدرت قرارات بتنقلات وتعيينات فى بعض مناصب

---

(١) الصحف اليومية فى ٢٤ ـ ١٢ ـ ١٩١٤ .

القضاء الشرعى . كما صدر قانون شامل بتعديل وإلغاء بعض مواد من لائحة ترتيب المحاكم الشرعية والإجراءات المتعلقة بها .

وقرار بأن يكون تعيين رؤساء المحاكم الشرعية ونوابها وقضاتها بأمر من السلطان بناء على طلب وزير الحقانية ومسئولية مجلس الوزراء .

وأحيل بعض موظفى الديوان السلطانى إلى المعاش ، وعين آخرون بدلا منهم . وزيدت مرتبات بعضهم .

السلطان وطلبة العلم :

وقد أكثر السلطان حسين من زيارة المدارس والمعاهد . ولما زار مدرسة الأقباط الثانوية بالأزبكية دخل أحد الفصول ، وكان مدرس[1] اللغة العربية قد كتب على السبورة عنوانا هو « صفات الإمام العادل للحسن البصرى » وتحت هذا العنوان عبارات مما كتبه الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز حينما سأله أن يذكر له وصف الإمام العادل ؛ وهى :

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصرة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف » .

ووقف المدرس يشرح هذه العبارات . فلما انتهى من شرحه تبسم السلطان وقال : إننى تلقيت منك درسا فى العدل يا أستاذ ، وأقول لك : إنى لن أنسى واجباتى ، وأرجو ألا تنسى أنت أيضا وأفراد الأمة واجباتكم .

---

(١) وادى النيل والوطن ومصر والمقطم فى ٢٦ — ٤ — ١٩١٥

ولما زار الأزهر طاف بحلقات الدروس ووضع يده(١) على رأس أحد الطلبة وقال مخاطباً بعض العلماء المدرسين : ثقفوا لنا عقول هؤلاء ، وأنشئوا منهم رجالا ينتفع الناس بمعلوماتهم . وقد تبرع للطلبة الفقراء بألف جنيه .

ولما هم طلبة بعثة الجامعة المصرية بالسفر إلى فرنسا فى ديسمبر سنة ١٩١٥ دعاهم السلطان لمقابلته وزودهم بنصائحه ، فرد عليه طه حسين بالخطبة الآتية :

« أعز الله نصر مولانا وأعلى كلمته . نحن أبناء العلم ، نهضنا فيه صغاراً ، وسنمضى فيه كبارا . وقفنا عليه ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا . ولم نشتغل إلا به ، ولم نفكر إلا فيه . ليس لنا فى حياتنا غاية إلا أن نخدم وطننا العزيز وسلطاننا المحبوب خدمة علمية صادقة . فباسم الجامعة المصرية نرفع إلى عرشك الكريم تحية العلم طاهرة صادقة تمثل شكره لك ، ورجاءه فيك » .

« لقد أحسنت يا مولاى إلى العلم ، ورفعت قدره . فليزد الله قدرك رفعة ، وليحسن جزاءك عن العلم والمتعلمين » .

وقد نفح السلطان كل عضو من أعضاء البعثة بمبلغ خمسين جنيها .

وحدث أن أدى السلطان فريضة الجمعة فى مسجد عابدين وكان ذلك(٢) فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩١٥ وكان الخطيب الشيخ محمد المهدى إمام جامع عزبان فقال فى خطبته « جاءه الأعمى فأكرمه و بفضله عليه تجلى ، وما عبس فى وجهه وما تولى » مشيراً إلى حسن مقابلة السلطان لطه حسين وزملائه . فلم يكد المصلون يسمعون هذه العبارات حتى خيمت عليهم الكآبة ، واستبد بهم الألم ، واشتد عليهم الحزن للتعريض برسول الله صلى الله عليه وسلم على منبر فى خطبة جامعة

---

(١) وادى النيل والوطن ومصر فى ٢٧ — ١٢ — ١٩١٥ .
(٢) وادى النيل فى ٢٠ — ١ — ١٩١٦ .

و إهانة ذاته الكريمة . ولكن القوم ظلوا على ما هم عليه من الاحتفاظ بهيبة المسجد ، وكظموا غيظهم إلى أن انتهت الصلاة ، فشرع أغلبهم فى صلاة الظهر بعد أن اتضح لهم بطلان صلاة الجمعة . وقام الشيخ محمد المهدى يصافح الناس حتى وصل إلى الشيخ محمد شاكر وكيل مشيخة الأزهر وعضو هيئة كبار العلماء فى ذلك الوقت ، فرفض أن يمد إليه يده ، وقال له بصوت مرتفع أمام الحاضرين: « لا أصافحك ، ولا أضع يدى فى يدك . فاخرج من هنا فإنك مرتد لتعريضك بالنبى صلى الله عليه وسلم » ثم توجه الشيخ شاكر إلى قصر عابدين وقابل كبير الأمناء وأبلغه ما حدث وأفهمه أن ما وقع من الشيخ المهدى تعريض بالنبى وهو ردة وكفر . وطال بينهما النقاش على غير فائدة .

ولما سئل الشيخ المهدى عما حدث قال : إن هذا النص لم يرد فى الخطبة الشرعية التى تنتهى بالحديث الصحيح ، وإنما ورد فى ذكرى لمناقب عظمة السلطان على سبيل الاقتباس فقط .

وقالت صحيفة « الأهالى »[1] « تسرب إلى ذهن الشيخ شاكر أن ذكر الخطيب للآية الكريمة ـ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى ـ مسبوقة بكلمة النفى ؛ يريد التعريض بالمقام النبوى الكريم ، وأنه يريد أن يذكر خبر ابن أم مكتوم الأعمى الذى جاء للنبى عليه السلام يريد الإسلام ، فقطب النبى وجهه ولم يحسن مقابلته لأنه كان مشغولا باستقبال وفود العرب . فنزلت الآية عتابا من الله لنبيه . وقد حسن إسلام ابن مكتوم وكان من كبار الصحابة » .

(١) الأهالى فى ٢١ — ١ — ١٩١٦ .

« أدى فهم الشيخ محمد شاكر إلى ذلك المعنى فرفض السلام على الشيخ محمد المهدى وأهانه أمام الحاضرين » .

والصحيح أن الشيخ محمد المهدى قد أخطأ لأن إيراد الآية الكريمة مسبوقة بكلمة النفى يجر السامع إلى الموازنة بين موقفين : موقف النبى عليه السلام من ابن أم مكتوم ، وموقف السلطان من طه حسين . ويمكن أن يقال إنه كفر وارتد بهذه العبارات سواء كانت فى الخطبة الأصلية أو الإضافية ، وسواء قالها فى خطبة الجمعة أو فى أى كلام آخر ، لأن التعريض فيها بمقام النبى عليه السلام ظاهر وواضح . فالنبى عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، والسلطان ما عبس وما تولى أن جاءه الأعمى .

وللشيخ محمد المهدى موقف آخر غير مشرف سيمر بنا فيما بعد عند الكلام على نقل الجنرال مكسويل . وأقبح منه موقف عبد الرحيم الدمرداش الذى كان يتملق رجال الاحتلال تملقاً يدل على ما انطوت عليه نفسه من ضعة وانحطاط ، وهوان وعبودية وخيانة ، وتجاهل تام لمصلحة الوطن ، وتقديم مصالح الإنجليز على مصالح المصريين .

هل رضى الشعب عن السلطان ؟

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها السلطان فى التقرب إلى الشعب إلا أن السواد الأعظم من الأمة كان ينظر إليه بعين الشك ، ولم يغتفر له قط قبوله العرش من الإنجليز . وكان رجال الأمن يحيطون به فى كل مكان يذهب إليه .

وقد حدث حينما توجه إلى المسجد الحسينى لصلاة الجمعة[1] فى ١٥-١-١٩١٥

---

(١) وادى النيل فى ١٦ - ١ - ١٩١٥ .

أن جاء رجل وطني فاخترق النطاق الموضوع من رجال الشرطة والحرس والحاشية وجلس في صف الوزراء خلف السلطان . فأبعدته الشرطة السرية وساقوه إلى مقر الشرطة وحققوا معه .

وفي المأدبة التي أقامها السلطان لأعضاء الجمعية التشريعية جاء أحد معلمي مدرسة الشيخ صالح إلى إسماعيل سري وزير الأشغال وقال له : إنه قرأ في صحيفة [1] « التيمس » أن الأتراك وصلوا إلى حدود مصر . فأبلغ وزير الأشغال أمره إلى رئيس الوزراء الذي طلب من الشرطة أن يقبضوا عليه . وبعد أن حققوا معه تقرر فصله من وظيفته .

وبينما كان الركب السلطاني مخترقا شارع أبي الدرداء [2] بالإسكندرية إذ صاح شخص قائلا « يا معين » بصوت دوى في الفضاء ، فقبض عليه وسيق إلى التحقيق .

وهذا غير المؤامرات التي دبرت لاغتيال السلطان ، والتي سنتكلم عليها في الفصل التالي :

الجفاء بين السلطان والإنجليز :

وفي سنة ١٩١٦ حصل جفاء بين السلطان وبين نائب الملك السير أرثر مكماهون . قال أحمد شفيق باشا [3] « ولقد أشيعت إشاعات عن أسباب هذا

(١ ، ٢) وادي النيل في ٦-٦-١٩١٦ .

(٣) الحوليات الجزء الأول حوادث سنة ١٩١٦ .

الخلاف ، نسبت فيها السلطة العسكرية إلى الخروج عن حد اللياقة فى معاملة عظمته » .

وذكر لى عباس محمود العقاد أن سبب الخلاف يرجع إلى طلب نائب الملك أن يشترك مع السلطان فى مقابلة الأعيان والكبراء أثناء التشريفات التى كانت تجرى بمناسبة الأعياد والمواسم . وقد رفض السلطان هذا الطلب بشدة . ولم تجر تشريفات خلال سنة ١٩١٦ بسبب مرض السلطان وتغيبه فى أملاكه الخاصة بجبارس . وذكر العقاد أن الإنجليز جاءوا للسلطان بأحد أطباء الأمراض العقلية ليكشف عليه ويختبره ، ولكن السلطان نهره وطرده من حضرته .

وذكر لى الشاعر محمود صادق أن السلطان طلب من نائب الملك أن يخفف الإنجليز من قبضتهم على البلاد ، وأن تلزم السلطة العسكرية جانب الاعتدال . واشتد بينهما الجدال حتى قال له نائب الملك : نحن الذين وليناك . فأجابه السلطان بصوت مرتفع : هذا عرش جدى محمد على . وسمعت هذه الحكاية نفسها من محمد مصطفى المناحى . وسنرى فى تصريحات السلطان ما يؤيدها .

وربما كان من أسباب الجفاء بين الطرفين تخوف الإنجليز من الزيارات الكثيرة التى قام بها السلطان للمدارس والمعاهد ، وزياراته للأقاليم وخطبه التى ألقاها فى الحث على الاتحاد والعمل لصالح الوطن . وقد قام نائب الملك بزيارات مماثلة ولكنها لم تكن ناجحة وذلك بسبب سخط الشعب على الإنجليز واستيائه الشديد من أعمالهم القبيحة منذ أعلنوا الأحكام العرفية .

وكان من نتيجة هذا الخلاف أن أدلى السلطان بتصريحات إلى بعض مراسلى الصحف الأجنبية لمح فيها إلى زهده فى العرش ، ورغبته فى اعتزال الحكم . من

ذلك تصريحه لمراسل صحيفة « نيو يورك هرالد[1] » وقد بدأه بالإشادة بفضل الحماية البريطانية ، وبأعمال الإنجليز العظيمة — كما زعم — فى مصر . ثم قال :

« إنى لم أكن أقبل عرش السلطنة تحت الحماية البريطانية لو لم أكن مواليًا ومنعطفًا على تلك الدولة الحرة التى سأعمل معها دائمًا فى سبيل تقدم شعبى ونجاحه اقتصاديًا وماديًا . وقد علمنى الاختبار الطويل أنها الصديقة الصدوقة لشعبى وأسرتى » .

« لقد مضى على وأنا سلطان الآن أكثر من سنة ، فوجدت رؤساء الحكومة البريطانية ونوابها هنا الذين أنا محتك معهم فى العمل يوميا على تمام الإخلاص لى ولمصر . وسأواصل العمل ما داموا يثقون بإخلاصى وولائى . ولولا هذه الثقة لاعتزلت منصبى فى الحال . ولما كنت مخلصًا من طبيعتى فإنى لا أستطيع العمل إلا مع المخلصين . وإنى بعد أن ناهزت الرابعة والستين ، وبعد اختبارى الإنجليز زمنًا طويلا ؛ رضيت أن أشتغل معهم لترقية قومى وبنى وطنى ، ولتحقيق أحلام مصر وأمانى أهلها التى وصلت إلى إرثا عن سلفى العظيم مؤسس بيتى » .

وجاء فى هذا التصريح « وسأتابع العمل معهم ما داموا يعتقدون إخلاصى وولائى ، فإذا تغير الحال ولم تبق الثقة المتبادلة استقلت فوراً » .

ويؤخذ من هذا التصريح أن ثقة الإنجليز بالسلطان قد طرأ عليها شىء من الخلل . ولو استمر فقدان الثقة بين الطرفين لكان من المحتمل أن يؤدى ذلك إلى حدوث تغيير فى شخص الجالس على العرش .

إلا أن الإنجليز رأوا أن يقدموا للسلطان نوعًا من الترضية . فنقلوا الجنرال

---

(١) وادى النيل فى ١٧–٢–١٩١٦ .

مكسويل فى ١٩ مارس سنة ١٩١٦ ، ثم نقلوا نائب الملك فى أكتوبر من العام المذكور ، ولكنه ظل يؤدى عمله إلى ديسمبر حتى وصل السير ريجنالد ونجت الذى حل محله ، وكان هذا يشغل وظيفة سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام وكان وديع الأخلاق ، لطيف المعشر ، خبر المصريين لطول معاشرته لهم . وفوق ذلك فقد كان صديقاً حميماً للسلطان .

وفى خلال فترة الخلاف بين الطرفين حافظ السلطان على قواعد المجاملات السياسية بينه وبين ممثلى الحكومة البريطانية فى مصر . فزار دار الحماية فى ٨-٦-١٩١٦ وتحدث مدة من الزمن مع مكماهون ، ولكن يبدو أن هذه المحادثات لم تنته إلى نتيجة فاضطر السلطان إلى الاعتكاف فى مزارعه بجبارس ابتداء من أوائل أكتوبر سنة ١٩١٦ وفى ١٣ منه نشر المقطم ترجمة حديث أدلى به السلطان إلى مراسل صحيفة « الأسوشياتدپرس » الأمريكية جاء فيه :

« لما دعيت إلى تبوء عرش مصر أبيت قبول الدعوة لأن الحالة كانت كثيرة الإشكال والتعقد ، ولأنى لم تكن لى مطامع . ولكنى رأيت بعد التفكير الدقيق و إنعام النظر أنى قد أستطيع خدمة مصر بقبول ما عرض على . ولقد صافحت البريطانيين وعاهدتهم عهد الأمانة ، وسأحفظ عهدى إلى النهاية » .

« ولولا ثقتى بالحكومة البريطانية واعتقادى بأن الحقوق التى تعطى لنا فى مسألة الحكم الذاتى تزاد زيادة تدريجية ؛ لما رضيت بأخذ هذه المهمة على عاتقى ؛ إذ لا فائدة شخصية لى منها . وقد كنت سعيداً قرير العين وأنا أمير أهتم بالشئون الزراعية والأعمال الخيرية ، ولا يثقل عاتقى عبء الحكم » .

« كانت حالة الحكومة فى عهد الخديو السابق كبيت له ثلاثة أبواب هى :

الحكومة المصرية ، والخديو ، والوكالة البريطانية . وكانت كل من هذه القوات الثلاث تؤدى عملها على حدة كأنما هى مستقلة عن القوتين الأخريين ، فكانت النتيجة أن الناس لم يعودوا يدرون إلى أى جانب يسيرون . أما الآن فقد امتزجت هذه القوات الثلاث وتوحدت مصلحتها وصارت تسعى لغرض واحد ؛ وهو خير مصر وإسعادها » .

فالخلاف إذن ينحصر فى أن السلطان اعتقد حينما قبل العرش أن الحكم الذاتى سيزداد بالتدريج ، واعتقد أن الإنجليز سيتركون له الحكم الداخلى ويأتمنونه على مصالحهم فيلقون عليه الحمل ويجعلونه الموئل الوحيد كما قال فى أول تصريح له ، ولكن الإنجليز لم يستجيبوا لرغبات السلطان ولم يحققوا له آماله . وكل ما عملوه أنهم نقلوا القائد العام ونائب الملك . وظلت سياستهم كما هى لم تتغير ، بل زادت تعسفاً وبغياً .

ولما نقل مكماهون أنعم عليه السلطان بالوشاح الأكبر من نيشان محمد على وقلده إياه بيده ، كما أنعم على قرينته بنيشان الكمال المفتخر من الدرجة الأولى . وأقام له مأدبة فاخرة حضرها جميع الوزراء ، ثم زاره فى دار الحماية مودعاً .

* * *

وفى خلال فترة الجفاء بين السلطان والإنجليز ، أكثر السلطان من التقرب إلى الشعب . فزار مدرسة الحقوق للمرة الثانية فى ١٠ – ٤ – ١٩١٦ وخاطب الطلبة بقوله(١) :

---

(١) الوطن فى ١٢ – ٤ – ١٩١٦

« إننى زرت مدرستكم قبل سواها ، وجعلتها فى المقام الأول لأبرهن لكم على كثرة محبتى لكم وقد جئت إليكم بكل إخلاص ، وأنتم تعلمون أن الصراحة رائدى فى جميع أقوالى وأعمالى. فاذكروا أن سعادتى مرتبطة بسعادتكم واعلموا أن مستقبل البلاد بأيديكم ، وأن نجاحها وتقدمها يتوقفان على ما تبذلونه فى سبيلها من الإخلاص والحب الصحيح لوطنكم وسلطانكم . واعلموا أن مدارس الحقوق تربى النفوس على حب الحق والعدل ، فهى أرقى المدارس وأشرفها » .

وكانت السلطات المصرية قد اعتقلت أمين الرافعى وعبد الرحمن الرافعى ، وعبد الله طلعت وهم من رجال الحزب الوطنى . فدعاهم[1] السلطان من معتقلهم لمقابلته وشملهم بعطفه ورضاه ، وأمر بإطلاق سراحهم ، فخرجوا من لدنه شاكرين داعين .

ولم يغير السلطان حسين مسلكه على الرغم من المؤامرات التى دبرت لاغتياله بل إنه طلب من القيادة البريطانية أن تخفف حكم الإعدام الذى صدر ضد المتهمين بإلقاء القنبلة عليه حينما كان بالإسكندرية .

الألقاب والرتب والنياشين :

وقد صدر قانون بالألقاب والرتب والنياشين فى ١١ – ٤ – ١٩١٥ وهذا بيانها :

حضرة صاحب السمو الأمير	لأفراد عائلة محمد على ، بدون لقب باشا ،
حضرة صاحب السمو الأميرة	أو بك ، أو هانم .

---

(١) وادى النيل فى ٢٧ – ٦ – ١٩١٦

حضرة صاحب الدولة : لرئيس مجلس الوزراء .

حضرة صاحب المعالى : للوزراء ، ولرئيس الجمعية التشريعية والسردار ورئيس الديوان العالى وأصحاب الوشاح الأكبر من نيشان محمد على وحائزى رتبة الامتياز

حضرة صاحب السعادة : للفريق العسكرى ، وللحائزين رتبة باشا

صاحب السعادة : للحائزين لرتبة اللواء العسكرية .

حضرة صاحب العزة : للميرالاى ، والبك من الدرجة الأولى

صاحب العزة : للقائمقام والبك من الدرجة الثانية .

أما النياشين فبيانها :

١ — رتبة الامتياز ، وهى معادلة لرتبة الوزارة ويعطى لصاحب هذا النشان لقب حضرة صاحب المطوفة . وقد ألغيت هذه الرتبة بعد مدة قليلة من إنشائها .

٢ — رتبة باشا : وتعطى للأعيان والموظفين الذين لا يقل راتبهم عن ١٢٠٠ جنيه فى العام .

٣ — رتبة بك من الدرجة الأولى والثانية .

٤ — نيشان محمد على وهو أكبر نيشان فى الحكومة المصرية وكان من ثلاث درجات . وأكبر درجاته نيشان قلادة محمد على ؛ يهدى للأمراء المصريين والأجانب .

٥ — ميدالية محمد على الذهبية والفضية وهما للضباط .

٦ — نشان النيل وهو على خمس درجات .

٧ — نيشان الكمال للسيدات .

٨ — نيشان الفلاحة للنابغين من المزارعين .

ونص القانون على أنه لا تعطى رتبة أو نيشان إلا بناء على طلب الوزير المختص ؛ تبين فيه الأسباب التى حملته على طلب الرتبة أو النيشان ومصادقة مجلس الوزراء على ذلك .

ولكن الواقع أن السلطان خالف هذا القانون وأنعم من تلقاء نفسه بالباشوية والبكوية على كثير من الأعيان .

النقود الجديدة :

وفى شهر أكتوبر سنة ١٩١٦ وجه السلطان خطاباً إلى نائب الملك طالباً التصريح للحكومة المصرية بضرب نقود جديدة . فرد عليه[١] فى خطاب بتاريخ ١٩ منه جاء فيه : « .. وهى — أى الحكومة البريطانية — ترى أن استعمال اللغة الإنجليزية بجانب اللغة العربية على أحد وجهى العملة لبيان قيمتها ، فضلا عما فيه من تسهيل تداولها ؛ فإنه يكون مظهراً للروابط الجديدة اليوم بين مصر وبريطانيا العظمى » .

وعلى أثر هذا صدر مرسوم سلطانى بسك العملة الجديدة ، وكتب على أحد وجهيها « السلطان حسين كامل » وتاريخ السنة الهجرية وقيمة القطعة ، وعلى الوجه الآخر قيمتها باللغة الإنجليزية .

معهد أسيوط الدينى :

وفى أيامه أنشىء معهد أسيوط الدينى . ورفع رجال الأزهر عريضة التمسوا

(١) الوطن فى ٢٠ — ١٠ — ١٩١٦ .

فيها زيادة مرتباتهم لارتفاع أثمان الحاجات واشتداد موجة الغلاء ، فتقرر زيادة ميزانية الأزهر زيادة طفيفة .

السخط على الإنجليز :

وكان سخط الشعب على الإنجليز يزداد على مر الأيام نظراً لتعسف السلطة العسكرية وكثرة اعتداءات جنود الاحتلال على المواطنين . وكان يجرح الشعور الوطنى ما يتخذه المحتلون من مظاهر تبعث الألم فى النفوس . مثال ذلك ما نشرته صحيفة الوطن فى ٤ ـ ٦ ـ ١٩١٥ بمناسبة الاحتفال بعيد جلوس ملك الإنجليز جورج الخامس وهو :

« ... هذا وقد غصت دار الحماية صباح اليوم بجماهير المهنئين بعيد مولد جلالة ملك الإنجليز وإمبراطور الهند بالأمراء والوزراء والعظماء والأعيان والوجهاء وغيرهم من ذوى الحيثيات . ورفعت الأعلام على سائر المصالح الأميرية ، وعلى الأبنية الكبيرة والدور الشاهقة فى العاصمة وغيرها . وأقفلت دواوين الحكومة ومصالحها كلها » .

« وفى صباح اليوم عرضت فى ميدان عابدين سائر القوات البريطانية من جميع الأسلحة بحضور فخامة نائب الملك وكبار موظفى دار الحماية ، وحضرة صاحب الدولة الرئيس رشدى باشا ، وأصحاب المعالى الوزراء الذين قدموا العاصمة خصيصاً للتهنئة بهذا العيد . وحضرات المستشارين وغيرهم من كبار الموظفين الملكيين والجهاديين . فمرت الجنود أمام الراية البريطانية ثلاثاً ، وصدحت الموسيقى بالسلام الملكى . وهتف الجنود عند الختام ثلاثاً بالدعاء لجلالة الملك » .

« وسيغادر العاصمة على قطار خاص فخامة نائب الملك وكبار موظفى دار

الحماية . وقد وزعت محافظة العاصمة رقاع الدعوة على الحكام وكبار الموظفين والأعيان للحضور إلى المحطة لتوديع فخامة نائب الملك ، كما وزعت محافظة الإسكندرية أوراق الدعوة لاستقبال فخامته . وستصطف فى المحطتين القوات البريطانية والمصرية لتأدية التحية لفخامته عند المغادرة والوصول » .

وقالت الصحيفة المذكورة فى ٥ – ٦ – ١٩١٦ .

« ما وافت الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم حتى لبست محطة مصر ثوباً قشيباً من الزينات الباهرة والأعلام الخافقة وفرشت طرقاتها بالبسط الحمراء واصطف البوليس الراكب والبيادة فى أنحائها ، وأطرافها وفى منعطفات الشوارع والطرق . ولما وصل فخامة نائب الملك صدحت الموسيقى الإنجليزية بالسلام ، وأدت الفرقة الإنجليزية التى كانت بإفريز المحطة الداخلى السلام . واستعرض فخامته هذه الفرقة وشكر ضباطها . ثم سار الهوينا يحف به الضباط العظام وسعادة محافظ العاصمة ، ويقدمه سعادة الحكمدار ، فأخذ يحيى الجمع المحتشد مصافحاً . وما أتم ذلك حتى ركب القطار المخصوص » .

تبرعات السلطان :

وقد أكثر السلطان حسين من التبرعات للجمعيات الخيرية وللطلبة الفقراء ووهب الكنيسة الإنجليزية أرضا فضاء بميدان قصر النيل « التحرير » لتشيد عليها كنيسة للجنود . وقد هدمت بعد جلاء الإنجليز عن القاهرة ، وأقيم البناء المجمع على جانب منها ، والباقى هو الحديقة التى أمامه . كما تبرع بمقادير كبيرة من السجاير والحلوى للجرحى من جنود الاحتلال وللأسرى العثمانيين .

مرض السلطان ووفاته :

وقد أخذت صحته فى التدهور منذ عام ١٩١٦ ، وأجريت له عملية البواسير ،

أجراها له الدكتور على إبراهيم . ثم تحسنت صحته قليلا . وقام برحلة نيلية من القاهرة إلى أسوان زار خلالها كثيراً من المدن الكبرى .

وفى سنة ١٩١٧ عاوده المرض . ونزولا على رأى الأطباء اعتكف فى قصر والدته بمصر الجديدة منذ شهر مارس من العام المذكور . وظل معتكفا لبضعة أسابيع دون أن يقوم بأى عمل ، أو يبذل أى جهد ، ولما خف قليلا انتقل إلى الباخرة سيار وأقام بها عند مرمى حلوان . وفى ٧ من أكتوبر سنة ١٩١٧ صدر البلاغ الطبي الآتى :

« عاد صباح اليوم حضرات الأطباء حضرة صاحب العظمة السلطانية بالباخرة سيار . و بعد الفحص وجدوا ـ والحمد لله ـ تحسينا فى حالة مولانا السلطان الصحية ونظرا لرطوبة الجو أشاروا بإيقاف الإقامة على النيل الآن » .

وقد انتقل السلطان إلى قصر عابدين فى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم المذكور .

ومع أن البلاغ ذكر أن صحة السلطان متحسنة ، إلا أن الجو كان يشعر بخلاف ذلك ، فقد توافد الأمراء على العاصمة ، وفى مقدمتهم الأمير أحمد فؤاد .

وفى ظهر يوم الثلاثاء الموافق ٩ من أكتوبر أصدر مجلس الوزراء بلاغا نعى فيه السلطان ، وكان ابنه كمال الدين قد تنازل عن حقوقه فى العرش لأنه لم يكن متفقا مع والده فى سياسته إزاء الإنجليز ، ولأنه رأى المتاعب التى تعرض لها والده خلال مدة حكمه القصيرة . فأراد أن يحتفظ بحريته ، و يعيش بمعزل عن المشاكل .

وكان الأمير أحمد فؤاد مقربا من الإنجليز ، ينتهز الفرص ليتملقهم ، فرأس حفلة الشاى التى أقيمت تكريما للجنرال مكسويل بمناسبة مغادرته مصر وخطب فيها منوها بفضل القائد المذكور . ومنذ تولى شقيقه العرش أخذت الصحف تهتم بنشر أخبار تنقلاته و زياراته .

وفى يوم ٩ من أكتوبر ، أى بعد وفاة شقيقه مباشرة أعلنت توليته سلطانا على مصر .

وخرج نعش السلطان حسين من قصر عابدين فى ١٠ من أكتوبر محمولا على أعناق بعض الجنود والبحارة وسار خلفه السلطان فؤاد وإلى جانبه نائب الملك ، فالأمراء والوزراء فرجال الدين فأعضاء الجمعية التشريعية ، فكبار الموظفين المصريين والأجانب .

وسار المشيعون على أقدامهم مخترقين ميدان عابدين فشارع كامل « الجمهورية » فميدان الأوبرا ، فميدان العتبة ، فشارع محمد على « القلعة » حتى وصلوا إلى مسجد الرفاعى حيث دفنوه إلى جانب والده إسماعيل .

ولم يقم له مأتم لأنه أوصى بذلك إحياء للسنة وإماتة للبدعة .

وكان مولده فى ١٩ صفر سنة ١٢٧٠ (٢٠ ديسمبر سنة ١٨٥٣)

« وكان عصبى المزاج [1] ، سريع الانفعال ، مصابا بالأرق ، لاينام من ليله إلا ساعة أو بعض ساعة . وهذا ما أثر فى قواه الجسمانية حتى انحطت ، وزاد انحطاطها ما أخذه على عاتقه من أعمال السلطنة التى أنهكت قواه »

حكم التاريخ على السلطان حسين كامل

كان المصريون يعلمون منذ أغسطس سنة ١٩١٤ أن الإنجليز منعوا عباس من العودة إلى بلاده . وظلوا من هذا التاريخ إلى يوم ١٩ ديسمبر ؛ وهو اليوم الذى تولى فيه السلطان حسين عرش مصر ؛ يشاهدون أعمال المحتلين وما أشاعوا من إرهاب وما قاموا به من عسف وتنكيل وتقييد للحريات وتكميم للأفواه دون أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض أو الاحتجاج . ولم يجرؤ واحد من أهل

(١) حوليات مصر السياسية لأحمد شفيق ١/١١٧

الرأى على الكلام . وقد اعتقل الإنجليز كل من اشتبهوا فى أمره أو ظنوا أنه يعارض سياستهم . ولم يفكر أعضاء الجمعية التشريعية فى الاجتماع من تلقاء أنفسهم وكان القانون النظامى يسمح لهم بذلك إذا لم يدعوا إلى الاجتماع فى الموعد المحدد للدورة . ولم يفكروا فى عقد اجتماع فى منزل أحدهم للتشاور فى الأمر . وكانوا فى مقدمة المهنئين للسلطان ، الراضين عن الأوضاع الجديدة . وانفرد حسين رشدى بالأمر فلم يحاول أن يجمع حوله نفرا من رجال السياسة ليتشاور معهم فيما سيفعله مع الإنجليز .

فوجد السلطان نفسه وحيدا أمام قوة لا قبل له بمقاومتها ، فى وقت تراجع فيه الحق أمام طغيان السيف .

وأخذ الشعراء المصريون منذ بدء الحرب ينظمون القصائد فى مدح الإنجليز والتسبيح بحمدهم والإشادة بمناقبهم . قال حافظ إبراهيم من قصيدة فى تهنئة السلطان :

ووال القوم إنهمو كرام   ميامين النقيبة أين حلوا
فإن صادقتهم صدقوك ودا   وليس لهم إذا فتشت مثل
فمادهم حبال الود وانهض   بنا فقيادنا للخير سهل

فحافظ ينصح السلطان بأن يوالى الإنجليز ويخلص فى ولائه لهم ، ويصادقهم لأنهم قوم كرام لا مثيل لهم فى سمو الأخلاق .

طال تردد السلطان ولم يجد من رجال السياسة من يعارض رغبات الإنجليز أو يقف فى وجههم أو يدعو إلى الثورة ضدهم . فلم يستطع أن يعمل شيئاً بمفرده .

وقد رأى أن سياسة العداء للإنجليز التى انتهجها الخديو عباس والحزب الوطنى

لم تأت بنتيجة . فاعتقد أنه بإعرابه عن حبه للإنجليز وصداقته لهم يمكنه أن يستخلص منهم بعض الحقوق المهضومة . وقد اتضح للسلطان فساد هذا الاعتقاد .

فالمسئولية الكبرى فيما حدث فى مصر من مظالم الإنجليز ومن تغيير فى المركز القانونى للبلاد واقعة لا محالة على عاتق حسين رشدى لأنه تفاوض مع الإنجليز منذ شهر سبتمبر سنة ١٩١٤ وسلم بمطالبهم كلها دون قيد أو شرط ، وتعاون معهم بإخلاص طوال وقت الحرب .

غير أنه يؤخذ على السلطان إفراطه فى مدح الإنجليز وإطرائهم والثناء عليهم ، وإعرابه عن ارتياحه التام للحماية ، ووصف هذه الحماية بأنها خير وبركة على المصريين . وقوله فى عدة مناسبات إن حالة الحكومة فى عهد الخديو السابق كانت كبيت له ثلاثة أبواب هى : الحكومة المصرية ، والخديو ، والوكالة البريطانية ، وزعمه بأن هذه القوات امتزجت وتوحدت مصلحتها وصارت تسعى لغرض واحد ؛ وهو خير مصر وإسعادها . وهو قول باطل ممعن فى البطلان . ولم يبين السلطان كيف توحدت هذه القوات ، وإلى من صارت الكلمة النافذة فى الحكم ؟ هل صارت له ؟ كلا ! هل صارت لحكومته ؟ كلا ! وإنما صارت للإنجليز .

وعلى الرغم من مظالم الإنجليز وجرائمهم التى ارتكبوها فقد استمر السلطان إلى آخر لحظة من حياته يصفهم بالعدل الذى يضرب به الأمثال ، وبنبل الأخلاق وكرم السجايا . وهذا كله كما سبق ذكره قد شجع الإنجليز على التمادى فى البغى والعدوان . وقد فقدت البلاد فى عهده كل مظهر من مظاهر حريتها واستقلالها . وكانت أيامه فترة مظلمة فى تاريخ مصر .

الفصل الرابع

الاغتيالات السياسية فى عهد السلطان حسين

١ — اعتداء محمد خليل

فى يوم ٨ من أبريل سنة ١٩١٥ بينما كان الركب السلطانى سائراً قبيل الساعة الرابعة بعد الظهر فى شارع عابدين بالقرب من مدرسة الحقوق ؛ لحظ سعيد ذو الفقار باشا كبير الأمناء الذى كان يجلس إلى جوار السلطان أن شاباً ينظر إلى الركب نظرات مريبة ، فخاطب رئيس الحرس بشأنه . ولم يكد يتم كلامه حتى تقدم ذلك الشاب من عربة السلطان ورفع يده بباقة ورد أحمر وقيل بلفافة من الورق الأحمر كان قد خبأ فيها مسدساً . وأطلق رصاصة أصابت إطار العربة ، ولو لم تنحرف مقدار سنتيمتر واحد لأصابت السلطان .

وقد قبض على الجانى فى الحال . وكان شاباً فى السابعة والعشرين من عمره ، اسمه محمد خليل ، تاجر خردوات بالمنصورة . وتسلمه حكمدار العاصمة هارفى باشا ومأمور الضبط جورج فلبيدس للتحقيق معه والبحث عما إذا كان له شركاء .

وحينما سيق المتهم إلى قسم عابدين أخذ يهتف بأعلى صوته بحياة الخديو عباس والأريكة الخديوية ودولة الخلافة . وقد أقر فى التحقيق أنه حضر من المنصورة قبل وقوع الحادث بستة أيام لإنفاذ غرضه . وأنه نزل بفندق المؤيد الكائن بشارع كلوت بك . فخف رجال الشرطة إلى الفندق وفتشوا حجرته التى كان ينزل بها فعثروا على أوراق تتضمن طعناً فى الإنجليز ودعوة إلى الثورة

عليهم ، واتهاماً للسلطان بالخيانة الوطنية . وكان الجانى يحمل فى جيبه مقداراً من السم ليبتلعه بعد ارتكاب الجريمة حتى يموت و يفلت من القصاص ، ولكنه عدل عن ذلك لاعتقاده أن تناول السم لا يليق بشهامته وعزة نفسه . وقد ألقت الشرطة القبض على بعض أقارب المتهم ومعارفه فى المنصورة بعد أن فتشت منازلهم . كما قبض على بعض الطلبة . وأطلق سراح هؤلاء جميعاً لثبوت براءتهم من الجريمة .

ولم يسفر التحقيق عن وجود شركاء للجانى ، فقدم بمفرده للمحاكمة أمام محكمة عسكرية بريطانية بناء على طلب الإنجليز .

وقد ذهب أعضاء الجمعية التشريعية لتهنئة السلطان بنجاته ، وهتف سعد زغلول بحياة السلطان ثلاثاً ؛ فردد الأعضاء الهتاف .

وفى ١٩ من أبريل انعقدت المحكمة العسكرية فى دار محكمة الاستئناف بباب الخلق وسط مظاهرة عسكرية إنجليزية قصد بها إرهاب الشعب. وكانت المحكمة مؤلفة من ضباط إنجليز ، وانتدب أحد الإنجليز ليتولى الدفاع عن المتهم . وحضر الجلسة رئيس الوزراء وعدد من الوزراء وكبار الموظفين والصحفيين .

وقد سألت المحكمة المتهم :

— هل أنت مجرم ؟

— مجرم وغير مجرم

وكان من شهود الإثبات أحد ضباط الحرس فقال :

كنت راكباً إلى يمين العربة السلطانية ، وكان رأس حصانى بجانب العجلة الأخيرة اليمنى من المركبة . ورأيت عند زاوية المستشفى العباسى هذا

الرجل قادماً نحو المركبة من شارع حسن الأكبر، رأيته نازلا من الرصيف نحو المركبة وهو حامل بيده وردا أحمر، ويده ممدودة. فتقدمت نحوه لأمنعه من قذف الورد وانتهرته قائلا: وررا، وررا. وأشرت إليه بسيفي، ومس رأس سيفي يده. ثم سمعت دوى طلق نارى خرج من طاقة الورد، فضربته بسيفي فى الحال على رأسه، وكانت يده مصوبة إلى صدر السلطان. ثم استعددت لضربه ثانية، ولكنى سمعت عظمته يقول: لا تقتله، لا تقتله. وقبض على الجانى.

وقال المحامى الإنجليزى: إن المحكمة العرفية ليس لها اختصاص بنظر هذه القضية مادام المتهم ملكياً، لأن مبادئ القانون الإنجليزى أنه ما دامت المحاكم المدنية لم تكن ملغاة، فالمحكمة العرفية ليس لها الحق فى سحب قضية داخلة فى اختصاصها ونظرها بمعرفتها. وأضاف إلى ذلك أن منشور الجنرال مكسويل يفيد أن الجيش البريطانى وملك بريطانيا هما اللذان فى حالة حرب، لا الجيش المصرى. ومن رأيه أن لا داعى لوجود أحكام عرفية فى مصر.

فرد المدعى العمومى قائلا: إنه ليس من وظيفة هذا المجلس أن ينظر فيما إذا كان إعلان الأحكام العرفية فى مصر مبنياً على داع جوهرى أو غير جوهرى. بل من وظيفته أن ينفذ القانون ويبحث موضوع القضية فقط. وأن المحاكم المدنية الموجودة الآن فى مصر بعد الإعلان الذى أصدره قائد الجيوش البريطانية لم تكن موجودة إلا بإرادته حسب ما هو مبين فى المنشور. ولذلك فله مطلق السلطة فى تعيين اختصاص هذه المحاكم، وله أن يمنعها من نظر بعض القضايا. وإن أهم نقطة فى المنشور هى أن القائد أخذ على عهدة الجيش البريطانى المحافظة على الأمن والسكينة فى البلاد. وأن الاعتداء على عظمة السلطان هو مما يخل بالأمن العام. ولذلك فللمحكمة العرفية الحق فى نظر هذه القضية.

وقال الطبيب الشرعى إن الرصاصة لو لم تنحرف سنتيا واحداً لأصابت السلطان .

ولم يظهر المتهم خوفا فى خلال المحاكمة ، بل كان رابط الجأش ، ممتلئا حماسة ، فكرر أمام المحكمة ما قاله فى التحقيق من أن السلطان قد خان الوطن بقبوله العرش من الإنجليز ، وبموافقته على إعلان الحماية ، بل و بترحيبه بها و إطرائها . وبمسايرته للانجليز وسكوته عن مظالمهم .

وانتهت المحاكمة بصدور الحكم بإعدام المتهم شنقا . ونفذ فيه الحكم صباح السبت الموافق ٢٤ من أبريل سنة ١٩١٥

وقد تبرع السلطان بمبلغ خمسمائة جنيه لإعانة العمال المتعطلين ، كما تبرع بمثل هذا المبلغ لبعض الجهات الخيرية ، وذلك ابتهاجا بنجاته .

٢ — قنبلة الإسكندرية

فى يوم الجمعة الموافق ٩ يولية سنة ١٩١٥ حينما كان السلطان خارجا لصلاة الجمعة ألقيت عليه قنبلة سقطت تحت أقدام الخيل ولم تنفجر . وكان إلقاؤها من أحد نوافذ المنزل رقم ٩٩ بشارع رأس التين . وعلى أثر ذلك بادر رجال الشرطة إلى دخول المنزل المذكور فوجدوه خاليا من السكان ، وليس به أى شىء سوى قنبلتين من نوع القنبلة التى ألقيت ، وهى مصنوعة محليا .

وقد استطاع الجانى أن يهرب ويختفى عن الأنظار ، وذلك بأن قفز إلى سطح منزل مجاور ونزل من سلمه وخرج إلى حارة واقعة خلف شارع رأس التين فشاهدته بعض النسوة نازلا ، وكان كما ذكرن رابط الجأش ، ثابت الخطى .

وقد حياهن بأدب جم ، فحسبنه قريبا لصاحبة المنزل الذى يسكن فيه . وذكرت النسوة للشرطة أوصاف الجانى وهى : ربع القامة ، متوسط الحجم ، أبيض اللون.

* * *

وقد انزعجت الحكومة المصرية والسلطات البريطانية من وقوع هذا الحادث ، ومن الطريقة التى دبر بها ، ومن فرار الجانى . وأخذ رجال الشرطة يلقون القبض على الناس جزافا و يسوقونهم إلى التحقيق . وانتشر رجال الشرطة السرية فى جميع جهات القطر للبحث عن الجانى . وأعلنت الحكومة أنها تعطى خمسمائة جنيه لمن يدلى بمعلومات صحيحة تؤدى إلى القبض على الشخص الذى استأجر المنزل رقم ٩٩ ملك التمساح فى يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩١٥ وأما أوصافه كما ذكرتها الشرطة فهى أن عمره يتراوح بين ١٨ و ٢٢ سنة مصرى الجنس ، متوسط القامة ، قمحى اللون ، مائل إلى الصفرة ، أسود الشعر بشارب أسود خفيف ، بارز الوجنتين ، غائر الخدين ، بارز الحنجرة بشكل ظاهر .

وقد احتوت النشرة التى ألصقتها إدارة الضبط على الجدران على صورة زنكوغرافية لإمضاء المتهم كما وردت فى عقد الإيجار . وأصدر القائد البريطانى العام المنشور الآتى :

« على كل شخص يعلم بوجود مؤامرة ضد نظام الحكم ، سواء نتج من هذه المؤامرة أى فعل أو لا ، وعلى كل شخص يعلم أن فرداً أو أفراداً مشتركون فى مؤامرة ، أو متهمون بأية جريمة موجهة ضد نظام الحكومة ، أن يبلغ بلا أدنى تأخير إلى أقرب سلطة سواء ملكية أو عسكرية ، كل المعلومات التى يكون حاصلا عليها »

« وكل من لم يقم بالتبليغ عن ذلك مع علمه به ؛ يعرض نفسه المحاكمة بالطريقة العرفية . وكذلك من يتستر على أشخاص مشتركين فى مؤامرة أوجريمة أو يساعدهم فى الهرب من يد القضاء . »

* * *

وقد تحدث السلطان بمناسبة محاولة اغتياله هذه إلى الدكتور فارس نمر ؛ أحد أصحاب المقطم[1] فقال :

« إنى لو تحققت أن هذه الحوادث واقعة من أفراد متهوسين لم يدفعهم لارتكابها إلا لؤم طباعهم وخبث فطرتهم لكان اهتمامى بالأمر أقل كثيرا مما هو عليه الآن . لكن متى ثبت أن الجريمة واقعة باتفاق جماعة من الأشرار ؛ لكان ذلك دليلا على وجود جرثومة فساد فى البلاد مضرة بمجموعها ، ولا بد من استئصال هذه الجرثومة ليصلح المجموع كله . وهذا ما نحن بصدده ، وهو الذى يهمنى كثيراً »

« يؤلمنى جدا أن هؤلاء القوم لايفرقون بين الخير والشر . يؤلمنى جدا أن أراهم يحكمون فى الأمور بأهوائهم لابعقولهم ما ضرهم لو فكروا قليلا فى السبب الذى دعانى لقبول السلطنة . لو كانوا من السياسة فى شىء لشكرونى على هذا القبول . لو كان فيهم من يعقل أو يفكر لعلموا أن وجودى ليس عائدا بشىء من النفع على شخصى ، بل نفعه عائد على البلاد بعون الله »

« أنا قبلت هذا المركز فى هذه الظروف الحرجة . وما كنت بالراغب فيه ،

---

(١) المقطم فى ٢٠ — ٧ — ١٩١٥

ولا الساعى لأجله ، ولكن سياسة البلاد اقتضت ذلك . وما أسفى إلا لما أراه من الانحطاط فى الأخلاق الذى إن لم يتدارك بالدواء العاجل فربما أدى إلى ما لا تحمد عقباه ، ولكنى لا أتحول ولا تحولنى مثل هذه الحوادث عما عزمت عليه من السعى المتواصل لتطهير البلاد من أرجاس الدسائس والفتن ، وفى تقويم أخلاق القوم وتربيتها » .

وقد أراد السلطان بقوله « ماضرهم لو فكروا قليلا فى السبب الذى دعانى لقبول السلطنة . لو كانوا من السياسة فى شىء لشكرونى على هذا القبول » أنه لو لم يقبل السلطنة لضمت إنجلترا مصر إلى أملاكها ، ولأصبحت مصر جزءا من الإمبراطورية البريطانية . ولكن شواهد الحال تدل على أن تولية السلطان حسين لم تعد على البلاد بأية فائدة ، إذ أن الإنجليز كانوا يحكمون مصر كأنها إحدى مستعمراتهم . وكان فى مصر نائب لملك الإنجليز كما فى الهند . وكانت البلاد تحكم عن طريق المستشارين الإنجليز. وكان الحاكم العسكرى البريطانى يصدر من القوانين والأوامر ماشاء دون الرجوع إلى الحكومة المصرية . وقد نهب الإنجليز خيرات البلاد لصالحهم . فماذا كان يحدث أكثر من ذلك لو ضمت مصر إلى الإمبراطورية البريطانية ؟ وهل وقف السلطان فى وجه الإنجليز فى أمر من الأمور؟ هل رفض لهم طلبا ؟ هل استطاع أن يدفع عن الشعب ولو شيئاً يسيراً من المظالم التى وقعت عليه خلال حكمه ؟ إن الإنجليز اتخذوا السلطان ستاراً لهم وجعلوا منه ألعوبة يضحكون بها من الشعب . ثم إن السلطان أطرى الحماية البريطانية فى مناسبات كثيرة ، وقال وبئس ما قال إنها مصدر خير وبركة على مصر . وأكثر من مدح الإنجليز ، وأعرب مرارا عن شدة إخلاصه لهم وتعلقه بأذيالهم . وكذلك فعل حسين رشدى ؛ وكل هذا كان مصادما للشعور الوطنى . لقد كان وجود

السلطان وعدمه على حد سواء فى نظر الشعب ، بل ربما كان عدم وجوده أفضل لأن الأمة فى هذه الحال كانت ستواجه الإنجليز رأسا ، وتقف أمامهم وجها لوجه.

* * *

وقد انتشر الرعب والفزع بين الناس من جراء حركة الاعتقالات الواسعة والقبض على الكثيرين وتفتيش المنازل . وأبعدت السلطات المصرية إلى خارج البلاد : أحمد شوقى . ونفت السلطات البريطانية حسين شيرين ، وإبراهيم راتب إلى مالطة . كما أمرت السلطات المصرية باعتقال : أمين الرافعى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وعبد الله طلعت من رجال الحزب الوطنى .

ونشر محمود فهمى[1] الذى كان فيما مضى سكرتيراً للحزب الوطنى كلمة اتهم فيها الأغرار من رجال هذا الحزب بتدبير حوادث الاعتداء على السلطان وتبرأ منهم ، وصرح بأن خير البلاد إنما هو فى الإخلاص للسلطان ، والسير على مايوجب الثقة من جانب الدولة الحامية بحسن نيات المصريين . وكان محمود فهمى ممن خرجوا على محمد فريد .

* * *

وقد ظهر بعد تحقيق طويل أحيط بالكتمان أن هذه الجناية دبرها ونفذها شابان مصريان هما : محمد نجيب الهلباوى المدرس بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية . وأصله من قرية « أبا الوقف » التابعة لمركز مغاغة ، وكان إذ ذاك

---

(٢) الأهرام فى ١٥ — ٨ — ١٩١٥ والوطن فى ١٦ منه

فى الثانية والعشرين من عمره . ومحمد شمس الدين وكان طالبا بالمدارس الثانوية ثم تركها بحثا وراء الرزق . وهو فى العشرين من عمره

وانعقدت المحكمة العسكرية البريطانية فى محكمة الاستئناف بباب الخلق لمحاكمة المتهمين يوم ٨ مايو سنة ١٩١٦ ، أى بعد وقوع الجريمة بعشرة أشهر . وقد بالغ الإنجليز فى حشد عساكرهم وضباطهم إمعانا فى إرهاب الشعب .

وسألت المحكمة شاهد الإثبات محمد حسين معاون شرطة مغاغة فقال إنه فتش منزل محمد نجيب الهلباوى ووجد به خطابا كان قد بعثه إلى والده يخبره فيه بأنه لا يعرف إذا كان سيبقى حيا أو يموت .

ثم نودى على والد محمد شمس الدين فقال : إنه دخل عند النائب العمومى فوجد ابنه ومستشار الداخلية . وقال له النائب العمومى : إن ابنك متهم بمسألة القنبلة ، وقد ثبت عليه تأجير المنزل .

قال الشاهد المذكور : وقد حصل لابنى شىء ما أقدرش أتكلم عنه . لما طلبنا أنا ووالدته يوم ٣١ ديسمبر فى النيابة فانتظرنا قليلا ، ثم سمح لنا بالدخول فدخلنا ووجدنا رئيس النظار ووزير الحقانية وواحدا آخر . وقد قال لى أحدهم إن ابنك سيشنق أو يضرب بالرصاص إذا لم يقل الحق ، فالأحسن أن تنصحوه أن يقول الحق . وبعد ذلك تركونا وحدنا وخرجوا كلهم . فحضنته أمه وخرجت مولولة ، فبذلت جهدى فى إسكاتها . وبعد ذلك قالوا لى : إن كل شىء انتهى ، وأنه إما أن يضرب بالرصاص ، وإما أن يشنق . أما ابنى فقال إنه مظلوم وبرىء .

وبعد أن انتهى من شهادته وقف وقال : إنى أحمد الله ألفا ، لأن مسألة ولدى بين يدى السلطة العسكرية الإنجليزية العادلة . فاللهم انصر الأمة الإنجليزية ، ثم كرر هذا الدعاء ثلاث مرات .

وقد أراد الوالد المنكوب أن يتملق الإنجليز وأن يستدر عطفهم على ابنه ، ولكن المحكمة خيبت ظنه وحكمت على ابنه بالإعدام ، ولم ينقذه من حبل المشنقة سوى السلطان حسين .

وقال محمد شمس الدين : إنه لما ذهب إلى النيابة رآه رئيس الوزراء وقال له : إن التهمة ثابتة عليك من شوشتك لرجليك ، ولا بد من إعدامك شنقا ، والأحسن أن تقول الحق .

وكانت الأفكار متجهة إلى أنه لا بد أن تكون هناك جماعة كبيرة تدبر هذه المؤامرات وتحرض على تنفيذها : لذلك بذلت جهود شاقة للكشف عن حقيقة الدوافع إلى ارتكاب هذه الجرائم . وهذا هو السر فى مواجهة رئيس الوزراء للمتهمين وتهديدهم وإرهابهم . وقد اشتطت حكومة حسين رشدى فى هذه القضية وأشاعت جوا قاتما من الإرهاب

وقال شمس الدين : إنه استأجر المنزل رقم ٩٩ لشخص اسمه محمود حلمى من النحارية بكفر الزيات . وقال إنه لم يكن يعرف هذا الشخص ولكن بينما كان جالسا فى مقهى باريس ببولاق ؛ أقبل عليه وأظهر له أنه يعرفه منذ أعوام طويلة . وبعد أن تصادق معه طلب منه أن يساعده فى استئجار منزل بالإسكندرية ليقضى فيه فصل الصيف . ولما ألقيت القنبلة كان شمس الدين بالقاهرة ، وعلم من الصحف خبرها ، ولكنه لم يعرف أنها ألقيت من المنزل الذى استأجره إلا من إعلان المكافأة .

وقال النائب العمومى : أنكر شمس الدين سفره إلى الإسكندرية وكذبه

فى ذلك مضيفة . وأنكر تأجير البيت حتى كذبه خط يده على عقد الإيجار .
ثم جاء بعد ذلك إلى محمود حلمى الذى ادعاه شمس الدين ، فقال : إن كل الأوصاف والعناوين التى ذكرها شمس الدين عن محمود حلمى تجعل هذا الاسم بلا مسمى ولا وجود له . وقال إنه يقرر أنها حكاية ملفقة .

وكان من الممكن للنائب العمومى أن يتساءل : لماذا اختار شمس الدين أن يؤجر المنزل المطلوب فى شارع رأس التين بالذات ؟

وفى ٣٠ مايو سنة ١٩١٦ صدر الحكم بإعدام المتهمين . إلا أن السلطان حسين بعث إلى رئيس الوزراء فى ٢ — ٦ — ١٩١٦ يطلب منه التدخل لدى السلطات البريطانية لتخفيف الحكم . وهذا هو نص رسالته :

عزيزى رئيس الوزراء .

لو أن حكم الإعدام على محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين صدر من محكمة مصرية لكنت استعملت حقى فى العفو عنهما . فأكلفكم الوساطة باسمى لدى قائد القوات البريطانية لاستبدال هذه العقوبة بغيرها ، لأنه يعز على كثيراً أن يكون نصيبهما الحد الأقصى من العقوبة التى فرضها القانون ، فما هما سوى ضالين تملكتهما الغواية ، ولا بد أنهما أدركا اليوم فظاعة الإثم الذى أقدما عليه وآسفان جد الأسف على السيئة التى اقترفاها لما رأياه من استهجان أمتى لعملهما الشنيع .

إمضاء : حسين كامل

وقد وافق القائد العام على هذا الطلب وعدل حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .

٣ — الاعتداء على وزير الأوقاف

كان إبراهيم فتحى باشا وزير الأوقاف قد عزم على السفر إلى الصعيد فى مساء اليوم الخامس من سبتمبر سنة ١٩١٥ للتفتيش على مأموريات الأوقاف .

فلما توجه إلى محطة القاهرة وسار على رصيف الوجه القبلى شاهد بعض معارفه من ضباط الجيش فوقف يتحدث معهم . ولم تمض دقائق حتى تقدم شاب كان يحمل فى يده بعض الصحف وقد خبأ فيها خنجرا ذا حدين كتب على يده « هذا جزاء الخائنين » ولم يكن الواقفون يعرفون مقصد هذا الشاب فأفسحوا له الطريق ظانين أنه يريد مخاطبة الوزير فى أمر من الأمور . فلما أصبح الشاب بجانب الوزير أسرع فأخرج الخنجر وانقض به على الوزير فطعنه ثلاث طعنات إحداها فى مقدم كتفه الأيسر ، والثانية والثالثة فى صدغه . وبعد أن فرغ من الطعنات الثلاثة شرع يجرى ، فجرى خلفه بعض الذين كانوا فى المحطة وقبضوا عليه وساقوه إلى قسم الأزبكية . أما الوزير فإنه نقل إلى منزله بالعباسية .

واسم الجانى صالح عبد اللطيف ، وعمره خمسة وثلاثون عاما ، طويل القامة ، أسمر اللون ، كان يعمل عدادا فى خزينة وزارة المالية . ويسكن فى حجرة بحارة جمعة بشارع محمد على ، وهو من مديرية الشرقية .

واعترف المتهم فى التحقيق أنه أحضر الخنجر الذى اعتدى به على الوزير ، كما أحضر مسدسا صغيرا . ووجدوا فى جيبه ست رصاصات وتذكرة سفر على نفس القطار . ولما سئل عن سبب وجود التذكرة أجاب بأنه كان فى نيته متابعة الوزير حتى ينفذ غرضه .

واستجوبت النيابة عددا من الناس منهم عبد العزيز الصوفانى .

وقد صرح المتهم فى التحقيق بأنه كان فى نيته قتل رشدى باشا وثروت باشا، وقال إن الوزراء جميعا خونة يستحقون القتل .

وبهذه المناسبة صرح رشدى باشا لمندوب صحيفة الأهرام [1] بقوله : « تسألنى عن حوادث الكيد والاغتيالات التى توالت · فما هى إلا ثمرة الغباوة والحماقة وقتل مصلحة الوطن فى وقت واحد »

ثم قال « متى كتب التاريخ الصحيح للفترة التى تقدمت بسط الحماية الإنجليزية على مصر ؛ يرى الجميع ويعرفون أن حسين الأول إذا كان قد قبل عرش مصر ؛ فإنما هو قد قبله بدافع وطنى محض . وهذا المثال العالى السامى الوطنية هو الذى حمل الوزارة التى أتشرف برياستها على أن تعقد العزيمة على العمل مع عظمته »

وقال « ماذا كان يربح هؤلاء المجانين لو قضى سوء حظ البلاد بأن تفقد سلطانها ؟ أما كانت تفتح مسألة ضم مصر التى لم يكد بابها يقفل ؟ والتى كان لها فى إنجلترا أنصار أقوياء ولا يزال لها هناك مثل هؤلاء الدعاة والأنصار ؟ »

« ألا إن أولئك الضالين الذين سلحوا أيديهم بسلاح الشر والآثام يجهلون الطور الشديد الخطر الذى اجتازته مصر منذ بضعة أشهر ، وهم لا يعرفون الهوة البعيدة القرار التى كاد يهوى إليها وجود مصر السياسى »

وقد علق أحمد شفيق باشا على هذا الحديث بقوله [2] « ونحن لا ندرى أكان دولة الوزير جادا فى قوله هذا يقصد مدلوله حقا ؟ أم هو قال ما قال من قبيل

---

(١) الأهرام فى ١٤ — ٩ ، والوطن فى ١٩١٥/٩/١٥

(٢) الحوليات حوادث سنة ١٩١٥

الإرهاب حتى يقنع الناس بالحال التى وصلوا إليها ويطمئنوا إلى السكون دون المطالبة بأمانيهم تامة غير منقوصة ؟ »

والذى لاشك فيه أن مسألة ضم مصر إلى الإمبراطورية البريطانية كان لها أنصار كثيرون داخل الحكومة البريطانية وخارجها . قال لورد كرومر (١) . «ولا نستطيع أن ننكر أن هناك بعض الخلل فى التوازن والأفضلية لو قورنت الحماية بالضم البسيط المادى» ثم قال: « لاشك عندى مطلقا فى أن الحكومة البريطانية قد سلكت سبيل الحكمة والصواب فى مجاراتها للرأى العام وتفضيلها الحماية على بسط السيادة التامة »

والحقيقة أن الإنجليز لم يجدوا من صالحهم أن يضموا مصر إلى إمبراطوريتهم لأنهم كانوا يخشون من قيام المصريين بالثورة ضدهم . ولأنهم كانوا يذيعون بين دول العالم أنهم يحاربون دفاعا عن حرية الشعوب . ولأن مركزهم الحربى كان حرجا وكانوا فى حاجة إلى معونة المصريين لصد الغزو العثمانى . فالحماية أكسبتهم الأنصار والأعوان من السياسيين ومن كبار الملاك والأعيان ورجال الدين، واستطاعوا أن يسخروا هذه العناصر كلها لخدمة مصالحهم . وكان لهم القول النافذ فى طول البلاد وعرضها . فالحماية كانت أنفع لهم من الضم .

ثم قال حسين رشدى «إن الجانى على فتحى تفضل فأنبأنا بأنا سنمحى جميعا ، وبأنه سيبدأ بثروت ثم بى . فهل إذا انقرضنا نحن تنقرض بانقراضنا طائفة التوزر ؟ »

« إن المناصب التى تخلو تملأ حالا بناس آخرين تقضى عليهم طبيعة الحال أن يتبعوا السياسة التى اتبعها سلفهم . هل هم يقصدون فقط إبعادنا عن المناصب ؟

---

(١) الوطن فى ١٩١٥/٢/٢٦

إذا كان ذلك القصد قصدهم فالوسيلة التى يتذرعون بها خائبة ، لأن التهديد يثبتنا فى مناصبنا »

ثم قال « إن الذى يطلق منصبه فى الحالة الحاضرة يعد فارا جبانا متنحيا عن القيام بواجبه »

« لربما وجد من يقوم لمناهضتنا نحن الوزراء المصريين . فانفرض أن هؤلاء الذين يريدون سقوطنا نالوا بغيتهم ، وأن خطر المنصب : كما نقلوا إليك من أقوال الجانى على فتحى ؛ أبعدنا وأبعد عن المناصب نخبة رجال الأمة ؛ فماذا تكون النتيجة بعد ذلك ؟ إنهم بلا شك يكون لهم وزراء إنجليز . أإلى هذا يرمى الجانى عبد اللطيف وشيعته ؟ الحقيقة أن هؤلاء المشئومين يعملون ويقولون دون تعقل أو إدراك . يعملون بحكم الغرور الفاسد »

وقد أنكر رشدى باشا ماعزاه إليه عبد اللطيف وهو قوله « يجب سحق الأمة المصرية بضرب ناشئتها ، قائلا إنه لايصدر عنه ، وأنه لم يقبل المنصب إلا بدافع من الإخلاص والمحبة للشعب المصرى لخدمة مصالحه ! ولتخليص شخصيته السياسية من الغرق والزوال »

وختم تصريحه بقوله « ما أشقى الذين يقولون هذه الأقوال ! إن هذه الترهات والمفتريات تطفر لها الدموع إلى العين والغصة إلى الحلق » .

وذكر مصريته وجهاد أجداده فى سبيل استقلال مصر ، فقال : « إذا كان جدى قد قاتل الإنجليز فى حملة فريزر سنة ١٨٠٧ حباً فى مصلحة مصر؛ فإن هذه المصلحة نفسها تحملنى أنا اليوم على أن أماشيهم واضعاً يدى بيدهم » .

أما قول حسين رشدى « إنهم بلا شك يكون لهم وزراء إنجليز » فما قيمة

الوزير المصرى إذا كان آلة فى يد الإنجليز، يأتمر بأوامرهم وينفذ رغباتهم ؟ ألم يكن للمستشار الإنجليزى الكلمة النافذة فى الوزارة التى يعمل بها ، وكانت طاعته واجبة ؟ هل كان الوزير المصرى قادراً على البت فى أمر من الأمور قبل موافقة المستشار الإنجليزى ؟

* * *

وفى الساعة التاسعة من صباح يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١٥ عقد مجلس عسكرى إنجليزى فى دار محكمة النقض والإبرام بباب الخلق لمحاكمة المتهم . وقد سألته المحكمة :

— هل أنت مجرم ؟ فأجاب : أنا مجرم وغير مجرم .

المحكمة : ذكر فى المحضر أن المتهم يريد أن يقتل ثروت باشا ، ثم حسين رشدى باشا . وقال المتهم لرشدى باشا « إن ما كنش النهارده فتأكد أن دورك جاى بكرة » ، وقال عن الوزراء : كلهم خونة ويجب إعدامهم .

— متى فكرت فى قتل الوزير ؟

— بعد القبض على أعيان المصريين ، وكنت مصمما على قتل وزير الأوقاف ، ثم ثروت باشا .

ودارت بعد ذلك عدة أسئلة بشأن رغبة المتهم فى قتل رشدى باشا ، يؤخذ منها أنه ذهب إلى المحطة مراراً لقتله ، ولكنه لم يفلح . وكان الجانى محتفظاً بشجاعته وقوته المعنوية . وقد حكم عليه بالإعدام شنقاً .

* * *

هذه هى الاغتيالات السياسية التى وقعت فى ذلك العصر . ولو أن الشبان

المصريين اتجهوا إلى اغتيال الجنود والضباط الإنجليز الذين كانوا منتشرين فى كل مكان لنجحوا فى ذلك نجاحاً عظيما ، ولأوقعوا الرعب فى قلوب المحتلين . ولاستطاعوا أن يشعلوا الثورة ضدهم .

على أن اشتغال الشبان ، وبخاصة طلبة المدارس والمعاهد بالشئون السياسية لم ينقطع على الرغم من الضغط والإرهاب الذى تعرضت له البلاد . ففى ١٨-١١-١٩١٥ قررت وزارة المعارف فصل طالبين بمدرسة المعلمين العليا وهما : محمد صبرى منصور ، ومحمد عوض محمد وحرمانهما من دخول المدارس الأخرى والمصالح الأميرية والامتحانات العمومية . وجاء فى قرار الفصل أنهما يشتغلان بالمسائل السياسية بكيفية يخشى منها على الأمن العام ، وقد ارتكبا بذلك ذنباً خطيراً استوجب هذه العقوبة . ووزعت الوزارة نشرة بهذا القرار على جميع الوزارات والمصالح الحكومية والمدارس والمعاهد الأميرية .

و بعد ذلك اعتقلت السلطات البريطانية محمد عوض محمد ونقلته إلى جزيرة مالطة . وهذا مثل بسيط يدل على أن الشبان المصريين كانوا مستعدين للتضحية بأرواحهم فى سبيل الوطن ، ولكنهم لم يجدوا القائد . وظلوا كذلك حتى اختارت العناية الإلهية سعد زغلول فنفخ فى الأمة من روحه القوية ، وخلق الأمل فى النفوس وملأها ثقة وشجاعة بعد أن زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر .

الفصل الخامس

الحرب على الحدود

١ — فى الصحراء الشرقية

(ا) الحملة العثمانية الأولى سنة ١٩١٥ :

فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٤ أرسل العثمانيون كتيبة من الجنود لبث الألغام فى خليج العقبة بعد أن احتلت ميناء العقبة . فكلفت إنجلترا البارجة منيرفا بالتوجه إلى الخليج المذكور لاستطلاع الحالة ومنع العدو من تنفيذ أغراضه .

ومنذ اليوم العشرين من شهر نوفمبر بدأت المناوشات بين حرس الحدود المصرية وحرس الحدود العثمانية بالقرب من العريش . فتمكن العثمانيون من أسر كتيبة مصرية بكامل أسلحتها ونقلوها إلى موضع قريب من يافا . وقد اشتركت قوة من الهجانة المصرية فى هذه المناوشات بقيادة الملازم أول محمد أنيس الذى قتل فى خلالها .

ثم احتل العثمانيون قطية فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ وبئر دويدار ومويا حراب ، و بئر مبايوك وموقعاً صغيراً خارج الطور .

وفى ٣٠ يناير سنة ١٩١٥ وصلت طلائع الحملة العثمانية إلى أقرب النقط من الاستعدادات الحربية التى أقامها الإنجليز على طول قناة السويس . و بدأت المعارك بين طلائع الطرفين .

وفى يوم ٢ فبراير اشتبك الجيشان بجهة الإسماعيلية ، إلا أن إعصاراً شديداً محملا بالرمال قد هب فى وجوه المحاربين فتعذرت الرؤية وتوقف القتال .

وفى ٣ فبراير وقعت المعركة الرئيسية التى حاول فيها العثمانيون اجتياز القناة فلم يفلحوا . ومما جاء فى البلاغ الرسمى الصادر بالقاهرة « حاول العدو اجتياز القنال بقرب طوسون فى ليلتى ٢ ، ٣ الجارى فتركناه ينقل أدوات لعمل الكوبرى من غير أن نتعرض له . ولما ابتدأ بإقامة الكوبرى هاجمته جنودنا وطردته ففر بلا انتظام تاركاً وراءه جميع الأدوات التى كان قد أحضرها ، وغرق بعض رجال العدو » .

وقد هاجمنا العدو فجر اليوم فى جهة القنطرة فصددناه وأسرنا أربعين من رجاله » .

وفى مساء يوم ٤ فبراير سنة ١٩١٥ نشرت إدارة المطبوعات بالقاهرة بلاغاً بتفصيل الوقائع التى حصلت بين الطرفين فى الليل بين ٢ ، ٣ فبراير ، وهذه صورته :

« هاجمنا المشاة فى نقطة طوسون نحو الساعة الثالثة والدقيقة العشرين صباحاً . وفى الوقت عينه حاول العدو اجتياز القنال بواسطة كوبرى نقالة وأطواف تحت حماية مدافع مكسيم الشديدة » .

« ولما أصبح الصباح شوهد العدو زاحفاً نحو محطة طوسون ، وكانت مدفعيته تطلق النار على محطتى طوسون (١) وسرابيوم (٢) . فجاوبتها مدفعيتنا ومدفعية السفن الحربية . وبعد القتال مدة تخلله هجوم من سرابيوم ارتد العدو عند الساعة الثالثة والنصف مساء . وقد وقع فى أيدينا فى أثناء القتال ثمانية ضباط ،

---

(١) طوسون أو طوسنيوس قرية صغيرة على ضفة قنال السويس على الكيلو ٨٥ بين بحيرة التمساح والبحيرات المرة .

(٢) سرابيوم على بعد خمسة أميال من الإسماعيلية .

و ٣٨ أسرى . ووجد عدد كبير من القتلى أمام مراكزنا . وقد أصيبت السفينة الحربية هاردنج مرتين بالقنابل ، فجرح بها عشرة من البحارة . وما عدا ذلك فإن خسارتنا كانت ضابطين وثلاثة عشر رجلا من القتلى ، ٨٥ جريحا . ومن هؤلاء ضابط وجنديان من القتلى وجندى من الجرحى من طوبجية الميدان المصرية التى أبلت بلاء حسناً » .

« وقد شوهد العدو فى الفجر بالقرب من معدية الإسماعيلية وهو يتحصن فى الخنادق على مسافة ٧٠٠ ياردة إلى ٨٠٠ من مراكزنا . فأطلقت أورطتان منه البنادق علينا . واستمر إطلاق النار فى أثناء النهار متقطعاً . ولم تلحق بنا خسارة ما » .

« أما فى جهة القنطرة فقد هوجمت مراكزنا الأمامية بين الساعة الخامسة والسادسة صباحاً ، إلا أننا صددنا العدو ، وألحقنا به خسارة بلغت ٢١ قتيلا ، ٢٥ جريحاً ، ٣٦ أسيراً غير مجروحين .

« وبعد مضى زمن هاجمنا العدو هجوما جزئياً من جهة الجنوب ، ولكننا منعناه من التقدم ، فظل واقفاً على مسافة ١٢٠٠ ياردة من مراكزنا . وقد عثرنا على ثمانية قتلى آخرين » .

« وقد تبين أن قوة العدو كانت مؤلفة من ١٢ ألف مقاتل على أقل تقدير ، وأنها كانت مسلحة بست بطاريات من المدافع . ومن ثم يرى أن حملة الأتراك على مصر لم تسفر إلا عن إحضار الأسرى منهم للقاهرة » .

وبذلك تقرر مصير الحملة العثمانية الأولى على مصر الذى انتهى بالإخفاق التام . وقد وصف المراسل الحربى لصحيفة « التيمس [١] » البريطانية هذه

---

(١) وادى النيل فى ٢٦-٢-١٩١٥ .

المعارك فقال « ولو أنه قد حدثت بعض مناوشات بين طلائع العدو ، وبين مواقعنا الأمامية فى الجزء الأخير من شهر يناير ، إلا أن الهجوم الحقيقى لم يبدأ حتى ٢ فبراير إذ أخذ العدو يزحف على معدية الإسماعيلية ، فلقى كتيبة كشافة من الجنود من جميع الأسلحة فنشبت بينهما ملحمة غير نظامية ، وهبت زوبعة سفت الرمال ، ووضعت حداً للمعركة فجأة حيث كانت الساعة الثالثة بعد الظهر »

ولما أرخى الليل سدوله تقدمت القوة الرئيسية المهاجمة إلى وجهتها ، وكانت تجر بالأيدى نحو القنال من ٢٥ إلى ٣٠ قاربا من قوارب الكبارى التى نقلت فى الصحراء على عربات النقل . وكان رمشان لأجل تسهيل العبور فوق القوارب، وهكذا أعد كل شىء للهجوم » .

« وأول من أنذر بزحف العدو حارس من بطارية جبلية ، إذ سمع كما يقول رطانة لا يعرفها وسط الماء . وإذ ذاك علت الضوضاء ، والظاهر أن أصوات المجاهدين الذين يصحبون فرقة الكبارى النقالى وجنود الألاى الخامس والسبعين النظامى كانوا ينطقون بالعبارات المحرضة المحمسة ، فأمهلهم المصريون حتى أخذ الأتراك يدفعون بالقوارب إلى الماء . وحينئذ أطلقوا النيران فجأة من مدافع مكسيم التى مع البطارية على الرجال والقوارب المجتمعين عند الشاطئ المقابل لهم » .

« وفى الحال تطايرت النيران من كلا الشاطئين ، وأطلقت القنابل بشدة ، وأجاب العدو على نيران البنادق والمدافع السريعة الطلقات والبطارية التى على جانبنا بالمثل . وكان من المستحيل الوقوف حول المدافع غير أن الطوبجية ثابروا على عملهم ملحقين بالعدو قصاصا مريعاً » .

« وأسرعت نسافة صغيرة عليها ١٣ بحاراً كانت تتعسس فى القناة وأنزلت

أربعة ضباط وجنود فى جنوب طوسون ، فصعدوا إلى الشاطئ الشرقى حيث وجدوا أنفسهم فى خندق تركى ، غير أنهم فروا بمعجزة وعادوا بالأخبار . وإذ ذاك هجمت النسافة بين النيران وأطلقت القنابل على الشاطئ الشرقى وسط وابل من الرصاص ، فدمرت عدة قوارب كبارى كانت على الساحل لم تعوم بعد ، وظلت تضايق العدو ، ولو أن ضابطين منها ورجلين جرحوا » .

« وجاءت عند الغسق قوات جديدة ، فتقدم العثمانيون الذين يحتلون الخط الخارجى - أو خط النار - من موقع طوسون تحميهم نيران المدافع ، وزحفوا على الجنود الهندية التى كانت تحتل الخط الداخلى الذى أمضوا فيه ليلتهم . وفى الوقت نفسه زحف ألاى من العرب على الجنود الهندية التى عند نقطة سرابيوم » .

« واشتركت البوارج التى عند القنال والبحيرات فى القتال . وقد أحضر العدو نحو ست بطاريات من مدافع الميدان من المنحدرات التى فى غرب كتائب الخيل ، وكانت القنابل تطلق بمهارة إلا أنها لم تنجح فى إصابة البطارية المذكورة من قبل ، والتى كانت ترسل نيرانها على الرماة الذين على الشاطئ المقابل تساعدها فى ذلك كتيبة من المشاة . وألحقت بالإمدادات الزاحفة نحو القناة خسائر فادحة » .

« وقد أصابت قنبلة من قنابل العدو البطارية فجرحت أربعة من رجالها ، غير أنها تعرضت للخطر من نحو عشرين جنديا من الأتراك تمكنوا من عبور القناة فى الظلام وأخذوا الطوبجية من الخلف . غير أن الطوبجية الهنود أقبلوا أخيرا وطوقوهم واضطروهم إلى التسليم » .

« واتخذ الهنود خطة الهجوم تعاونهم مدفعية الشاطئ البحرية . وتمكنت حامية سرابيوم التى أوقفت العدو على مسافة ثلاثة أرباع الميل من موقعها ؛

من صده · وكذلك فعلت حامية طوسون بواسطة هجمة باهرة قامت بها . فعزز الأتراك أنفسهم بأورطتين من الأناضوليين من رجال الفرقة الثامنة والعشرين . غير أن هذا لم يجدهم نفعا ، فإن مدفعيتنا لم تدع لهم فرصة للقيام بأى عمل » .

« وفى منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر كان ثلث العدو ، ما عدا قوة اختبأت فى المنخفضات الكثيرة الأشجار التى على الساحل الشرقى بين الموقعين ، يتقهقر تاركا وراءه كثيرين من القتلى الذين لقى معظمهم حتفه من قنابل شرابنيل » .

« وفى الوقت نفسه اشتركت البوارج التى فى البحيرات فى القتال . غير أن تأثير نيران العدو كان أكبر من ذلك ، فإن قنبلتين من قنابله أصابتا البارجة هاردنج فى الساعة الحادية عشرة صباحا بالقرب من مدخل البحيرة ، فدمرت الأولى المدخنة ، وانفجرت الثانية داخل البارجة فجرحت عشرة أشخاص » .

و بعدئذ حدث ترام محزن بين مدافع الأتراك أو مدافعهم الكبرى ، و بين إحدى البوارج » .

« وفى الصباح تقدم العدو نحو معدية الإسماعيلية وأحسنت مشاته الانتفاع بالأرض ، فكانت تحفر الخنادق وهى زاحفة تحت حماية بطاريات كانت تستعمل بمهارة وحذق . وقد عرض أحد الضباط بنفسه للنيران بكل جرأة » .

وكانت مدفعيتنا تطلق النيران بمهارة أيضا . فمنعت العدو من التقدم من مواقع الهنود الخارجية إلى أكثر من ألف ياردة . وانقطعت المناوشة بعد الظهر إلا قنابل قليلة كانت تطلق » .

« وانتهى القتال عند القنطرة فى الوقت الذى انتهى فيه عند المعدية · وهناك كانوا قد استبسلوا فى القتال ليلا غير أنهم وقفوا عند شباك أسلاك كنا ، وحاولوا

أن يزحفوا من الجنوب الشرقى إلا أن الهنود منعوهم بتقدمهم ، ولم ينجح هجومهم على موقعنا المنيع إذ كان لا بد لهم من الزحف على خط ضيق تكثر فيه الأوحال من جراء الفيضانات الأخيرة ، وهكذا لم يشتبك العدو فى الحقيقة إلا مع خطنا الأمامى » :

« وبدأ إطلاق النار بعد ظهر ثالث فبراير من الشاطئ الشرقى بين طوسون وسرابيوم واستؤنف الرمى فى الصباح التالى ، وخرج نفر من الهنود للبحث فوجدوا عدة مئات من رجال العدو فى المنخفض المذكور آنفا ، وأثناء القتال رفع بعض منهم أيديهم ، فتقدم الهنود لأسرهم غير أن البعض الآخر كانوا لا يزالون يطلقون النار فقتلوا ضابطا إنجليزيا » .

« وبعد ذلك دار القتال العنيف بالسلاح ، فقتل ضابط إنجليزى ضابطا تركيا بضربة من سيفه ، ووجدت فيما بعد جثة ضابط ألمانى ومعه علم أبيض ، وانتهى الأمر بقتل جزء من العدو ، وأسر آخر ، وفرار البقية »

« وقد احتمل الهنود عبء القتال،وساعدتهم البوارج الإنجليزية والفرنسوية والجنود المصرية مساعدة حسنة . وقاتل الأتراك ببسالة ، كما أحكمت مدفعيتهم إطلاق النار ولو أنها كانت سيئة الحظ ، غير أن مالم يفهم له الضباط الإنجليز كنهما ؛ هو نوايا القيادة العليا التركية » .

هذه أنباء الحملة العثمانية الأولى على قنال السويس كما روتها المصادر البريطانية وفيها شهادة ببسالة العثمانيين ودقة إحكامهم فى الرماية . كما فيها شهادة بحسن بلاء الجنود المصريين .

* * *

أما المصادر العثمانية ، فإن قائد الحملة أحمد جمال باشا قال فى مذكراته[1] ما نصه :

« فبعد أن أتممت الحملة تعبئتها فى القلب والجناحين فى المنطقة المشار إليها آنفا – على بعد ١١ ك . م من قناة السويس – قررت أن يقوم القلب فى ليلة ٢ فبراير بهجمة فجائية على الإسماعيلية . ويتظاهر الجناح الأيمن فى الوقت نفسه بمهاجمة القنطرة ، بينما الجناح الأيسر يواصل زحفه على السويس . فلا يكاد الظلام يخيم حتى تشرع الجنود المخصصة للهجوم فى الدنو من النقطة التى تقرر عبور القناة منها . ثم يبدأ العبور نفسه بعد الشروق بقليل . وكنت قد وقفت كل اهتمامى على مفاجأة الإنجليز علما منى بأن فى استطاعتى الاستيلاء على خط القناة فى جنوبى الإسماعيلية بقوة لاتزيد على خمسة أو ستة آلاف جندى فى الهجمة الأولى ريثما أجىء بالفرقة العاشرة . وإذ ذاك يصبح لدى ١٢٠٠٠ بندقية معسكرة فى خنادقها فى الضفة الغربية . ثم نستولى على الإسماعيلية لو أمكن ونحتفظ بها إلى أربعة أو خمسة أيام فى داخل استحكامات متجهة غربا وشمالا وجنوبا » .

« وقد علقت أكبر الآمال وقتئذ على مساعدة الوطنيين المصريين الذين رجوت أن يثوروا كلهم أجمعون بعد أن يشجعهم سقوط الإسماعيلية فى أيدى الجيش التركى ، فتتحرر مصر فى مدة وجيزة » .

« وكانت جيوش العدو حسب المعلومات التى وصلت إلى مركز قيادة الجيش ٣٥٠٠٠ جندى على طول خط القناة ، عدا مائة وخمسين ألفا أو يزيدون موزعين فى طول مصر وعرضها . ولما كان حشد كل تلك الجنود فى جميع

(١) مذكرات جمال باشا ص ٢٦٥ طبع القاهرة سنة ١٩٢٣ .

نقط القناة ـ وهو خط ينيف طوله على ٢٠٠ ك . م ـ أمرا عسيرا ؛ قد كان إدراك الفوز ممكنا بشرط أن نستطيع عبور القناة بغتة فى نقط لايتوقع العدو عبورنا منها » .

« وعلى كل حال رأيت القيام بذلك الهجوم كمجرد مظاهرة لإفهام الإنجليز أننا لاننوى الوقوف موقف المتفرج على ضفة القناة و إلا لما جال بخاطرى بصفة جدية أننا بمثل هذه الموارد الضئيلة التى لم تكن تسمح ببقائنا سوى أربعة أيام ، أى بقوة لم تزد على ١٤٠٠٠ بندقية و بعض بطاريات مدافع جبلية و بطارية هاوتزر واحدة ، وعشرة جسور متحركة للعبور ـ كنا نستطيع عبور القناة التى يزيد عرضها على مائة متر فى وجه جيش متنقل و باسل كالجيش الإنجليزى مزود بكل المعدات الحديثة من البوارج الضخمة إلى القطارات المسلحة » .

« ولكن قضى سوء الحظ أن يتأخر قليلا وصول القوة المهاجمة إلى ضفة القناة . فإن الشمس كانت فى الأفق عندما مددنا الجسور المتحركة وشرعنا فى العبور ، أىأن أعمالنا أصبحت ظاهرة للإنجليز . فهبوا للدفاع عن نقطة العبور مباشرة بما كانت نتيجته تحطيم الجسور عدا ثلاثة. و إذ استحال إرسال النجدات إلى أبطالنا الستمائة الذين تمكنوا من العبور فى الهجمة الأولى ؛ اعتقلهم الإنجليز وعندئذ وقع الترامى الشديد بالمدافع بين البوارج الإنجليزية والطرادات المساعدة والقطارات المسلحة ، و بين المدافع الخفيفة التى مع الحملة . فلم ينتصف النهار حتى دمرت بطارية الهاوتزر طرادا انجليزيا ، وفى ذلك الوقت وصلت الكتيبتان التابعتان للفرقة العاشرة إلىميدان القتال ، فوضعتهما تحت تصرف الضابط القائم بأعمال الفيلق الثامن » .

وفى النهاية تبينت حقيقة الحالة . فإن الحملة قد نجحت فى مهمتها بالقيام بهذه المظاهرة . وقد رسخ فى ذهنى أن ليس ثمة أمل فى عبور القناة واحتلال الإسماعيلية. وكان مركز القيادة على تل يبعد من ضفة القناة الشرقية بثلاثة كيلو مترات ونصف . وكنت أشرف على الموقعة بنفسى ، فتمكنت طيارات العدو من تعرف مكانها ، فما لبثت بوارجه أن أمطرتها بالقنابل من عيار ٧ ، ٦ بوصة » .

ثم قال « والحقيقة أننا عندما فكرنا فى هذه الحملة الأولى لم يكن أحد منا يعرف كيفية عبور القناة . فكان من الضرورى جداً القيام باستطلاع مثل هذا . فما هى الموارد المادية المطلوبة لعبور القناة التى كانت فى مأمن من كل جهة من الهجوم ؟ أكان من المستطاع العبور على مرأى من بوارج العدو ؟ ألم يكن فى الاستطاعة ردم القناة ؟ حتى لو فشل العبور واستحال علينا الاستيلاء على نقطة فى القناة ، ألا يمكننا أن نعسكر فى الشاطىء الشرقى ، ومن ثم نعرقل مرور البوارج الحربية ونضايق البواخر التجارية بالمدافع البعيدة المرمى ؟ وهلا تكون خير خطة نتبعها ؟ كل هذه كانت مسائل حربية بأن تقتضى الإجابة عليها القيام باستطلاع بقوة عسكرية .

وهاك بيان بخسائرنا فى الحملة الأولى :

	قتلى	جرحى	متغيبون
ضباط	١٤	١٥	١٥
جنود	١٧٨	٣٦٦	٧١٢

ولكن الإنجليز قدروا خسائرنا فى بلاغاتهم الرسمية كما يأتى :

قتلى	جرحى	أسرى
١٠٠٠	٢٠٠٠	٦٥٠

وليس هناك فرق كبير بين أقوال المصادر البريطانية عن هذه الحملة ، و بين ما كتبه أحمد جمال .

وجمال باشا يقول إن هذه الحملة لم تكن سوى مظاهرة حربية فقط ، ولم يكن هدفها غزو مصر . ومن هنا نعلم أن العثمانيين غرروا بالخديو عباس حينما ألقوا فى روعه أنهم قادرون بهذه الحملة على تحرير مصر من نير الاحتلال الإنجليزى . ومن المضحك أنهم قبل تسيير هذه الحملة كانوا يتناقشون مع الخديو وحاشيته فى أبسط الأمور التى تتعلق بالحكم الداخلى فى مصر . فقد بلغهم أن الخديو(١) ينوى تعيين محمد فريد رئيسا للمجلس النيابى ، فاعترضوا على ذلك اعتراضاً شديداً . وانتقدوا الخديو فى لبسه كسوة عسكرية مخالفة لما هو معروف فى الجيش العثمانى . فرد عليهم قائلا : ليس فى وجود كسوة عسكرية مخالفة لما هو معروف فى الجيش العثمانى مايستوجب النقد ، لأن لباس الجيش البافارى مخالف للباس الجيش البروسى . فإذا كان رجال الدولة يريدون أن تكون مصر بالنسبة لتركيا مثل بافاريا بالنسبة لبروسيا ، فلا محظور حينئذ من أن تكون للجيش المصرى كسوة مخصوصة .

وهذه أمثلة بسيطة لما كان يجرى بين الخديو ورجال الحكومة العثمانية ، كأن مصر خلصت لهم ، وكأنهم دخلوها فعلا وطردوا الإنجليز منها ! !

* * *

دعوة الرديف المصرى :

وفى ٢٠ يناير سنة ١٩١٦ طلبت إنجلترا من مصر استدعاء الرديف المصرى ،

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا ج ٢ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ مطبعة بنك مصر سنة ١٩٣٦ .

فقدم وزير الحربية إسماعيل سرى باشا مذكرة إلى مجلس الوزراء للموافقة على ذلك . وهذا نصها :

« أتشرف بأن أعرض على مسامع المجلس أن قائد عموم القوة البريطانية بمصر يشتغل الآن بتنظيم فروع للتشهيلات اللازمة للدفاع عن القنال . وهو كما يعلم حضرات أعضاء المجلس قد نال معاونة كثير من فروع الإدارة المدنية المصرية . وقد أخبرنى أن الضرورات التى يدعو إليها تنظيم تلك التشهيلات تجعله فى حاجة إلى طائفة من العمال متعودين على النظام العسكرى مثل الذين يمكن الحصول عليهم من أفراد رديف الجيش » .

« وقد استشرت حضرة صاحب المعالى السردار فى هذا الموضوع ، وبعد تمام الاتفاق بينى وبينه على ذلك أتشرف بأن أرفع إلى دولتكم برفق هذه المذكرة مشروع قرار وزارى بطلب أفراد الرديف للخدمة العسكرية ، ماعدا الموجودين منهم فى خدمة الحكومة ، راجياً عرض هذا المشروع على مجلس الوزراء .

وزير الحربية

إمضاء : إسماعيل سرى

وقد صادق مجلس الوزراء فورا على هذا القرار ، ولم تشأ الحكومة البريطانية أن تتحمل نفقات هذا الرديف وتكاليفه ، فاضطرت الحكومة المصرية إلى تحمل هذا العبء الثقيل دون أن تفكر فى المساومة على حقوق البلاد ، ودون أن تحاول أن تحصل على أى كسب للشعب .

ولا يخفى أن إنجلترا خالفت وعدها الذى قطعته على نفسها والذى قدمته

بمحض رغبتها ؛ ذلك الوعد الذى تعهدت فيه صراحة بأنها ستتولى الدفاع عن مصر بجيوشها وأموالها دون أن تطلب من المصريين أن يشتركوا معها فى شىء من ذلك ، احتراما لإحساساتهم، وعلما منها بما يربطهم مع سلطان تركيا من الروابط الدينية . ولكن الإنجليز لم يروا أى عيب فى أن يخلفوا وعدهم . وليت انجلترا اكتفت بتجنيد المصريين للدفاع عن مصر فقط ، بل إنها أرسلتهم إلى ميادين القتال فى فرنسا وشبه جزيرة غاليبولى والعراق والسودان وفلسطين .

(ب) الحملة العثمانية الثانية سنة ١٩١٦ :

أعد العثمانيون فى سنة ١٩١٦ جيشاً آخر لمهاجمة مصر قوامه عشرة آلاف جندى . وكان الإنجليز قد مهدوا الطرق فى صحراء سينا ، وحفروا الآبار ، وأقاموا مخازن المؤن والذخيرة . فأراد الأتراك أن يعرقلوا هذه الأعمال فقاموا بسلسلة من الغارات الجوية على مراكز الحشود البريطانية وعلى العمال المصريين الذين يعملون فى تمهيد الطرق وفى النقل . وأغاروا على بورسعيد عدة مرات ، وعلى الإسماعيلية والسويس وغيرها . وكان الإنجليز من ناحيتهم يهاجمون معسكرات أعدائهم .

وفى ٢٣ من أبريل نشب قتال بين الطرفين فى صحراء سينا ، فتمكن الضابط الألمانى فون كريس من أسر كتيبة فرسان إنجليزية مع قائدها وضباطها .

وكان الإنجليز قد عززوا استحكاماتهم إلى درجة كبيرة تجاه القنطرة ، وسندوا جناحهم الأيمن إلى البحر المتوسط ، وأرسلوا قوة مختلطة ومعها السلاح الكافى إلى قطية وآبار رمانة .

وقد هجمت قوة عثمانية فى الصباح الباكر من يوم ٢٣ أبريل على المخفر

الإنجليزى فى الدويدار فانهزمت ، إلا أن العثمانيين وسعوا نطاق هجومهم على قطية فأصابوا الإنجليز بخسائر فادحة فى الأموال والأرواح . واستمرت معركة قطية مدة يومين .

وفى ١٨ مايو سنة ١٩١٦ قام الإنجليز بضرب العريش من البحر والجو . فانتقم العثمانيون لذلك بغارات جوية عنيفة على بورسعيد تسبب عنها ضرر كبير فى الأرواح والممتلكات .

وفى ٢٦ مايو سنة ١٩١٦ نشرت الصحف المصرية لأول مرة الإرشادات التى يجب على الأهالى اتباعها عند وقوع غارة جوية ، وهى لا تختلف عما نعرفه الآن .

وفى أول يونيو سنة ١٩١٦ تم للإنجليز طرد العثمانيين من بئر سليمان . وفى ١٧ منه اشتد القتال بالطائرات بين الطرفين . وفى ٧ — ٨ — ١٩١٦ هجم العثمانيون فى ميدان قطية فى منتصف ليل الخميس — الجمعة ٣ — ٤ من أغسطس ، وانتهى هذا الهجوم بعد معارك عنيفة بانهزام العثمانيين وانسحابهم . وقد وصفت هذه المعركة بأنها أعظم معركة دارت بين الطرفين فى ميدان سينا بعد معركة ٣ فبراير سنة ١٩١٥ التى انتهت بانهزام العثمانيين .

ثم أخذ الإنجليز يقتفون أثر العدو شرقا . وساعدهم فى مهمتهم الشريف حسين بن على الذى أعلن الحرب على الدولة العلية . وأخذت الجاسوسية الإنجليزية تلعب دورها . وسرعان ما وصل الإنجليز إلى حدود فلسطين ، إذ سقطت العريش فى أيديهم فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩١٦ وانسحب العثمانيون إلى خان يونس وهى على حدود مصر فلسطين . وأمام غزة وقف الإنجليز ثمانية أشهر ، من مارس إلى أكتوبر سنة ١٩١٧ .

وفى ١٣ - ١١ - ١٩١٦ تعرضت مدينة القاهرة لغارة جوية . وقد صدر بلاغ رسمى جاء فيه « قذفت طيارة من طيارات العدو اليوم صباحا تسعة قنابل على أحياء التجارة والسكن فى القاهرة . ولم يسقط من هذه القنابل التسع على على المبانى سوى قنبلة واحدة ألقيت على مطحنة مهجورة . ولذلك كان العطل المادى الذى أصاب المبانى يسيراً لا يكاد يستحق الذكر » .

« أما سائر القنابل فسقطت فى الشوارع وقتلت أربعة عشر نفسا ، منهم أربعة من الأوربيين . وبين القتلى ثلاث نساء ، منهن أوربيتان . وبلغ عدد الذين جرحوا خمسة وعشرين نفساً ، منهم أربعة من الأوربيين . وقتل أيضاً أربعة أفراس . وبين القتلى جندى بريطانى » .

وقد مات حوالى عشرة من الجرحى متأثرين بجراحاتهم .

ومن هذا التاريخ أى ١٣ - ١١ - ١٩١٦ صدر أمر بإطفاء الأنوار ليلا فى مدينة القاهرة . فخيم الظلام على العاصمة لأول مرة . أما المدن الواقعة على الشواطىء ومنطقة القنال فقد صدرت الأوامر بإطفاء الأنوار فيها منذ بدء الحرب . وظلت القاهرة تعيش لياليها فى الظلام إلى يوم ٩ مارس سنة ١٩١٧ .

نقل الجنرال مكسويل :

وفى شهر مارس سنة ١٩١٦ تقرر نقل الجنرال مكسويل من مصر . وقد أقام له المنافقون من المصريين حفلة شاى بمناسبة سفره فى فندق الكونتننتال وكان الذى اقترح إقامة هذه الحفلة واجتهد فى إعدادها هو الشيخ عبد الرحيم الدمرداش . وتحدد موعدها بعد ظهر يوم ٢٠ مارس وكانت برياسة الأمير أحمد فؤاد (الملك فيما بعد) الذى ألقى كلمة باللغة الفرنسية ، وهذه ترجمتها .

يا عزيزى الجنرال :

إنى لفخور ومسرور بأن أكون اليوم هنا لسان حال الأمة التى تراها مجتمعة حولك لتودعك وداعا طيباً بالنيابة عن طبقات الشعب الذى جاء ليقول لك : إلى الملتقى إن شاء الله .

وألقى الشيخ عبد الرحيم الدمرداش الكلمة الآتية :

ليس هذا الجمع الكبير المحتشد حولك فى هذا المكان هو وحده المحتفل بك ، بل الأمة المصرية كلها من بلاد خط الاستواء إلى الإسكندرية ، إلى السلوم ، إلى العريش . وجميع من تظلهم سماء مصر يقدمون لك احتراماتهم و يودعونك من صميم أفئدتهم ، و يبدون الأسف الشديد لفراقك . ويطلبون من الله أن يجعل أيامك كلها سعيدة مقرونة بالنجاح والفلاح .

وقال الشيخ محمد المهدى خطيب جامع عزبان .

اتفق الهلال والصليب على محبتك أيها القائد الأعظم . وهـذا الاجتماع العظيم على اختلاف الأجناس والملل والنحل دليل واضح و برهان ساطع على صدق ما أقول . وهذا العالم المحتشد يشهد بذلك ، وأن مصر أعظم البلدان الآن لأنها عرفت قدر الرجل العظيم الذى خدمها ثلاثين عاما بالإخلاص والجد والنشاط ، فسر بسلامة الله .

فرد عليهم الجنرال مكسويل بخطابة جاء فيها :

إن مهمتى فى هذه البلاد كانت مهمة شاقة جداً ، ولـكن سهلها على ما لقيته من إخلاصكم وولائـكم ومساعدتـكم منـــذ وكل إلى أن أمنع امتداد الحرب الطاحنة إلى هذا البلد الأمين ، وأن أقضى على الدسائس والتأثيرات التى كان

يقصد منها تحويل الشعب المصرى عن ولائه . فنجحت فى ذلك والحمد لله . وكانت حالة مصر فريدة على نوع من هـذا القبيل . فاستتب الأمن والسكون والسلام فيها ، بينما نيران الحرب الطاحنة تضطرم وتزيد استعارا ولهيبا فى جميع أنحاء العالم .

إن سنة ١٩١٥ كانت سنة خسارة عليكم ، ولكن إن شاء الله لن تعود تلك الخسارة ، وتكون السنة الحالية بداية الخير والبركات المتوالية على هـذا القطر وأهله .

أيها المصريون :

ليس عليكم الآن إلا أن تخلدوا إلى السكينة ، وتخلصوا لأنفسكم و بلادكم وسلطانكم لتنالوا السعادة ، وترتعوا فى بحبوحة الهناء .

* * *

وقد خلفه السير ارشيبالد مرى الذى بقى إلى شهر يوليو سنة ١٩١٧ حيث نقل وحل محله الجنرال اللنبى .

٢ — الحرب فى الصحراء الغربية

ارتكب الطليان فى غزوهم لطرابلس كثيرا من الفظائع . فكان من الطبيعى أن يسعى الطرابلسيون إلى الخلاص من نيرهم . فما كادت إيطاليا تدخل الحرب إلى جانب الإنجليز حتى اتصل العثمانيون بالسنوسيين وأمدوهم عن طريق الغواصات بالسلاح والمال وبعض الضباط . فشرع السيد أحمد السنوسى الكبير بجمع الرجال و يعدهم للقتال .

وفى شهر ديسمبر سنة ١٩١٥ بدأ يهاجم القطر المصرى . وكانت انجلترا على علم باتجاهات السنوسيين ، فاستعدتِ لصد هجومهم .

استولى السنوسيون على السلوم فى أوائل ديسمبر ، وكذلك على جميع المراكز الواقعة شرقا . وفى خلال هذه المدة هاجمت الغواصات الألمانية بعض ناقلات الجنود البريطانية بالقرب من مرسى مطروح فأغرقتها فسبح الجنود حتى وصلوا إلى الشاطىء ووقعوا فى أسر السنوسيين .

وفى يوم ١١ ديسمبر دار قتال بين الطرفين غربى مرسى مطروح . وفى ١٣ منه هجم السنوسيون على مواقع الإنجليز فى تلك الجهة هجوما شديدا واستولوا على مرسى مطروح : ولكن الإنجليز عادوا فطردوهم منها وانحصر القتال فى هذه المنطقة بين الكر والفر ، وأخذ الفريقان يتبادلان المواقع .

ودارت معارك بين الطرفين فى ٢٤ يناير سنة ١٩١٦ ، وفى ٢٣ منه ، وفى ٢٧ فبراير . وقد صدر فى القاهرة بلاغ رسمى جاء فيه :

« هاجم الجنرال لوكن صباح ٢٦ - ٢ - ١٩١٦ قوة للأعداء كانت معسكرة بقيادة نورى وجعفر فى أجاجية الواقعة فى الجنوب الشرقى من سيدى رانى ، وعلى مسيرة ١٥ ميلا منها تقريبا . ودار بينهما قتال . وقد تشتت قوة الأعداء وفرت منقسمة جماعات ، وخيالتنا فى أثرها تتعقبها » .

وكان الإنجليز قد استعانوا بالبوارج الحربية وأنزلوا جنودهم وأسلحتهم خلف مراكز السنوسيين ، وبذلك استطاعوا أن يكتسحوا هذه المراكز حتى السلوم التى تمكنوا من احتلالها . وقد كتب أحد الضباط الإنجليز من مرسى

مطروح يصف المعارك التى نشبت بين الطرفين فى ٢١ يناير سنة ١٩١٦ ، وملخص ما كتب[1] :

كانت قوة السنوسيين تتكون من ألفى جندى نظامى بالملابس العسكرية وأربعة آلاف من العرب معهم البنادق والمدافع . وقد عسكرت هذه القوة على بعد خمسة وعشرين ميلا من مطروح قاعدة الإنجليز .

أما القوة البريطانية فكانت تتألف من أربعة آلاف جندى من المشاة وخمسمائة خيال ، و بطارية ، ومدفعين . ثم انضمت إليها أورطة من خيرة جنود جنوب أفريقيا .

وكان الفصل شتاء ، وقد هطلت أمطار غزيرة فسببت صعوبات كبيرة للإنجليز إذ تعذر عليهم تسيير السيارات المدرعة وسيارات النقل .

وعند فجر يوم ٢٢ يناير سنة ١٩١٦ نهض الإنجليز كرجل واحد وسار المشاة فى الأوحال بصعوبة . وفى منتصف الساعة العاشرة وصلت القوات البريطانية إلى مسافة قريبة من معسكر السنوسيين وأطلقت عليهم نيرانها . فلم يتزعزع السنوسيون ولم يجبنوا ، بل نهضوا مسرعين وأطلقوا مدافعهم الرشاشة على الخيالة الإنجليز . فامتد السيخ وألفوا خط نار ، وعاونهم جنود جنوب أفريقيا . وقد تكبد الإنجليز خسائر فادحة . وقام السنوسيون بحركة نحو اليمين فأعقبتها حركة أخرى قام بها الإنجليز فامتدوا على ميمنة السيخ يساعدهم النيوزيلانديون . وقد بلغت نيران المدفعية الإنجليزية الحد الأقصى من الشدة غير أن السنوسيين ظلوا ثابتين فى مراكزهم يقاتلون بشجاعة وعزيمة وصبر على الرغم من الخسائر التى لحقتهم .

---

(١) وادى النيل فى ٧ — ٣ — ١٩١٦ .

وظل القتال أربع ساعات وكان الطرفان يتنازعان التفوق فى نيران البنادق حتى اشتد لهيبها لدرجة لاتضاهيها إلا شدة أيام غاليبولى . فقد كان مع السنوسيين من المدافع الرشاشة مثل مامع الانجليز . وكانوا يطلقونها بإحكام وبسالة .

وأصدر الجنرال ووكر أمره إلى الجناحين بالتقدم لمحاولة القيام بحركة تطويقية، غير أن كثرة السنوسيين مكنتهم من ملاقاة كل امتداد فى خطة الإنجليز بمثله . والواقع أنهم حاولوا أن يقهروا الإنجليز بنفس طريقتهم حتى أحدق الخطر بميمنة الإنجليز ؛ وكاد شيء منه يحدق بالميسرة ، غير أن ثلاثة كتائب من النيوزيلانديين أعاقت زحف ستمائة جندى سنوسى معهم ثلاثة مدافع سريعة الطلقات .

واتخذت طلائع الخيالة البريطانية خطة حربية جديدة . وذلك أن جزءاً من الخيالة كان قد اضطر إلى التقهقر أمام نيران العدو الحامية . فشجع هذا السنوسيين الذين كانوا أمامهم فتقدموا جموعا ، فلقيهم الإنجليز بنيران ثلاثة مدافع كانوا قد وضعوها فى مركز جديد واستمر دوى الرصاص بشدة لاتنقطع ، وازدادت خسائر الإنجليز زيادة كبرى ، غير أن قنابلهم كانت تفتح الثغرات فى خط النار السنوسى .

وكان على مؤخرة السنوسيين سراب جعل تصويب المرمى من أشق الأمور وأصعبها ، ولكن الإنجليز تسلطوا على نيران العدو . وبدأت الجنود الإنجليزية تتقدم نحو الشمال الغربى فقاوم السنوسيون ساعة من الزمن قبل أن يتقهقروا .

وكان كل شيء عند السنوسيين يدل على النظام الأوربى ، ويشعر بأن الإشراف كان للألمان والترك .

وبعد معركة أجاجية التى دارت رحاها فى ٢٧ فبراير سنة ١٩١٦ رسم الإنجليز

خطة كانت تقضى بأن تتجمع قواتهم فى مضيق حلفاية ، وتشد بوارجهم أزرها بمدافعها من خليج السلوم .

وقد بلغت القوات البريطانية مضيق حلفاية فى يوم ١٤ مارس سنة ١٩١٦ ثم تقدمت إلى أن بلغت غربى السلوم . ودارت معارك بين الطرفين فى تلك الجهات ، منها معركة بئر وار ، ومعركة مصيمد . وقد انتهى الأمر بانهزام السنوسيين .

* * *

وفى ٣١ – ٥ – ١٩١٦ قررت انجلترا إعلان الأحكام العرفية فى منطقة أطلقت عليها اسم « المحافظة العسكرية » تمتد من البحر المتوسط شمالا إلى حدود السودان الإنجليزى المصرى جنوبا ، ومن غرب النيل شرقا إلى شرق طرابلس الغرب غربا .

وفى ٢٢ – ٨ – ١٩١٦ وقعت إنجلترا و إيطاليا اتفاقا يقضى بقيامهما بالعمل المشترك ضد السنوسيين .

* * *

كان هدف السنوسيين غزو مصر عن طريق ساحل البحر المتوسط ، ولما أخفقوا فى ذلك رسموا خطة لغزو مصر عن طريق الواحات . فاحتلوا فى شهرى فبراير ومارس سنة ١٩١٦ واحة البحرية وفرافرة والداخلة . وأصبح الخطر محدقا بالفيوم . فاجتهد الإنجليز فى دفع الخطر السنوسى القادم من تلك الجهات والذى كان يهدد وادى النيل .

وكان الإنجليز كما سبق أن ذكرنا قد عقدوا اتفاقا مع الطليان للقيام بعمل

مشترك ضد السنوسيين . وفى شهر مايو سنة ١٩١٦ نزلت قوة إيطالية فى « مرسيا » واحتلت البردية ، فضيقت السبل على القوة الصغيرة التى حشدها السنوسيون فى الواحات ، وسدت فى وجهها الطرق إلى وادى النيل . فتعذر عليهم الحصول على شىء من المئونة ، واستعان الإنجليز بالسيارات المسلحة والجمال للقيام على الحراسة والاستطلاع و إقفال خط الحدود البالغ طوله مائة ميل . فكان الحصر أكبر عامل فى إضعاف قوة السنوسيين .

واستعد الإنجليز لطرد السنوسيين من الواحات . فالواحة البحرية وهى على مائة ميل جنوب غرب الفيوم ، والبالغ طولها ٦٢ ميلا وعرضها ٣٠ ميلا ؛ قد لزم لطرد العدو منها مد سكة حديد ضيقة طولها ٨٥ ميلا ، وخط حصار للدفاع عنها يمتد من سمالوط على النيل إلى طرف الآكام الرملية التى تسد الطريق إلا على جمال النقل . وقد كانت الصعوبة عظيمة حتى أن المصروف من الماء للجنود المشتغلين ببناء مخافر الحصار فى حدودها الغربية لم يتجاوز جالونا من الماء كل يوم .

وحدث الزحف الأخير على الواحات فى شهر أكتوبر سنة ١٩١٦ ، وكان السنوسيون قد انهزموا كما مربنا انهزاما حاسما فى الإقليم الساحلى ، وازدادوا ضعفا بتعاظم قوات الإنجليز . وجاء انهزام العثمانيين فى بئر رمانة فأثر فى قوتهم المعنوية تأثيرا سيئا . فجلوا عن الواحة الداخلة ، وتقهقروا شمالا عن طريق فرافرة واحتشدوا فى الواحة البحرية . وحالما وصل خبر انسحابهم من واحة الخارجة جدت فى أثرهم قوة انجليزية تحملها السيارات الخفيفة ، ومعها بعض المدافع السريعة الطلقات . وتتبعها كوكبة من الهجانة الأسترالية ، وسارت خلفها عربات محملة بالمؤن والذخائر والبترول والماء . فاستطاع الإنجليز أن يحتلوا الواحة البحرية فى ٢١ من أكتوبر سنة ١٩١٦ .

وفى ٢٢ فبراير سنة ١٩١٧ هجم السنوسيون على « ملفا » الواقعة بين سيوة وجغبوب على مسير ١٣٠ ميلا من السلوم ، فقابلهم الإنجليز وشتتوا شملهم . و بذلك انتهت الحرب فى الصحراء الغربية .

وقد كتب الجنرال مكسويل تقريرا يتعلق بالدفاع عن مصر ابتداء من نوفمبر سنة ١٩١٤ إلى ١٩ مارس سنة ١٩١٦ وهو تاريخ نقله . فتكلم عن الحرب فى الصحراء الغربية مبتدئا بسرد الجهود التى بذلت لحفظ السلم مع الشيخ أحمد السنوسى رغم التحدى الشديد من جانب السنوسيين . وأشار إلى نفوذ الشيخ الدينى الكبير على العرب الذين يقطنون الطرف الغربى من الأرض المنزرعة ويبلغ عددهم فى مديرية البحيرة ١٢٠,٠٠٠ شخص .

وقال « بدأت العلائم فى مايو سنة ١٩١٥ تدل على أن الضغط المتزايد المستمر الذى يقوم به الحزب التركى فى طرابلس بزعامة نورى أخ أنور باشا لأبيه ـ أخذ يثمر »

« وظل شعور السنوسى بالكراهية لانجلترا غير محسوس كثيرا مدة من الزمن حتى بعد نشوب الحرب بين إيطاليا وتركيا سنة ١٩١٤ ، و بقيت علاقات السنوسى مع مصر ودية ، ولم تتغير إلى أن وفد جعفر على طرابلس فى أبريل سنة ١٩١٥ ومعه كمية كبرى من الأسلحة والأموال . وجعفر هذا تركى متجرمن . وظهر فى تلك الفترة أن النفوذ الألمانى أخذ يسيطر »

« وقع أول حادث له شىء من الأهمية فى أغسطس سنة ١٩١٥ ، إذ أطلقت النار غدرا على غواصتين بريطانيتين لجأتا من الطقس إلى شاطىء برقة . ولكن السنوسى اعتذر وذكر أن النار أطلقت دون علم بأن الغواصتين بريطانيتان . إلا أنه عند أسر بحارة الباخرتين تاره وموريته ـ نسفتهما الغواصات الألمانية فى

٦ ٧ نوفمبر سنة ١٩١٥ — عند نزولهما إلى البر ؛ كان يتظاهر بتجاهل الوقائع فقط »

« ومع هذا فقد بذل مجهود لحفظ السلام . وأرسل السيد محمد الإدريسى — مندوب السنوسى فى مصر — لفتح باب مفاوضات القصد منها أن يتخلص السنوسى من مستشاريه الأتراك مقابل مبلغ من المال . ولكن جنود المحافظة — يعنى الجنود النظاميين — هاجموا ميناءى السلوم و برانى قبل الإقرار على أمر ، فسبق السيف »

« وتقرر سحب مخافر الحدود الغربية إلى مرسى مطروح ، وحشد قوة كافية هناك للقيام بما تقتضيه الحالة دون إبطاء »

فانجلترا أرادت أن تشترى سكوت السنوسى بمبلغ من المال ، وهى التى منعت عن المجاهدين الطرابلسيين كل مساعدة مصرية فى خلال الغزو الإيطالى . و إنه لموقف مشرف أن يرفض السنوسى هذا العرض .

٣ — الحرب فى دارفور

كان على بن دينار سلطان دارفور محباً لبلاده ، حاقداً على الاستعماريين الإنجليزى والفرنسى ، ولكن لم تكن لديه القوة الكافية لمناهضتهما . وكانت فرنسا تحتل إقليم واداى المتاخم لدارفور ، فاتهمت سلطان دارفور بمساعدة قبائل واداى وتشجيعها على مقاومة الغزو الفرنسى . فقد كانت هذه القبائل تدخل فى معارك مع الفرنسيين ، فإذا انهزمت انسحبت إلى داخل دارفور ، ثم لا تلبث أن تعود إلى واداى وتشتبك مع الفرنسيين مرة أخرى . وقد سمحت إنجلترا للقوات الفرنسية أن تتبع قبائل واداى إلى داخل أراضى دارفور ، بل وأذنت لها أن تنشىء مراكز عسكرية هناك .

وفى خلال الحرب اتهمت انجلترا سلطان دارفور بأنه يقدم المساعدات للسنوسيين ، وأنه يحاول إثارة القبائل السودانية ضد الإنجليز .

وقد نشر الإنجليز فى القاهرة بلاغاً رسمياً بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٩١٦ تحت عنوان « سلوك على بن دينار » جاء فيه :

« سلك سلطان دارفور — على بن دينار — مسلكاً مغايراً لرضى الحكومة ، وتحدى سلطتها جهاراً . فاستصوبت أن تسير الجنود على حدود دارفور ، وتجمع قوة من أسلحة الجيش المصرى المختلفة فى النهود بقيادة اللفتننت ب . ف . كلى قائد الفرسان السوارى المصريين » .

« وفى ١٦ مارس سنة ١٩١٦ غادر قسم من هذه القوة النهود وسار غرباً فاحتل فى ٢٠ منه آبار أم شنقة . وفى ٢١ منه جبل الحلة وهما واقعان فى دارفور بجوار الحدود » .

« ولم تصادف هذه القوة مقاومة إلا فى جبل الحلة ، ولكنها كانت مقاومة ضعيفة فتغلبت عليها وشتت شمل المقاومين بلا صعوبة ، ومن غير أن تلحق بجنودنا خسارة ما » .

« وقد وصلت القوة كلها إلى جبل الحلة . ولهذا الموضع أهمية كبرى لأنه واقع بين النهود فى مديرية كردفان بالسودان ، والفاشر — عاصمة دارفور — فباحتلاله أدركنا الغرض الأول من التقدم وهو حماية موارد الماء التى يستقى منها أهل البلاد بين النهود والفاشر من كل سوء واعتداء » .

وفى ٩ — ٤ — ١٩١٦ احتلت كتيبة مصرية آبار الأبيض بعد أن تقهقرت قوة دارفور الكبرى نحو الفاشر .

وفى ٢٩ منه تمكنت القوات المصرية بقيادة الأميرالاى كلى من احتلال الفاشر عاصمة دارفور .

وفى ١٧ مايو استولى الإنجليز على قرية « مليت » دون مقاومة . وفى ٢١ منه استأنفوا الزحف على عاصمة دارفور وقضوا الليل كله مشتبكين فى قتال مع قوات دارفور . وفى ٢٢ منه دارت معركة شديدة بين الطرفين .

وفى ١-٨-١٩١٦ أعلن حاكم السودان خلع سلطان دارفور وضم مملكته إلى السودان . وفى ١٢-١١-١٩١٦ نشرت الصحف المصرية نبأ مقتل على بن دينار .

* * *

هذه هى المعارك التى خاضها الإنجليز على حدود مصر والسودان والتى ساهم فيها المصريون مساهمة فعالة ، وضحوا بأرواحهم وأموالهم وأقواتهم فى سبيل إحراز النصر . ولاشك مطلقاً فى أنه لولا مساعدة المصريين فى هذا القتال لدارت الدائرة على الإنجليز ولانتهى بهم الأمر إلى الهزيمة . وقد شهد بقيمة المساعدات المصرية السير أرشيبالد مرى القائد العام للقوات البريطانية فى شرق البحر المتوسط فى تقريره إلى وزارة الحربية البريطانية ، فقال :

« وقد قدم الجيش المصرى ما يلزم من مدافع وطوبجية لتسليح قطارين مدرعين لاستخدامهما فى الدفاع عن القطر المصرى . وألحق بسلاح هجانة البكانير صف من الهجانة المكسيم وفصيلة مسلحة من إدارة الأشغال العسكرية ، واشتركوا فى الوقائع الحربية ضد السنوسى . واشترك أيضاً فى هذه الوقائع ١ جى بلوك من السوارى المصرية . وفى صد الهجوم على السويس فى شهر فبراير سنة ١٩١٥ ، وكان بلوكان من ٢ جى أورطة بيادة مصرية حامية للطور . واشتركوا فى الوقائع التى حصلت بعد هذا التاريخ فى تلك المقاطعة . وقد كانت حامية أبى زنيمة من الجيش المصرى لبضعة أشهر فى خلال سنة ١٩١٥ » .

« وطلبت ٢٢٣٠ جندياً من رديف الجيش المصرى ، واستخدموا فى الأشغال الخاصة بالدفاع عن القنال . وقد تطوع عدد من الضباط أرباب المعاشات والمستودعين للخدمة مع الرديف ، وأدوا خدمات ذات قيمة » .

« وفى شهر مايو سنة ١٩١٥ جمعت أورطة من الأشغال مؤلفة من ستة بلوكات للخدمة فى الدردنيل . واستلم قيادة الأورطة والبلوكات ضباط انجليز فى خدمة الجيش المصرى . وقد قامت هذه الأورطة مدة الأربعة الأشهر التى خدمتها فى شبه الجزيرة بخدمات فائقة تحت وابل مستمر من القنابل » .

وعلاوة على هذه المساعدة من الأفراد فقد وضع الجيش المصرى بشكل أريحية تحت تصرف قوات البحر الأبيض المتوسط والقطر المصرى معدات للراحة ومهمات حربية وجمال للحملة » .

« وأخص بالذكر تقديم مستشفى الجيش بالقاهرة بكامل معداته إلى فرقة النيوزيلانديين ، وشراء ماينوف عن ١٤٠٠٠ جمل بين ركوب وحملة من السودان مع ما كلف جمعها والكشف عليها طبيا وترحيلها من المشقة والزمن لمستخدمى المديريات . وتقديم ٧٧٤٠٠٠ قنبلة لقوات البحر الأبيض المتوسط . وتسليم القاطرات والفولاذ للدفاع عن القنال . وصنع مقادير عظيمة من المهمات والملبوسات وتصليحها فى إدارة المهمات »

فلهذه الأسباب وجميع الخدمات الأخرى التى أنجزت علاوة على الأشغال الاعتيادية ؛ فالجيش المصرى وحكومة السودان يستحقان فائق التشكرات الودية »

وخطب السير [١] ونجت باشا فى نادى الضباط المصريين بالخرطوم ، فقال

(١) المقطم فى ١٩١٦/١١/٤

منوها بأعمال القوات المصرية فى غزو دارفور

« وإنى بمزيد الفخر والإعجاب أذكر الخدمة العظيمة التى قام بها الجيش المصرى وضباطه البواسل فى دارفور ، فإنها ستبقى مسطورة بحروف من التبر فى تاريخ الجيش المصرى ، مما يجعلنى ويجعل كل واحد منكم يتيه عجبا وسرورا عند ذكر هذه الحملة العجيبة . فقد تغلب جيش الحكومة بمنتهى الصبر على الصعاب العظيمة التى كانت تعترض له من رمل وقلة مياه وصعوبات أخرى جبلية ، لكن الجيش الباسل تغلب على كل هذه الصعاب بصبره العجيب وشجاعته المشهورة »

* * *

هذا ماقام به الجيش المصرى . أما مااغتصبه الإنجليز من الأهالى فحدث عنه ولا حرج . فقد سخروا رجال الإدارة لجمع الأموال من الناس باسم التبرعات لجمعية الصليب الأحمر . فدعا محافظ القاهرة العظماء والأعيان للاجتماع فى دار الأوبرا السلطانية فى ٢٦/١٠/١٩١٥ وحضر هذا الاجتماع نائب الملك السير هنرى مكماهون . ولم يتخلف أحد من الكبراء عن الحضور . وكان سعد زغلول ضمن من لبوا الدعوة . وخطب المحافظ داعيا الحاضرين للتبرع .

وقد بلغت جملة التبرعات أو على الأصح الأموال المغتصبة من جميع جهات القطر حسب بيان نائب الملك الذى أذاعه أواخر سنة ١٩١٥ مبلغ ١١٢,٥٣٥ جنيها وكانت مديرية المنوفية أعظم المديريات التى اغتصبت منها الأموال إذ بلغت ١٤٥٩٤ جنيها وأقلها مديرية أسوان إذ بلغ المتحصل منها ٤٩٧ جنيها ، ٧٠٥ مليما وأقل المحافظات محافظة القنال وقد بلغ ما جمع منها ٢٠١ جنيه

وقد عبر الشاعر عبد الحفيظ الأسيوطى عن سخط الشعب وامتعاضه

لاغتصاب أمواله باسم التبرع ، فقال من قصيدة :

ولو اننا اسطعنا بذلنا جهدنا　　بالإكتتاب وعنه لانتأخر
العين تبصر والأكف قصيرة　　فإذا تأخرنا فإنا نعذر
من لم يجد ياقوم قوت عياله　　أولى بعطف المنصفين وأجدر
فلنا مواقف فى السخاء عديدة　　عن سبقنا فى المكرمات تعبر
إن يرتفع للقطن سعر ينظروا　　منا أكفا بالمواهب تمطر

وزاد من مصائب الشعب وآلامه أن المتبرعين لم يمنحوا إيصالات عن تبرعاتهم . فاستطاع العمد ورجال الإدارة أن يختلسوا من هذه الأموال ماشاءوا . أى أن الأموال التى جمعت فعلا كانت أكثر مما أعلن عنه نائب الملك .

وبلغت جملة التبرعات فى سنة ١٩١٦ (٥٨٢١٠) جنيها

* * *

ومنذ قيام الحرب أخذت السلطات العسكرية تشترى مايلزمها من مأكل وملبس ومواد البناء كالخشب والحديد والإسمنت والزجاج من السوق المحلية . فأدى ذلك مع انقطاع الوارد إلى ارتفاع الأسعار . وفى نوفمبر سنة ١٩١٧ أصدر القائد العام للقوات البريطانية الأمر الآتى :

حيث إن الظروف تقضى أن تستعمل السلطات العسكرية حقها فى طلب ماتحتاج إليه من المؤن اللازمة للحملة فى القطر المصرى .

وحيث إن بعض هذه المواد داخل فى التسعيرة الرسمية

فنحن نعلن أن السلطة العسكرية المختصة ستوقع على أوامر الطلب اللازمة وتحولها إلى جناب مراقب مصلحة التموين المعين بمقتضى المرسوم الصادر

فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩١٧ ومن ينتدبهم حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء لهذا الغرض من موظفى الحكومة المحلية ، كما نعلن أن كل المواد الداخلة فى التسعيرة تسرى عليها الأسعار الرسمية »

وحددوا سعرا بخسا للغلال . وانتشر رجال الإدارة يفتشون فى منازل الفلاحين ويستولون على محاصيلهم نظير هذا الثمن الضئيل . وكانت البلاغات تقدم من بعض الفلاحين ضد بعضهم على سبيل النكاية . ومن يثبت أنه خبأ محصوله يقدم فورا للمحاكمة وكذلك استولوا على الجمال والحمير بأسعار تافهة . وتبرعت حكومة حسين رشدى بمبلغ خمسين ألف جنيه لشراء حمير للسلطة العسكرية . وقد حدث أن عمدة أسيوط خبأ سبعة جمال وحمارا فبلغ بعض أعدائه ضده ، فقبض عليه وقدم للمحاكمة العسكرية . ونظرا لكبر سنه اكتفت المحكمة بفصله من وظيفته مع مصادرة المضبوطات .

الباب الثانى

الحالة الاجتماعية

كان للضيق الشديد الذى صحب قيام الحرب أثره فى ازدياد عدد الجرائم وتنوعها بدرجة لم تعرف من قبل . ففى المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية كثرت جرائم غش المصوغات . وظهرت فى تلك الأيام فئة المحتالين الذين يبيعون للناس نحاساً مطلياً بالذهب على أنه من الذهب الخالص .

وكثرت جرائم تزييف النقود الفضية والورقية من الأجانب والوطنيين . وضبطت آلات التزييف فى عدد من المدن والقرى . وكذلك جرائم خطف النقود والملابس والمواد الغذائية من المارة أو من المحلات التجارية بحجة جوع الأطفال والأهل.

وابتكر اللصوص حيلا جديدة لمزاولة نشاطهم الغير مشروع . فيخطف اللص طفلا و يسخره فى تمهيد سبيله إلى التلصص، وذلك بأن يرسله أمامه ويأمره بدخول الدور ، ثم يدخل وراءه ، فإن وجد شيئاً ولم يره أهل الدار أخذه وأخذ الطفل وانصرف . و إن فطن له أحد السكان اعتذر بأنه دخل وراء طفله الصغير ليخرجه .

وقد ظهرت فى العاصمة عصابة كبرى من الأجانب والوطنيين ، وارتكبت عدداً من جرائم السلب والاحتيال وكسر المحلات التجارية وتحطيم الخزائن وسرقة ما بها من الأموال .

بدأت هذه العصابة عملها بأن باعت لعدد من التجار صفائح مملوءة ماء على

أنه كحول . وأخذت تدخل منازل الأعيان بحجة أنهم مندوبون من قبل شركتى الغاز والماء للكشف على المواسير والأسلاك . ثم ينتهزون الفرصة و ينتزعون الأسلاك والمواسير والحنفيات ويهربون . وظهرت فى حى الدرب الأحمر عصابة خطيرة ترأسها امرأة ، تخصصت فى فتح الخزائن بمفاتيح مصطنعة .

على أن حى شبرا كان له النصيب(١) الأوفر فى عدد جرائم السرقة . فقد تألفت بهذا الحى عصابة من الرجال والنساء . وكان أفراد هذه العصابة يتسللون إلى البيوت وقت اشتداد الهجير أو تحت جنح الظلام ، ويحملون كل ما تصل إليه أيديهم من متاع وأثاث . وكان الأهالى يخشون بأس هذه العصابة حتى إنهم كانوا يرون أفرادها يدخلون البيوت فى رابعة النهار ويسرقون ما يسرقون ، ولا يستطيع أحد من الأهالى أن يبلغ عنهم . وقد استمرأت هـذه العصابة مرعى شرها ، ووجدت فى ناحية الأمير شيخو وقصورة الشوام بنوع خاص المكان الأمين لها فبغت وطغت .

ولما كثرت السرقات من المنازل أصدر حكمدار القاهرة منشورا إلى ضباط الشرطة بالأقسام ينبه عليهم فيه بالمرور على المنازل ليلا و إلقاء القبض(٢) على كل بواب يجدون معه أصدقاءه ومعارفه .

واشترك فى السرقات بعض المتعلمين لأول مرة فى تاريخ البلاد ، منهم المحامى وأرباب الشهادات من المتعطلين و بعض الموظفين . وكثر الاحتيال باسم السلطة العسكرية .

أما فى الأرياف فظهرت عصابات لقطع الطريق ، وأخرى للإغارة على القرى

---

(١) الوطن فى ٧-٦-١٩١٥ . (٢) الوطن فى ١٤-١٠-١٩١٥ .

ونهب المواشى والحلى والمحصولات الزراعية . وقتلوا بعض الأغنياء فى منازلهم جهاراً نهارا ، ونهبوا ما وجدوا فى دورهم من أموال . وكان بعض أفراد هذه العصابات يرتدون ملابس العساكر والخفراء والضباط ، ويقتلون كل من يبلغ عنهم أو يكشف أسرارهم . واشتهر من بين أفراد هذه العصابات شقيان خطيران أحدهما فى البحيرة ، والآخر فى المنيا . وفرضوا الإتاوات على الناس ، وأكثروا من خطف الرجال والأولاد ، وردهم نظير مبالغ معينة كان الأهالى يدفعونها وهم صاغرون .

وتألفت عصابة كبرى من اللصوص لسرقة الحمير . وانتشرت فى مديرية[1] البحيرة والمديريات المجاورة ، وجعلت لها نقطا وفروعاً وأعضاء ومشايخ وخفراء ومراقبين وجواسيس يترقبون أيام الأسواق . ولكل نفر منهم بلاد خاصة بهم . وقد اتخذ رجال هذه العصابة كل التدابير اللازمة لعدم الوقوع فى أيدى الحكومة، من ذلك أنهم قبل أن يقدموا على سرقة الحمار يكتبون مبايعة صورية مذكوراً بها أوصاف الحمار وموقعاً عليها من أحدهم ، حتى إذا ما ضبط السارق أبرز المبايعة التى بيده وإذا سئل البائع عن أصل ملكيته أبرز مبايعة أخرى ذات تاريخ مختلف وهلم جرا . فيثبت للمحقق صدق قولهم من تعدد المبايعات ، ويخلصون بهذه الحيلة .

أما إذا لم يضبط المسروق فإنهم يخفونه مدة من الزمن حتى ييأس صاحبه من العثور عليه ، ويعدل عن البحث عنه . وحينئذ يأخذون الحمير بعد أن يكونوا غيروا ألوانها .

ولهم حيل غريبة فى السرقة ، فبعد أن يحلوا الحمار يركبون عليه امرأة منهم

---

(١) الوطن فى ٢٤-٤-١٩١٧ .

فى شكل المخدرات ، ويضعون أمامها قالبا من الطوب ملفوفا ببعض الملابس على هيئة طفل صغير حتى لا يشتبه فيها من يراها .

وكثرت حوادث الاعتداء على السكك الحديدية بمحاولة فك القضبان وإزالة الفلنكات ، أو وضع الأحجار الضخمة على القضبان والسطو على القطارات وسرقة البضائع منها . وقد حدث عند مركز أبى قرقاص أن قطعت السكة الحديد وبلغ طول القضبان المخلوعة أكثر من أربعة وعشرين مترا .

فاضطر رجال الإدارة إلى التشدد فى مكافحة هذه الجرائم ، إلا أنهم كانوا أحيانا يلقون القبض على الأبرياء ويحاولون إلصاق التهم بهم ، ويجرون عليهم أنواعا مختلفة من التعذيب لينتزعوا منهم اعترافات بأنهم هم الذين ارتكبوا هذه الجرائم . وكان ملاحظ نقطة القوصية التابعة لمركز منفلوط قد اشتط مع بعض الأبرياء وقسا عليهم . فانتهز أحدهم الفرصة وفاجأه فى الظلام وأطلق عليه النار فقتله . ولم يذكر الملاحظ اسم المعتدى عليه لأنه لم يستطع أن يتعرف على أحد بسبب الظلام . فما كان من مأمور مركز منفلوط إلا أن دعا بعض المراقبين والمشتبه فيهم وأوعز إليهم أن يتهموا شخصا اسمه سعيد رشوان . وكان هذا متغيبا فى القاهرة ، فطلب المأمور من أحد أصدقاء سعيد أن يرسل إليه برقية يدعوه فيها للحضور فورا . ولما توجه سعيد إلى بلدته أخبره أهله بأنه مطلوب فى مركز منفلوط . وحينما ذهب إلى هناك أمر المأمور بوضعه فى القيود وحبسه فى سجن المركز معلقا بين السقف والأرض . فاضطر إلى الاعتراف بجريمة لم يرتكبها . وقد نظرت هذه القضية أمام محكمة الجنايات ، ومما سجلته حيثيات الحكم :

« وحيث إنه واضح من أوراق هذه الدعوى ومجموع التحقيقات والمرافعة التى حصلت فيها سواء من جهة النيابة أو المحاماة أن لا سبب لقتل المجنى عليه

سوى ما كان يستعمله من القسوة والشدة مع من كانت تلصق به تهمة الاشتباه وما كان يصادف بعض الأعيان وذوى الوجاهة ممن يرجونه فى تلطيف حدته من الإعراض عنهم ، وعدم المبالاة بشفاعتهم » .

« وحيث إنه ثابت من تلك التحقيقات أيضا أن المجنى عليه قد تجاوز فى شدته وإغضابه حد الاعتدال ، وأنه كان لايقتصر على استعمال الطرق المعروفة من الحبس والضرب أو التكتيف ، بل تعدى ذلك إلى استعمال طريقة لم يسمع أنها خطرت بفكر أحد فى العصور الغابرة ؛ وهى إلزامه بعض من تلصق بهم تهمة الاشتباه أمامه من فلاحين وأعراب بأن يتلاطموا على وجوههم بأيديهم مبالغة فى الإذلال والتحقير ، وتشبيها بالنسوة عند طروء أشد المصائب والخطوب » .

«وحيث إنه ثابت أن المتهم لم يكن هو الوحيد فى هذه المعاملة ، وأن شهرة المجنى عليه فى استعمال الشدة والغلظة مع الكثيرين من الأهالى والأعيان قد بلغت إلى درجة التحدث بها فى الطرق العمومية على لسان الكثيرين » .

« حكمت المحكمة ببراءة سعيد رشوان مما نسب إليه » .

* * *

ووقعت فى مديرية البحيرة حوادث تعذيب شنيعة جرت على أنواع مختلفة . فضرب البعض وجلد ، وجوع البعض ، وربط البعض جماعات جماعات بحبل وكان يمسك بقيادهم فارس من رجال الشرطة ويكرههم على العدو مسافات بعيدة ليلحقوا بجواده من إيتاى البارود إلى دمنهور ، ومن دمنهور إلى بلاد أخرى . وظهرت آثار الضرب على أرجل نحو أربعين رجلا من المعذبين ومات أحدهم من شدة التعذيب . وكان محمد باشا محمود (صاحب المقام الرفيع فيما بعد)

مديرا للبحيرة . فلما سمع السلطان حسين بما حدث فى تلك المديرية أمر بإحالة مديرها إلى المعاش فورا .

وقد نظرت محكمة جنايات إسكندرية هـــــذه القضية وحكمت بحبس الحكمدار سنتين مع الشغل ، وعلى مأمور مركز إيتاى البارود بالحبس البسيط لمدة ثلاثة شهور ، وعلى بعض ضباط الشرطة بالحبس لمدة سنة . مع الاحتفاظ بالحق المدنى لأهل أحـد الذين ماتوا تحت التعذيب . وصدر قرار بفصل وكيل نيابة المركز المذكور لأنه شاهد تعذيب المتهمين وسكت عنه .

ولما عين للبحيرة مدير جديد نظم الشاعر أحمـد محرم قصيدة فى نصحه وإرشاده ، نشرتها صحيفة الأفـكار فى ١٧ — ٩ — ١٩١٧ تحت عنوان « الشعر يؤدى وظيفته » وقدمت لها بقولها :

« للشعر وظيفة عامة ، وعليه واجب قومى هو ولا ريب فى الدرجة الأولى والمحل الأعلى من الواجبات الأدبية . وقد عرفنا وعرف الجميع إلى الآن لغة الشعر الحديث فى مخاطبة رجال الحـكم وذوى المناصب . ورأينا كما رأوا كيف يؤدى الشاعر وظيفة المغنى أو الزامر أو الضارب على الطبل فى مثل هذا الموقف الـكبير، موقف خادم الأمة الأدبى أمام خادمها الرسمى . وقد خرج الشعر للمرة الأولى عن تلك الدائرة المعيبة . فرأينا كيف يجب أن يكون الشاعر . وهذه صورة الواقعة نجلوها للقراء فى هذه القصيدة التى يوجه بها ناظمها إلى سعادة مدير البحيرة . وهى فى عموم معناها موجهة إلى كل ذى عمل فى إدارة البلاد وسياسة شئونها » .

بعـــد التحية والـكرامة كلها　　أقضى النصيحة ، والنصيحة أوجب

العـــدل إن طلب المتوج جنده　　جنــــد أعز وقوة لا تغلب

والرفق من خير الأزمة للفتى فيما يروض من الأمور ويركب
فإذا مددت يديك فى أسبابه جذب الجبال إليك فيما يجذب
وإذا طلبت رضى النفوس بغيره جمح الإباء بهـا وعز المطلب
فاحكم بما شرع الكتاب ولاتخف خصما يلوم ولا صديقا يعتب
وأقم لنا الحق المعطل واستقم إن مال أزور فى الحكومة أنكب
الحق حصن يتقيه ويحتمى فيه الأشم من الحصون الأهيب
إن البلاد لها حقوق جمة مالامرىء منها ولا لك مهرب
الحكم أيام تمر حثيثة والذكر ينشر والمؤرخ يكتب
فاذكر سبيلك إن تصرم عهده وجرى لغايته الزمان القلب
وأرى موازين الرجال كثيرة وأجل ما وزن الرجال المنصب
فاختر لنفسك أى صوب تنتحى وبأى مضطرب تسير وتذهب
ما الحكم يرفع للبلاد بناءها كالحكم يهدم ركنها ويخرب
الله ينظر من جوانب عرشه ما أنت فاعله وطه يرقب
تلك النصيحة صاغها لك شاعر حر المقالة صادق لا يكذب
الحق مذهبه ومطلب نفسه يرضى له فى الكاتبين ويغضب
لا يتقى بطش الظلوم إذا انتحى وأشاح فى هبواته يتوثب
ما المرء يرزأ فى الحياة ويبتلى كالشعب يرزأ بالولاة وينكب

وهذا شعر جيد تغذيه عاطفة نبيلة وإحساس صادق وروح إنسانية طيبة .

* * *

ومن أنواع القسوة التى لجأ إليها رجال الشرطة فى ذلك الوقت ما عرف بالتغريب . وهو أن ينفوا الرجل إلى أبعد مركز عن وطنه الأصلى فى المديرية . ويبالغون فى إذلاله بعرضه على المراكز التى يمر بها بحجة أنه ربما يكون متهما فى حادثة من الحوادث التى لا يزال الفاعل فيها مجهولا . وكانوا يقودون الناس لهذا الغرض مكبلين بالحديد .

وكانت الحكومة قد كلفت العمد بوضع كشوف بأسماء المراقبين والمشتبه فى أمرهم الذين يقضى عليهم بالمبيت فى دوار العمدة لاتقاء أخطارهم ، ودفع شرهم عن الأهالى ولم تدقق المديريات والمراكز فيما يدرجه العمد من الأسماء التى ترد فى كشوف المشبوهين . فكان عدم التدقيق هذا سببا فى إدراج أسماء قوم من الأعيان الذين بادروا برفع الدعاوى ضد العمد ، وأدخلوا الحكومة متضامنة معهم فى المسئولية . وكانت النتيجة أن صدرت أحكام فى صالح المدعين .

وقد سافر المستشار البريطانى لوزارة الداخلية إلى بعض المديريات ووقف خطيبا فكان مما قاله :

إن إلغاء الامتيازات من البلاد ، ومساواة الأجانب بالوطنيين أمام القانون مما يقتضى أن يكون ضباط البوليس من أصحاب الأخلاق الحميدة كالحلم والأدب . وأن يكونوا بعيدين عن الغرور والغطرسة والخيلاء الكاذبة : فإن السلطة لا تستلزم الفظاظة وسوء الأدب .

* * *

وانتشرت جريمة الرشوة بين الموظفين وخاصة رجال الشرطة انتشارا واسع المدى . وساعدت على ذلك ظروف الحرب . فكانت هناك قضايا المخالفة التسعيرة

وأخرى لغش المأكولات ، وغيرها لتجاوز مواعيد السهر فى الحانات . كما كانت هناك اعتقالات سياسية ، واعتقالات للمشتبه فى أمرهم حفظا للأمن ، والمتجرين فى الأعراض . وكان كثير من رجال الشرطة يتغاضون عن هذه الجرائم مقابل رشوة يتقاضونها من الناس . بل إنهم كانوا يخلقون التهم و يلفقون القضايا للأبرياء ، ثم يتركونهم نظير مبلغ من المال .

واشترك فى ارتكاب جريمة الرشوة من كبار رجال الشرطة : جورج فلبيدس مأمور ضبط القاهرة ، ومحمود محمد أحمد مساعدى حكمدار العاصمة . ومحمد شكيب مأمور شرطة عابدين . وأحمد كامل مأمور شرطة مصر القديمة .

وكانت الحكومة قد قررت إلقاء القبض على المخنثين المنتشرين بحى الأزبكية لأنهم يجمعون بين التخنث واللصوصية ، ووضعتهم فى معتقل بحلمية الزيتون . فعرض فلبيدس على بعض معارف إبراهيم الغربى زعيم طائفة المخنثين فى ذلك الوقت أن يدفعوا له ثلاثمائة جنيه ليفرج عنه ، وكان محمود محمد مساعد الحكمدار هو الرسول بين فلبيدس وأصدقاء الغربى . كما أثبت التحقيق أن فلبيدس أخذ مبالغ مختلفة من عدد من ضباط الشرطة نظير ترقيتهم أو تثبيتهم . ومن المعتقلين السياسيين للإفراج عنهم . ومن المتجرين فى الأعراض لإطلاق سراحهم .

وقد جاء فى قرار [1] النيابة المتعلق بإحالة فلبيدس وزوجته أسماء وصراسلته محمد محمد حربى إلى محكمة الجنايات فى دور يونيو سنة ١٩١٦ اتهام فلبيدس بأنه أخذ من المرأة أليفة بنت عبد الله رشوة قدرها ٣٠٠ جنيه لنفسه لأداء عمل من

---

(١) الوطن فى ١٨ — ٦ — ١٩١٧ .

أعمال وظيفته ، وهو التوصية بالإفراج عن إبراهيم الغربى المعتقل بالحلمية باعتبار أنه من المأبونين » .

وحينما انعقدت الجلسة استمعت المحكمة إلى شهادة أليفة بنت عبد الله التى قررت أنها دعيت إلى قسم الجمالية وقابلت مساعد الحكمدار محمود محمد الذى قال لها « أنتم ما تعرفوش الغربى إلا وهو جوه ، وساتعرفوش وهو بره ! ! أنا والله زعلت علشانه » .

وقال لها محمد شكيب مأمور شرطة عابدين «الغربى اللى فلوسه سوست راح عين شمس !! انزلى واطلعى بمائتين جنيه . أوعى تعملى زى الغربى لما طلبوا منه فلوس راح مارجعش » .

وانتهى الأمر بأن دفعت لفلبيدس مبلغ ٣٠٠ جنيه ولكن الحكمدار لم يوافق على الإفراج عن المذكور . فاضطر فلبيدس إلى رد المبلغ إلى صاحبته بعد أن أخذ منه عشرين جنيها . وكانت أسماء زوجته مشتركة معه فى هذه العملية .

واستمعت المحكمة لشهادة إبراهيم الغربى فقال إن الشرطة اعتقلت ابنه أولا ، ثم طلب منه مأمور عابدين أن يدفع مبلغاً من المال ، فلما امتنع هدده بالاعتقال ، وأخيراً اعتقلوه .

وقال محمود محمد مساعد الحكمدار فى شهادته « إن فلبيدس تكلم معه عن الغربى وقال إنه رجل طيب ، وأنا أريد عمل طريقة لإخراجه . وقال إن الست — يعنى زوجة فلبيدس — طلبت منى أن أتصل بأصدقاء الغربى ليدفعوا لها نقودا حتى يمكن أن يفرج عنه » .

وقال محمد شكيب : إن الغربى هو الذى ذهب إليه وعرض عليه رشوة

ليحصل له على أمر بأن يعود إلى ارتداء ملابس النساء والتزين بالحلى . فوعده خيرا ، وقال إنه سيكلم له محمود محمد . فإذا لم تكن المسألة بأمر الحكمدار فهو يحصل له على المرغوب .

* * *

وقد أوردت هنا موضوع الغربى لأنه مثل واضح على ما وصلت إليه أخلاق بعض الناس فى ظل الاحتلال البريطانى ، وفى فترة الحرب الأولى بالذات من سفالة وانحطاط .

وأما بخصوص المعتقلين السياسيين فإننا نسوق مثلا على ذلك ماحدث لأحد المحامين وهو عبد الوهاب البرعى ، فإنه اعتقل بحجة أنه كان من العناصر العاملة فى الحزب الوطنى . وبعد أن أمضى فى المعتقل نحو شهر دعاه فلبيدس وطلب منه مائتى جنيه . فلما دفعها كلفه بأن يكتب تقريرا ضد الحزب الوطنى ، فكتب مجموعة أكاذيب ، ومع ذلك فقد أشر عليها فلبيدس بخط يده : هذه حقائق تاريخية ثابتة نعرفها !! ثم أطلق سراحه .

وجورج فلبيدس من أصل يونانى ، ولكنه تجنس بالجنسية المصرية ، وتعين فى سلك موظفى الحكومة مترجما ، وذلك لمعرفته باللغة الإنجليزية . ومازال يتملق الإنجليز حتى عين رئيسا للمكتب السياسى الذى أنشىء عقب مقتل بطرس غالى . وقد نكل بشباب الحزب الوطنى ، ولفق التهم للأبرياء ، وطغى وبغى ، وألحق الضرر والأذى بالعناصر الوطنية وبخاصة فى خلال هذه الحرب .

لذلك اهتم الجمهور بمحاكمته فكان يتتبع ما ينشر فى الصحف من أنبائها ،

وتزاحم الناس على حضور جلساتها تزاحماً شديداً . ولما صدر الحكم بحبسه خمسة أعوام مع الشغل وحبس زوجته أسماء سنة ، صفق الجمهور وهتف من أعماق قلبه هتافاً عاليا متواصلا بحياة العدالة . وصاح فى وجه المتهم : إلى الجحيم يامجرم، إلى السجن يا جورج . وبصقوا فى وجهه . واستمرت هذه الهتافات المدوية حتى قادته الشرطة إلى السجن وكان يبكى بكاء مرا هو وزوجته وبناته . ونظم الشعراء والزجالون القصائد الطويلة معربين عن فرحة الأمة بالقصاص العادل الذى وقع على هذا الطاغية . قال محمود[1] بيرم التونسى :

داء أقام بجسم مصر طويلا ... الله يأسو داءها ليزولا
يا قوم لا تخشوا وباء إنه ... يأتى خفيفاً تارة وثقيلا
يا من تخص جسومنا بوقاية ... أنسيت أخلاقا لنا وعقولا ؟
كدنا نعد إذا الأكف تصافحت ... تسليمها للإرتشاء دليلا
يا رشوة شدت حبال خبائها ... عرضا على ظهر البلاد وطولا
عشقتك أيدى الفاضلين وما شفت ... رغم الرقيب من الوصال غليلا
والبعض عف عن النضار وإنما ... قد عف لما أن رآه قليلا
يا صاحب السجن الحصين جداره ... أعزز على بأن ترى مغلولا
أى النساء دعت عليك فصادفت ... دعواتها عند الإله قبولا ؟
ما الإرتشاء وظيفة رسمية ... حتى تنيب لذاك عنك وكيلا
ركبى دنيلا للإدانة أنها ... حملت لك المظروف والمنديلا
ما إن سمعنا بالمئين رخيصة ... حتى رأينا ذلك التحصيلا
قد كان فى الإنجيل ردع زاجر ... لو كنت ممن يقرأ الإنجيلا

(١) الأفكار فى ١٩١٧/٧/٢ بإمضاء م . ب . ت .

لـكن فى القانون مالم يحتمل ... وأبيك تأويلا ولا تبديلا
شهدت عدول العالمين بأنهم ... ما شاهدوا لك فى الأنام عديلا
السجن غمدك لا تـكن مستنكفا ... فلقد عهدتك أبترا مسـلولا
كل عيشه والبس فديتك خيشه ... واشرب هنيئًا ماءه المعسولا
والقيظ حل وأنت جسمك ناعم ... وأرى المـكان هنا عليك ظليلا
لو أطلقوك أكلت إهراماتها ... وشربت كى تروى الغليل النيلا
هذا الدواء هو الصلاح لدائنا ... أو لا عرفنا للصلاح سبيلا
يا معشر الراشين كفوا إننى ... لإخالـكم ترشـون عزرائيلا

وقال(١) :

إن كنت عونا للرسالة تفصح ... فاستفتح الباب الذى لا يفتح
أبلغ تحيتنا السجين وقـل له ... بالخير إذ تمسى وساعة تصبح
ذقت الحديد ؟ وذقت شدة بأسه ؟ ... وعلمت كيف تئن منه وترزح ؟
صف لى السجون وصف خفاياها وصف ... قـبر الحياة أضيق أم مفسح
لله منزلة القضاء وعـدله ... وقيـام نائبنا يفيض ويشرح
للآنسات قد اعتقلت رجالهم ... كبد يذوب أسى وعين تسفح
والناس سـائمة تقود رقابها ... ولـكان ينقصك المدى والمذبح
هذا اعتقلت وذا فككت وإن تشأ ... هـذا تثبته وذاك ترشح
خمس وما خمس وخمس مثلها ... شيئًا وصفقتك الأصح الأربح
هذى الفضيحة فـذة فى بابها ... والله يستر من يشاء ويفضح
وهو القدير على خلاص معاشر ... أسروا ، فـكم نفس عليهم تترح

(١) الأهالى فى ٢/٧/١٩١٧ بإمضاء م . ب . ت .

المرة الأولى أتيتك مازحاً ... لكن هذى لست فيها أمزح
إن كان فى الدنيا امرؤ بك شامت ... أنا لا مراء الشامت المتبجح
أو يفرح اليوم الأنام فإننى ... والله أول من يسر ويفرح

وقال آخر[1] :

أى «جورج» صبرا وقد نابتك نائبة ... إنى عهدتك فى الأهوال صنديدا
مالى رأيتك يوم الحكم مضطرباً ... وفهت باللوم تعزيراً وتنديدا
قد عشت ما عشت لم تأبه لمحتكم ... واليوم ليس قضاء الله مردودا

ألخ . . .

وتقرر فصل محمود محمد مساعد الحكمدار ، ومحمد شكيب مأمور عابدين بعد أن قدما للمحاكمة التأديبية .

وفى ١٩ /١٩١٧/٧ صدر عفو سلطانى عن زوجة فلبيدس بحجة أنها مريضة وعلى وشك الوضع .

* * *

وراجت فى هذا العصر تجارة الرقيق الأبيض رواجاً عظيما . وهذه التجارة كانت معروفة من قبل الحرب . وذلك لأن خلو البلاد من قانون ينظم الهجرة إليها فتح الأبواب لدخول الراغبين فى الكسب الحرام من تجار الأعراض .

وكان عدد الفتيات والصبية[2] الذين جيء بهم إلى ثغر الإسكندرية ٧٥٩ فى عام

(١) الأهالى فى ١٩١٧/٧/٢ .
(٢) الأهالى فى ١٩١١/٧/٦ .

١٩٠٨ ، فبلغوا ١٢٠٣ فى عام ١٩٠٩ ، ووصل عددهم ٢٢٦٣ فى عام ١٩١٠ ، منهم ١٤٧٧ فتاة ، ٨٧٦ صبيا من اليونانيين ، ٣٦٧ فتاة ، ٤٢ صبياً من الموارنة السوريين ، ٣٣ فتاة ، ٤٢ صبيا من الأرمن . و ٧٣ فتاة من المسلمات و ٤٤ فتاة من النمساويات و ١٩ من الإيطاليات وست فتيات انجليزيات .

هذا ما كان بالإسكندرية سنة ١٩١٠ فكم كان عددهم فى مدينة القاهرة فى ذلك التاريخ ؟ وكم بلغ عددهم فى خلال الحرب الأولى ؟

لما دخلت الدولة العثمانية الحرب طردت الألوف من اليهود الروسيين والأرمن والمسيحيين ، لأن ميولهم كانت مع أعدائها . فتجمعت هذه الألوف فى الموانى ثم انتقلت إلى مصر واستقرت فى القاهرة والإسكندرية . وقد اشتغل عدد كبير منهم بالدعارة فى المساكن المفروشة التى كانوا يؤجرونها للضباط والجنود الإنجليز والتى يطلق عليها اسم « بنسيونات » .

ثم إن الضائقة المالية التى استحكمت حلقاتها فى خلال هذه الحرب وانقطاع الأعمال وارتفاع الأسعار وتعذر أسباب المعيشة على الطبقات الفقيرة ؛ دفع عدداً كبيراً إلى الاتجار فى أعراض زوجاتهم وبناتهم . وساعد على انتشار هذه التجارة كثرة وجود الجنود وهم من الشبان ، وإقبالهم على إشباع شهواتهم ، وإغراء الفقراء بالمال والتبغ والمأكولات .

وقد تألفت فى المدن الكبرى عصابات كانت تخطف الفتيات القاصرات وترغمهن على مزاولة الدعارة . فكثر اختفاء الفتيات اللواتى تتراوح أعمارهن بين السادسة عشرة والثامنة عشرة . ولم تكن نشرة[1] إدارية تخلو من الإعلان عن بعض الفتيات المتغيبات .

---

(١) الوطن فى ١٧/٥/١٩١٥

وفى شهر مايو سنة ١٩١٥ تمكنت خمس فتيات من الإفلات من أيدى إحدى العصابات والعودة إلى منازلهن . وكانت عودتهن مفتاحا فى يد رجال الشرطة إذ شرعوا فى التحقيق معهن . وقد اتضح أن هناك امرأة اسمها «أم مجلانة» كونت عصابة للاتجار فى الأعراض . وأن أفراد هذه العصابة اختطفوا عددا كبيراً من الفتيات من الأرياف ومن المدن الكبرى . وكانوا يبيعون تلك الفتيات للعايقات والقوادين . كما ثبت من التحقيق أن الفقر دفع بعض الناس إلى بيع بناتهم .

وقد حكمت محكمة جنايات القاهرة على أفراد هذه العصابة بالحبس مدداً تتراوح بين ثلاثة أعوام وثمانية .

وقبضت الشرطة على عصابة أخرى فى إمبابة ، وكان الجيش الهندى معسكراً هناك . وزعيمة هذه العصابة امرأه اسمها أم شلبانة . وعصابة أخرى فى بورسعيد تتزعمها امرأة اسمها نرجس .

وكشف التحقيق أن امرأة واحدة من القوادات[1] تملك مائة وخمسين بيتا ، ومائة فدان . ولديها عدد كبير من الأعوان والخدم . وبينها وبين بيوت الدعارة فى القاهرة وبور سعيد والفيوم وغيرها اتفاقات تجارية تتعهد بمقتضاها أن تورد لتلك البيوت أجمل الفتيات . وتحرر بالقيمة وثيقة إذا لم يتم الدفع فوراً .

وكان للمتاجرين بأعراض القاصرات حراس يتولون حماية بيوت الدعارة ومراقبة رجال الشرطة إذا جاءوا للبحث والتفتيش . وكان الحارس يجلس فى هيئة بائع متجول . فإذا شاهد رجال الشرطة صاح بعبارة كما ينادى البائع على

---

(١) وادى النيل فى ١٩١٥/٦/١٤

سلامته . ويتناقلها بعده غيره من الرجال المعينين للحراسة فى طول الشارع . فإذا بلغ رجال الشرطة المنزل الذى يقصدونه لم يجدوا شيئاً ، إذ يكون كل أثر للقاصرات قد اختفى تماماً .

* * *

وكان رجال الشرطة قد تلقوا بلاغات بأن العائمات التى بإزاء شاطىء النيل بناحية إمبابة تتخذ بؤراً للفساد . وأن عائمة إسماعيل صدقى وزير الأوقاف إذ ذاك تجرى فيها أمور غير شريفة . فهاجم رجال الشرطة عائمته ووجدوه فى حالة مريبة مع سيدة شابة [redacted] . وقيل إنهما وجدا عاريين . فأخذت الشرطة السيدة إلى قسم عابدين ، وبعد أن حققت معها أطلقت سراحها . وقد انتحرت بأن تناولت السم . ومن العجيب أن إسماعيل صدقى مشى مع المشيعين فى موكب جنازتها .

ولما علم السلطان حسين بهذه الحادثة دعا إليه إسماعيل صدقى ونهره وقال له : أنت داعر ، وقيل ركله ، وأمر بإقالته . وقد كتبت صحيفة الوطن فى ١٣ـ٥ـ١٩١٥ مقالا طويلا تحت عنوان «على الخاصة إصلاح أخلاق العامة» جاء فيه «فإذا أراد الذين يغارون على هذا البلد خيرا بهذا البلد ، وارتقاء لأهله من طريق الأخلاق فليجتهدوا أن يكونوا هم أولا مثالا كاملا فى كل شىء . وإذا قدر على أحدهم أن يسقط من حالق مجده الأدبى فلينزو عن الناس لعله يكفر عن سقطته بمثل هذا الانزواء والاعتزال »

« وأخيرا نقول إنه مادام فى الخاصة أفراد يتدلون إلى النقائص والموبقات بلا حياء ، ويشابهون السوقة فى فعالهم ؛ فإن إصلاح أخلاق العامة يصبح عملا

عسيرا ، وأمرا شاقا . وربما كان نصيبه الفشل ، أعاذنا الله من تمادى بعض خاصتنا فى الطرق المعوجة »

وتحت هذا المقال مباشرة ، ودون أى فاصل نشرت الصحيفة المذكورة نبأ اجتماع مجلس الوزراء بكامل هيئته ما عدا وزير الأوقاف .

وقد بعث إسماعيل صدقى باستقالته إلى رئيس مجلس الوزراء ، ومما جاء فيها : شعرت بأننى لست حائزا للرعاية التى تعودتها من عظمة السلطان . وقد حاولت نفى المزاعم الفاسدة التى وجهت إلى فلم أمكن من ذلك . لهذا رأيت مع الأسف أن أقدم لدولتكم استقالتى من منصب وزارة الأوقاف .

وقد أثير هذا الموضوع(١) فى محاكمة فلبيدس الذى شهد إسماعيل صدقى ضده . فقال للمحكمة إنه علم أن فلبيدس قدم تقديرا ضده ، وأنكر حادثة وجوده مع السيدة التى ماتت .

وقال محمود محمد مساعد الحكمدار حينما سئل عن حادث الذهبية الخاصة بإسماعيل صدقى : إن غاية ما سمعه أن فلبيدس سمع بأن هناك مسألة خاصة بصدقى باشا فى ذهبيته . وأنه حدث فى ذهبيته مسائل غير شريفة .

وقد أنكر إسماعيل صدقى ماعزى إليه وقال إنه كان مع إسماعيل سرى وعبد الخالق ثروت ، وأن امرأة اسمها أم ماجد حضرت إليه ورجته أن يسعى فى إعادة ولدها إلى وظيفته . إلا أنه يمكن أن يقال إن صدقى لم يكن صادقا فيما قال بهذا الصدد . إذ لماذا هاجمت الشرطة عائمته دون سائر العائمات ؟ ولماذا خصته دون غيره من الناس ؟ وما هو السر فى انتحار السيدة التى وجدت معه ؟

* * *

(١) الوطن فى ١٨ ــ ٦ ــ ١٩١٧ .

وكانت العساكر البريطانية تنتشر بكثرة فى ربوع الأزبكية ، وذلك لأن قيادتهم اتخذت من حديقة الأزبكية منتدى لهم ومتجرا يشترون منه التبغ والحلوى والمأكولات الخفيفة والمشروبات. وكانت جولاتهم فى هذا الحى تهدف إلى الحصول على المتع الحرام . وقد وقعت من الجنود الأستراليين اعتداءات على الأهالى تدل على منتهى استخفافهم بالأرواح ، وعلى ماطبعت عليه نفوسهم من القسوة والشر والهمجية . فحدثت فى يوم ٨ من أبريل سنة ١٩١٥ معركة عنيفة بين بعض الجنود و بعضهم الآخر . ونشرت القيادة العامة البلاغ التالى :

« حدث الليلة البارحة اختلال فى النظام بشارع وجه البركة ، نشأ عنه هرج ذو بال . ولتعذر الوقوف على السبب سيباشر فى التحقيق . على أنه لم يشترك فى هذا الهرج سوى العساكر . ولسوء الحظ أصيبت بعض الأملاك فى ذلك الشارع السيء السمعة بضرر كبير »

« وكان فى المكان عدد عظيم من العساكر ، فقوبل البوليس العسكرى والدوريات بالمقاومة العنيفة بينما كانوا يعملون لإعادة النظام إلى نصابه »

« وأطلقت جملة طلقات من المسدسات فجرح أربعة من العساكر وأصيب غيرهم بأضرار مختلفة . وأسرعت ثلة من السوارى وشراذم قوية من الدوريات إلى محل الحادثة ، فعادت الأحوال إلى مجراها الاول بعد انتهاء الساعة الثامنة مساء . وقد قامت فرقة من المطافى ورجال البوليس الملكى بواجباتهم ، وأظهروا فى ذلك ما يستحقون الحمد والثناء عليه من الرصانة والجلد والأخذ باللين . وإلى البوليس الملكى يرجع الفضل فى عدم اشتراك الوطنيين فى ذلك الهرج . هذا وقد قبض على نحو خمسين عسكريا سيحاكمون أمام المجالس العسكرى »

فمن هذا البلاغ نفهم أن الجنود أشعلوا النار فى بعض المنازل مما سبب خسائر فادحة فى الممتلكات .

وفى نهاية يوليو سنة ١٩١٥ عاد الجنود البريطانيون فأشعلوا الحرائق فى منازل شارع وجه البركة وقنطرة الدكة ، وانتقلت النيران إلى المنازل المجاورة ، وعلا صياح النساء حتى بلغ عنان السماء ، وأقفلت جميع المخازن والحوانيت الواقعة بتلك الجهات . و بعد ساعة من اندلاع النيران تمكن رجال الإطفاء من إخمادها وكانت الخسائر فادحة . وقد وضح أحمد شفيق باشا تفاصيل هذا الحادث المروع فقال فى حوادث سنة ١٩١٥ .

« لسبب ما اتفق جماعة منهم – يعنى العساكر الأستراليين – على الدخول إلى بيت من بيوت الدعارة بشارع وجه البركة فى رابعة النهار . ولم يلبث المارون والجالسون إلى المشارب فى ذلك الشارع الكثير الحركة أن رأوا نساء يلقين من نوافذ أعلى طابق من ذلك البيت إلى الشارع . و بعد قليل من الوقت رأوا هؤلاء الجنود يصبون البترول على جدران الدار ، ثم يشعلون فيه النيران . كل هذا والناس ينظرون هم ورجال الشرطة إلى هذا المنظر الذى يمثل القسوة والوحشية فى أجلى معانيها ، ولا يجرؤن على الدنو من هؤلاء التعيسات لإسعافهن ؛ أو إطفاء ما أوقد هؤلاء الجند من لهب . وأخيرا حضر رجال المطافى والحكمدار ورجال الإسعاف وقام كل منهم بما فرض عليه . وانسحب مرتكبو هذه الجرائم المنكرة آمنين مطمئنين » .

وفى ١٠ – ١٢ – ١٩١٥ شرعت السلطات البريطانية فى صرف التعويضات التى قدرها الخبراء لأصحاب المبانى التى احترقت فى الحادث المتقدم .

واتخذت تلك السلطات احتياطات لمنع تكرر الحوادث الماضية . فعلقت

لوحات على كثير من شوارع الدعارة تحرم فيها مرور الجنود البريطانيين فى هذه الشوارع . ثم إنها حرمت السهر فى المقاهى والحانات والمطاعم الواقعة فى بعض شوارع تلك الجهة . وأجلت المومسات عن بعض الشوارع . وأنشأت نقطتين للشرطة الحربية البريطانية ، إحداهما فى شارع فندق شبرد ، والثانية فى ميدان الخازندار وعينت دوريات تطوف بربوع الأزبكية لمراقبة الجنود وإلقاء القبض على كل من يرتكب مخالفة للقانون والنظام . وفكرت فى نقل بيوت الدعارة إلى ناحية الدمرداش أو منشية الصدر أو حدائق القبة . ثم عدلت عن هذه الفكرة لأن وجود بيوت الدعارة وسط البلد يجعل مراقبتها ومكافحة ما يقع فيها من الجرائم ميسورا .

* * *

وكان طرد المومسات من بعض شوارع وجه البركة أمرا بالغ الخطورة على الأهالى . فقد سكنت الأجنبيات منهن شارع كامل « الجمهورية » وشارع عماد الدين وجهات التوفيقية ومعروف . وسكنت الوطنيات جهة الفجالة وباب البحر وباب الشعرية . كما سكن بعضهن فى حى شبرا . وبذلك أفلتن من الرقابة الصحية التى كانت مفروضة عليهن ، مما ترتب عليه انتشار الأمراض السرية انتشارا فظيعا . كما أن الحرائر من النساء تعرضن للفساد . وتعرضت أخلاق الشبان للانهيار . وفتحت مومستان إحداهما اسمها عزيزة والأخرى حكمت بؤرة للدعارة فى حى السكاكينى . وفتحت امرأة أخرى بؤرة فى حى الوايلى . وهكذا طغت موجة الدعارة فى كثير من أحياء العاصمة . وكان شارع كلوت بك وما يتفرع منه من الأزقة والحارات عامرا بالمومسات .

والحق إن وسائل الحكومة لم تكن فى ذلك الوقت كافية لمقاومة موجة

الدعارة أو الحد من شدتها . وزاد مهمة الشرطة مشقة حالة الإظلام التام التى فرضته الغارات الجوية . ثم تقليل الإضاءة تقليلا كبيرا بسبب ارتفاع أسعار الوقود . و بسبب وجود الامتيازات الأجنبية التى كان يحتمى وراءها كثيرون من سفلة الأجانب .

وقد تناولت الصحف الأسترالية[1] حالة الدعارة فى مصر وهولت فيها و بالغت . وقالت إنها السبب فى إفساد أخلاق الجنود وتحطيم قوتهم الجسدية ، و إضعاف روحهم المعنوية ، فضلا عما يصيبهم من أمراض خبيثة . وخطب حاكم أستراليا فقال : أذيعت بعض تخرصات عن مسلك جنودنا فى مصر من جراء فساد أخلاق عدد من نساء ذلك القطر . وقد أعار كثيرون ـ لسوء الحظ ـ هذه الأقاويل أذنا واعية .

وقال الحاكم : إن أحد رؤساء الأساقفة ذكر أن عدد العاهرات فى مصر يبلغ خمسين ألفا أو ستين ألفا . وفى القاهرة وحدها ثلاثون ألفا .

وأرسل الحاكم إلى قائد الجيوش البريطانية فى مصر يطلب منه تكذيب هذه الشائعات . فبعث إليه بتقرير عن حالة العهر فى مصر يظهر منه بعد هذه الشائعات عن الحقيقة .

ثم أخذ الحاكم ينقض إمكان وجود مثل هذا العدد من العاهرات فى القاهرة قائلا إن للمرأة المسلمة من دينها وازعا عن العهر ومنفرا من الخنا . وأنه لا صحة لما يقال من أن أوربا ترسل النساء إلى مصر للقضاء على روح جنودنا المعنوية . فإن مالديه من الحقائق الواقعة يحمله يقول بأنه لم تدخل إلى القطر المصرى امرأة دون جواز ، و بعد إبداء أسباب وجيهة لحضورها إليه .

(١) وادى النيل فى ٣١ ـ ٥ ـ ١٩١٦ .

ولكن الواقع أن أبواب الهجرة كانت مفتوحة من قبل الحرب . وفى خلالها دخلت مصر ألوف المهاجرين ومعهم نساؤهم و بناتهم . واشتغل كثير منهم بالدعارة .

وانتشرت المطبوعات التى تتضمن أمورا مخلة بالآداب ، كما انتشرت الصور العارية . وتفشت الأمراض السرية ، وتعذر على الفقراء علاجها لارتفاع أسعار الأدوية . فظهرت فئة من مدعى الطب يزعمون أنهم قادرون على علاج هذه الأمراض .

وظهرت عصابات كثيرة تتاجر فى أعراض الغلمان .

فإزاء هذه الأمور وارتفاع الشكوى مما وصلت إليه الأحوال و بخاصة فى الصحف الأجنبية ؛ اضطرت السلطات البريطانية إلى اتخاذ بعض الإجراءات الوقائية . ففى شهر يونيو سنة ١٩١٦ صدر قرار بإنشاء محكمة عسكرية للنظر فى الجرائم المخلة بالآداب التى تصدر من القوادين أو الشبان الذين يعاكسون النساء فى الشوارع والطرقات ، وناشرى الكتب المحرضة على الفسق والفجور ، وأصحاب المراقص الذين يعرضون الرقص المثير . وأصحاب دور الخيالة الذين يقدمون للجمهور أشرطة تحتوى مناظر خليعة .

وكذلك النظر فى جرائم الاحتيال والدجل ، ومعاقبة مدعى الطب ، والإسراع فى سوق السيارات . فإن هذا النوع من المخالفات كان يرتكب كل ساعة ، وقد عجزت السلطات المحلية عن وضع حد لها لأن سائقى السيارات فى ذلك الوقت كان معظمهم من الأجانب المحتمين بالامتيازات .

ولكن جاء فى قرار تشكيل المحكمة أنها ليست مختصة بالنظر فى الجرائم التى تقع من الأجانب . وكانت هذه أول ثغرة ، لأن الأجانب هم الذين كانوا

يتخذون من لامتيازات ستارا لهم ، ويرتكبون كل هذه الجرائم والمخازى . وكان بعض الوطنيين يحتمون بالأجانب ليفلتوا من العقاب. أضف إلى ما تقدم أن تجار الأعراض كانوا يتخذون الصبيان لتصيد الجنود ، ولم تكن المحكمة تحكم على هؤلاء الصبيان بغير التوبيخ والإنذار بالعقوبة فى حالة العود . ولم يكن هناك من يسجل أسماء هؤلاء الصبيان ويثبت شخصياتهم حتى يعرف العائد من غيره . ولم يكن هناك جهاز للشرطة يكفى لضبط مرتكبى هذه الجرائم ، هذا مع انتشار الرشوة بين رجال الشرطة كما سبق القول .

وشددت العقوبات على تجار المخدرات ومحرزيها ومتعاطيها . وكذلك من يبيع أو يشترى أو يحرز شيئا من مهمات الجيش البريطانى .



ولما كثر تعرض الشبان للنساء وتفشت الدعارة السرية والعلنية ؛ طالبت الصحف بإنشاء شرطة للآداب ولكن الميزانية لم تكن تسمح بذلك . فكلفت الحكومة رجال الشرطة العاديين بمراقبة الآداب. ولم يحسن هؤلاء القيام بعملهم فكانوا يقبضون على حرائر النساء معتقدين أنهن من الساقطات . وقبض على الزوج وزوجته ، والرجل وخطيبته ، والشقيق [1] وشقيقته . وكان بعض رجال الشرطة حين مرورهم بالمنازل يتطلعون إلى سكان الأدوار الأرضية ، فإذا رأوا رجلا يباسط زوجته انتهروهما وطلبوا منهما أن يذهبا معهم إلى المركز. وقد كثرت هذه الحوادث فى بعض الجهات حتى ضج ضباط الشرطة من كثرتها . فعدلت الحكومة عن هذه الخطة ، وبقى مشروع شرطة الآداب مهملا حتى جاءت وزاره توفيق نسيم سنة ١٩٣٥ وكان من باكورة أعمالها تنفيذ هذا المشروع .

(١) الوطن فى ١٤ — ٨ — ١٩١٦ .

ولم تقف اعتداءات جنود الاحتلال على سكان حى الأزبكية ، بل تجاوزتها إلى جميع الجهات . وذلك بسبب اختلافهم مع المكارين وأصحاب العربات والسيارات . وماسحى الأحذية والباعة فى تقدير ما يستحقه كل منهم ، وما ينبغى دفعه . وقد حدثت فى مساء يوم ٥ مارس سنة ١٩١٥ معركة بين بعض الجنود الأسترالية و بعض الأهالى بشارع بير حمص بباب الشعرية . وانجلت عن إصابة عدد من الأهالى. ثم إن رجال الشرطة ألقوا القبض على عدد آخر وحققوا معهم .

وكان جنودالاحتلال يدخلون المنازل الواقعة فى الضواحى فيستغيث السكان وتصرخ النساء ، ورجل الشرطة المصرى يقف مكتوف اليدين كما يقف أحد المارة . وقد وجهت صحيفة المؤيد خطابا مفتوحا إلى الجنرال مكسو يل شكت فيه مر الشكوى من الأفعال القبيحة التى يرتكبها جنوده ، وطالبت بوضع حد لها . وكانت المؤيد هى الصحيفة الوحيدة التى تناولت هذا الموضوع ، وكان صوتها هو الصوت الوحيد الذى ارتفع مستنكرا هذه الجرائم .

وقد أصدر القائد العام قرارا بعزل كل جندى لا يحترم نفسه ، ولا يحافظ على كرامته وواجبه ، و إعادته إلى بلاده فورا . وكانت الجندية فى ذلك الوقت تطوعا . ونفذ هذا القرار فرحلت فصيلة من الجنود الأستراليين إلى بلادها ، وهى التى اعتدت على الأهالى فى حى باب الشعرية .

* * *

وقد انتشرت فى مصر خلال هذه الحرب الحميات والكوليرا والطاعون . وكثرت الوفيات فى الأحياء الوطنية الآهلة بالسكان لعدم العناية بنظافة الشوارع والمنازل ، وجهل الناس بطرق الوقاية ، وتعذر العلاج على الفقراء . وكان من

المشاهد المألوفة أن تمر مواكب الموتى متتابعة ، فلم يخل بيت من موت بعض سكانه .

وكثرت حوادث الانتحار لضيق ذات اليد ، كما مات بعض الفقراء جوعا . وفى أوائل الحرب كثر عدد المتسولين كثرة هائلة . فكان العامل المتعطل يحمل أطفاله ويصحب زوجته ويطوف بهم فى الشوارع ويقصد الجالسين فى المقاهى والمشارب ويطلب منهم الإحسان . فإن امتنعوا ركع أمامهم باكيا ، وأخذ أطفاله ينوحون وأمهم تنتحب . وهكذا حتى يستدروا عطف المحسنين فتمتد إليهم الأيدى بشىء من المال .

* * *

وتعذر الزواج على الشبان لارتفاع نفقات المعيشة . فكانوا يتسكعون فى الشوارع والطرقات وأمام دور اللهو . وانتشرت بين النساء موجة من التبرج والتهتك والخلاعة . فعادت المعركة على أشدها بين أنصار السفور والحجاب بعد أن كانت قد خمدت ونسى الناس موضوعها . قالت صحيفة المؤيد فى ٢٠ — ٥ — ١٩١٥ تحت عنوان « الفضيلة تحتضر » « منذ سنوات مضت قامت حرب زبون حول مسألة المرأة . وقد انقضت تلك السنون وأهلها ، وطوى ذلك البساط بما عليه جملة حتى كانت هذه الأيام فرأينا أن الرواية قد أعيد تمثيلها ثانية على صفحات الصحف السيارة . واشترك فى القيام بفصولها وإجادة أدوارها الفتيات والشبان ، وظهر الجميع على مسرح المناضلة يتقاتلون بأسنة الأقلام ومبتكرات الآراء والأفكار ، حتى نجم عن ذلك أن تكون حزبان : أحدهما ، ينادى بالسفور ، والآخر يرفع صوته بالحجاب . وقد انضم إلى هذين الحزبين أنصار ، كل يجاهر بنصرة حزبه الذى تميل إليه نفسه » ثم قالت « بالأمس قرأت فى بعض الجرائد حادثة يندى لها جبين الحر . وذلك

أن طالباً من إحدى المدارس العليا اتهم بأنه اعترض سبيل فتاة فى مكان حافل بالناس فضمها إلى صدره وقبلها . وقد كتب له المحضر اللازم . و بالطبع أمثال هذه الحادثة كثير لكنها جارية تحت ستار الخفاء ، لأن الحرية التى ينضوى تحت لوائها شبان اليوم جعلتهم لا يبالون بالقوانين ، ولا يخشون فى الآداب لومة لائم » .

وظهرت مجلة اسمها « السفور » ولم تقصر همها على الانتصار لحرية المرأة ، بل فتحت صدرها لأقلام الملحدين من الكتاب الشعراء .

* * *

وقد أظهرت هذه الحرب ما للقوة البدنية من أهمية كبرى . وتجدد الميل الطبيعى المغروس فى الناس إلى تقوية العضلات و إتقان أنواع الملاكمة والصراع والدفاع عن النفس وقهر الخصم . ولهذا السبب انتشرت أندية الألعاب الرياضية فى مدينة القاهرة والإسكندرية وغيرهما . وظهر ميل الشبان فى مصر إلى الألعاب التى تزيد مقدرة الجسم وتقوى بنيته كالملاكمة ورفع الأثقال . وأخذت بعض الأندية تفتح أبوابها ليلا .

واقترحت « المقطم »(١) إنشاء جمعية عمومية للألعاب الرياضية تمثل جميع الأندية فى جميع أنحاء مصر ويكون مركزها فى القاهرة ولها فروع فى سائر المدن والبنادر . ويكون لها ضرب من السيطرة على الأندية الرياضية . ويعهد إليها وضع القوانين التى يجب اتباعها فى أنواع الألعاب الشائعة ، أو التى تشيع فى هذا القطر . وقالت إن الاختبار أثبت أن لجمعية كهذه فوائد عظيمة فى ترقية الألعاب الرياضية وصون كرامة أندية الرياضة البدنية والمحافظة على حقوق المشتغلين بالرياضة .

(١) المقطم فى ١٩١٧/٧/٧

الباب الثالث

الحالة الاقتصادية

ما كادت نيران الحرب تشتعل حتى توقفت حركة الصادر والوارد ، فهبطت إيرادات الحكومة من الجمارك هبوطا فاحشا ، وظهر العجز فى الميزانية . فأوقفت الحكومة جميع مشروعاتها ، وأخذت تفصل الموظفين المؤقتين الذين كانوا يعملون بأجر يومى ، وكان عددهم كبيرا . ثم فكرت فى سد عجز الميزانية فرفعت أجور النقل للركاب والبضائع بنسبة ٥٠ ٪ سنة ١٩١٥ ، ثم رفعتها مرة أخرى بنسبة ٥٠ ٪ سنة ١٩١٦ مما زاد فى أسعار المنقولات من ملبس ومأكل . وحذت الشركات والمصارف والمحال التجارية حذو الحكومة فى فصل الموظفين والعمال . وتوقفت أعمال البناء وتعطلت المصابغ لانقطاع ورود الصباغة وعلى الأخص النيلة . وهكذا وجد الألوف من العمال والموظفين أنفسهم وقد فقدوا مورد رزقهم فجأة ، وأصبحوا عرضة للموت جوعا .

وقد ألف العمال المتعطلون مظاهرة فى أول[1] سبتمبر سنة ١٩١٤ وخرجوا فى الشوارع والطرقات يستغيثون و يصرخون من شدة الجوع . وتوجهت جموعهم إلى محافظة القاهرة بميدان باب الخلق وطلبوا من المسئولين أن يعينوهم على إيجاد أعمال يرتزقون منها . ولكن ذهب صراخهم وعويلهم أدراج الرياح . فأخذ بعضهم يهجم على محال البقالة والمخابز و يلتهمون مافيها . ولم تعمل الحكومة شيئا لمساعدة هؤلاء العمال ، بل سارعت إلى القبض على عدد كبير منهم وقدمتهم

---

(١) الوطن فى ١٩١٤/٩/٢

إلى المحاكمة ، فحكم عليهم بمدد تتراوح بين سنتين وثلاث سنين .

وأخذ التجار يخبئون ماعندهم من البضائع فارتفعت أسعار المأكل والملبس ومواد الوقود كالفحم والبترول والكحول ، كما ارتفعت أسعار التبغ والأحذية والشاى . وكثر الغش فى كل شىء ، فى الوزن والكيل والصنف .

ومن ناحية أخرى توقف تصدير القطن فهبطت أسعاره إلى درجة لم يسبق لها مثيل من قبل ؛ إذ وصل سعر القنطار إلى جنيهين ومع ذلك فلم يوجد مشترون . فأقبلت وفود المزارعين إلى القاهرة تبكى وتشكو ، وترفع أصواتها مستغيثة بالحكومة ، طالبة النجدة ، ولكن الحكومة لم تمد إليهم يد المساعدة ، بل إنها اشتدت فى جمع الضرائب مما اضطر الفلاحين إلى بيع حلى نسائهم ، بل أثاث منازلهم ومواشيهم ، والاستدانة من المرابين بفوائد باهظة . وأخيرا وافق المستشار المالى على دخول الحكومة مشترية لمقدار معين من القطن بسعر جنيهين للقنطار ، وذلك ليتمكن الفلاحون من تسديد الأموال الأميرية . وترتب على ذلك أن خسرت البلاد حوالى عشرين مليونا من الجنيهات فى تجارة القطن سنة ١٩١٥

وفى سنة ١٩١٦ انفرجت أزمة العمال المتعطلين لأن السلطة العسكرية استخدمت عددا كبيرا منهم كجنود وعمال . وارتفع سعر القطن فبلغ ١٢ جنيها للقنطار ، ولكن كبار التجار ومعظمهم من الأجانب تلاعبوا بالأسعار حتى يكون لهم الغنم وللفلاح الغرم ومع أن البلاد كسبت فى هذا العام حوالى اثنى عشر مليونا من الجنيهات إلا أن هذا الربح لم يغير من أحوال الفلاح السيئة ، بل بقى غارقا فى ديونه . وزاد سعر رى الفدان من الأرض التى كانت تروى بالآلات الرافعة لارتفاع سعر الوقود . أضف إلى ما تقدم ارتفاع أسعار السماد ، وأسعار الأكياس اللازمة لتعبئة القطن ، وأجور النقل . ولذلك رأينا البنك العقارى ينزع مساحات واسعة

من الأراضى الزراعية من مالكيها ، حتى أوشكت الأراضى الزراعية كلها أن تنتقل إلى ملكية البنك العقارى والمرابين الأجانب . وكانت قضايا الحجز على الأطيان تجرى بمعدل ١٢٠٠ قضية فى الشهر . وقد حدث أن أطيانا قيمتها تزيد على أربعين ألف جنيه رهنت بخمسة آلاف . ثم طرحت فى المزاد العلنى بثلاثة آلاف فلم يتقدم لشرائها أحد ، فأعيد طرحها بألف وخمسمائة ، فرسا مزادها على البنك الدائن . وابتاع أحد البنوك العقارية بنايات وأراضى تشغل جانبى شارعين من أعظم شوارع القاهرة بمبلغ ثلاثين ألف جنيه ، مع أن قيمتها الأصلية تزيد على مائة وخمسين ألفا .

* * *

وقد دعت هذه الحالة المؤلمة الناس إلى التفكير فى المصير المظلم الذى ينتظرهم . فأخذ بعضهم يروج لفكرة التعاون ويشرح مزاياها ويبين فوائدها . وألف عبد الرحمن الرافعى أول كتاب عن نقابات التعاون الزراعية سنة ١٩١٤ بحث فيه بوجه خاص الحالة المالية للفلاح المصرى والتسليف الزراعى التعاونى . وفى سنة ١٩١٧ نشر صادق حنين كتابا عنوانه « التعاون » وقد شرح فكرة التعاون بقوله « يطلق التعاون فى أوسع معانيه على المذهب القائل بأن الاجتماع البشرى قد يصل إلى أقرب مايستطاع من الكمال باستبدال تنافس الأفراد فى الأثرة بالعيش والسعى لمصلحتهم ومصلحة ذويهم دون سواها بنظام أساسه تبادل المعونة بحيث يسعى الفرد لمصلحة المجموع الذى ينتمى إليه سعيا مقرونا بالغيرة والإخلاص . ويسعى المجموع لمصلحة الفرد ذلك السعى ذاته . وشعار هذا المذهب : الفرد للجماعة ، والجماعة للفرد . فهو يرمى إلى ملاشاة تنافس بنى الإنسان فى معترك الوجود حتى يحل محله تعاونهم على شئون الحياة برغبتهم المحضة » .

وخطب السلطان حسين فى مدينة طنطا فى جمع حاشد من المزارعين أواخر يونيو سنة ١٩١٦ فكان مما قاله :

إن الزراعة لا يمكن ترقيتها بغير النقابات . فالنقابات لازمة لها لزوما كليا لخير المزارعين . والمزارع مهما كان كبيرا يحتاج إليها . فأوجه أنظاركم إلى النقابات والتعاون فى البيع والشراء . فالنقابات والتعاون توجد الرحمة والشفقة ، وتخدم مصلحة المزارعين »

« إنى ألقى عليكم أمرا جديرا بالاعتبار ، وذلك أنى لما زرت نابولى لدرس مسألة النقابات قصدت مزارعا يملك مزرعة تزرع أرزا . ووجدته يرفع الماء من ثلاث آبار حفرها فى أرضه لإرواء زرعه ، مع أن الماء كان جاريا فيها فى مسقاة مرتفعة عن الطين نحو ستين سنتيمترا . فاستغربت ذلك وقلت له : لماذا تكلف نفسك مشقة رفع الماء من الآبار مع أن الماء جار أمامك فى مسقاة مرتفعة ، وتستطيع أن تروى منه أطيانك بالراحة ؟ »

فأجاب : إن هذا الزمن زمن المناوبات ، وقد أخذت دورى منها ، وجاء الآن دور غيرى ، فلا يحق لى أن آخذ حصة غيرى من الماء . ومهما كلفنى رفع الماء من الآبار لا يمكن أن أعتدى على حقوق سواى . إن واجب الإنصاف يقضى على أن أترك جارى يأخذ حصته من الماء كما أخذتها . إنى لا أحاول أن أظلم أحدا حتى لا يظلمنى أحد »

«فسألته : وكيف علمت بمواعيد المناوبات ؟ قال : إنى أحسن القراءة ، وقد قرأت هذه المواعيد فى الإعلان الذى أعلنته الحكومة ، وألصقت صورة منه على مدخل مزرعتى» .

« فلو عرف كل منا واجبه كما عرف هذا المزارع لما شكا أحد من قلة الماء، وكان الماء يكفى الجميع » .

« يحسن بكم أن تنبذوا من بينكم أسباب الخصام والشقاق ، وتكونوا فى أعمالكم يداً واحدة ، قلباً وقالبا فى طلب الخير لأنفسكم ولبلادكم » .

* * *

وأخذت الأفكار الاشتراكية طريقها إلى الأذهان ، وأصبحت موضوعاً للكتاب . وقد صرح السلطان حسين لأحد الصحفيين الإيطاليين بقوله : « أنا لا أعرف[١] إلا فئة واحدة من الاشتراكيين ، وهى فئة الاشتراكيين العاملين لخير الإنسانية . وأنا كذلك إشتراكى عامل لخير الإنسانية . وأما ماعدا هؤلاء من الاشتراكيين فإنهم معروفون وأمرهم مشهور »يقصد بالفريق الآخر الشيوعيين.

وألف حسين المنصورى[٢] أول كتاب عن الاشتراكية ونشره أوائل سنة ١٩١٥ وعنوانه « تاريخ المذاهب الاشتراكية » ومما جاء فيه تحت عنوان « الاشتراكية فى مصر » « يجب تعميم المجالس المحلية حتى فى القرى والدساكر ، وبناء مساكن صحية تؤجر بأجور معتدلة . وتعيين الحد الأدنى لأجرة المزارعين، وتوزيع موات الأرض على فقراء المزارعين ليستغلوها مدة معينة ، بشرط ألا تصبح ملكا لهم . وضرب ضريبة على الإيراد ، وأخرى على التركات . وتخفيض أجور السكك الحديدية ، وجعل جميع خطوط السكك الحديدية والترام ملكا للحكومة أو المجالس البلدية . وحض الأهالى على إنشاء نقابات زراعية وصناعية . وإمدادهم بالمال من خزينة الحكومة » .

(١، ٢) وادى النيل فى ٦–٣ ، ٦–٤–١٩١٥

كما دعا إلى تمثيل طوائف العمال والتجار وأرباب المهن فى الجمعية التشريعية . قال « ولو نظرنا إلى أعضاء الجمعية التشريعية بصرف النظر عن أعضائها المعينين ؛ نجد أن معظمهم من أصحاب الأطيان ، وليس منهم من يمثل مطالب الصناع أو التجار »

وكتب الدكتور محمد حسين هيكل تحت عنوان « الاشتراكية [١] تخطو إلى الأمام » مقالا جاء فيه :

« قامت الاشتراكية وبحثت عن أصول الظلم وأرادت محوها ، فحاربها خصومها حرباً عوانا ، لكن الاشتراكية لم تنزعج ولم تأخذها الصيحة ، بل ظلت فى ندائها السلمى تريد الحق والعدل . وتطالب للناس بأكبر حظ يستطاع من السعادة . ولقد كان صوت الحق فى كل زمان الصوت المسموع . لذلك جعلت الفردية تتراجع إلى الوراء شيئاً فشيئاً ، وجعلت نفثات الاشتراكية تتسلل من تلك الفرج الضيقة تبدو رغم تلاصق جيوش الفردية فى تقهقرها . ومن ثم تبدى للاشتراكية نور الانتصار » .

« وعملت هذه النفثات فى جسم الفردية فابتدأ يهتز وخشى أن ينهار بنيانه . فلما بلغ منه الوجل وضاقت به السبل دفع الجيوش تتحارب وتقتتل » .

« وها قد مضى على هذه الحرب سبعة عشر شهراً أو تزيد . وإنا لنزداد كل يوم يقيناً بما قلنا أول الحرب . فصرنا نرى رأى العين ما كنا نتخيل من قبل . صرنا نرى الفردية مسرعة إلى الخذلان لتترك للاشتراكية ما كانت تنازعها فيه من بقاء » .

---

(١) السفور فى ٧–١–١٩١٦

ثم قال « أو فى انتصار الاشتراكية خير للعالم كبير ؟ هذا ما يتساءل عنه بعض المفكرين . ونظننا فى حل من القول بأن الأكثر من مبادئ الاشتراكية أقرب للعدل ، وأدنى لما هو خليق بالإنسانية . فإذا هى احتوت إلى جانب ذلك شيئاً لا يتفق مع ما نرجوه من أقصى غايات الرقى ، فذلك لأن الكمال لا يزال بعيداً عن الإنسان جداً » .

« لهذا ترانا نغتبط باقتراب تحقق الآمال الاشتراكية فى أوربا . وإنا نعتقد أن اليوم الذى تدخل فيه مبادؤها الكبرى إلى عالم العمل هو اليوم الذى تشرق فيه شمس الحرية على العالم كله . وهو اليوم الذى ينال فيه تعس بنى آدم حظاً من السعادة يجعل للحياة عنده طعماً ، ويدفعه لمشاركة العالم مشاركة نافعة فى السير إلى الكمال المنشود » .

وكتب[1] منصور فهمى مقالا جاء فيه « نبأتنا الصحف أن القائمين بحركة التحرير فى بلاد روسيا يطلبون لكل الشعوب حقوقها فى الحرية التى يقدسها شباب الروس ، والتى نالوا اليوم منها قسطهم الموفور بالأفئدة والدماء » .

« خبر يسر كل محب للحرية ، وكل من يشتهى أن تعم بركتها فى الوجود بين الناس وبين الأمم جميعاً » .

وكتب عبد الحميد حمدى عن الاشتراكية الدولية وبرنامجها الذى يرمى إلى منح الأمم استقلالها وإعطائها الحق فى أن تحكم نفسها بنفسها .

فمن هنا نرى أن الظروف الاقتصادية التى نجمت عن الحرب قد دفعت المصريين إلى التفكير فى الثورة على الأوضاع القديمة . فكثر الكلام على التعاون والنقابات والاشتراكية ، والاشتراكية الدولية ، وحركات العمال فى

---

(١) السفور فى ١٤ — ٦ — ١٩١٧

أوروبا ، والثورة الشيوعية فى روسيا وسقوط القيصرية . وكانت هذه الموضوعات مادة دسمة يتحدث بها الناس فى مجالسهم ويجدون فيها بصيصا من الأمل فى المستقبل . وظلت الصحف تكتب فى هذه الموضوعات حتى تنبهت السلطات العسكرية إلى ذلك فأخذت تدقق النظر فى كل ما ينشر عن ذلك .

طرب المصريون للثورة الروسية وللحركات الاشتراكية وتمنوا نجاحها وتوقعوا أن تأخذ بلادهم بالنظم الاشتراكية . قالت صحيفة المقطم فى ٢٤–٧–١٩١٧ تحت عنوان « الاشتراكية فى مصر » « إن روح الاشتراكية بمعناها الصحيح المعقول سيعم العالم بعد الحرب ، فلا يحتمل أن تظل مصر بمعزل عن فعله وتأثيره ولا يعقل أن تبقى الحال فيها على ما هى عليه »

وقال أحمد محرم من قصيدة تحت عنوان « عرش [1] القياصرة »

إن الذى هز الممالك بأسه ... أمست تهز فؤاده الأشجان
ثارت عليه شعوبه وهمومه ... فتدافع الطوفان والبركان
عبدوه فوق سريره من رهبة ... حتى هوى فإذا به إنسان
ترضى الشعوب إلى مدى فإذا أبت ... رضى الأبى وطاوع الغضبان
والحكم إن وزن الأمور بواحد ... غبن الشعوب وخانه الميزان
فى عصمة الشورى وتحت ظلالها ... تحمى الممالك كلها وتصان
تدنى الشعوب إذا تباعد أمرها ... فالكل تحت لوائها إخوان
والرأى أسطع ما يكون إذا انجلت ... شبهاته وأضاءه البرهان
المجـــد أجمع والجلال لأمة ... صدقت عزيمتها وعز الشان

---

(١) الأفكار فى ٢٣–٣–١٩١٧

جمح الإباء بها وأذعن غيرها ... فالعيش ذل والحياة هوان
الله يحكم فى الممالك وحده ... ولكل شىء مدة وأوان

فأنت ترى فى هذه الأبيات تحريضا على الثورة ، ودعوة إلى النضال والكفاح والتمرد على الذل والظلم ، ورفض حياة الخنوع والاستكانة ، فإذا عرفت أن هذه القصيدة نشرت فى أوائل سنة ١٩١٧ ، أى فى وقت اشتد فيه الخناق على المصريين أدركت مبلغ ما فيها من جرأة ، وإلى أى مدى تأثر المصريون بالثورة الروسية وعلقوا عليها الآمال الكبار ورأيت أن الشعب كان متهيئا للقيام بالثورة . وستجد فيما كتبته تحت عنوان « الأدب والمجتمع » شواهد حية وأدلة ناطقة على صدق ما أقول .

وقد تردد صدى الثورة الشيوعية فى جميع أنحاء العالم . فإذا كان الشيوعيون قد نادوا بتحرير الشعوب ، فإن الرئيس ولسن قد نادى بتقرير المصير . فالدعوتان متشابهتان ، وربما تكون دعوة ولسن صدى لدعوة الشيوعيين .

وكان انتشار هذه الأفكار بين المصريين من العوامل الفعالة فى قيام ثورة سنة ١٩١٩ .

* * *

وقد أقنعت هذه الضائقة المصريين بضرر اعتمادهم على المؤسسات والمصارف الأجنبية التى لم تكن تراعى الصالح الوطنى . وأخذ طلعت حرب منذ سنة ١٩١٥ يدعو إلى إنشاء مصرف وطنى . وكان قبل الحرب قد أسس شركة التعاون المالى -

فلما انعقدت الجمعية العمومية لهذه الشركة فى شهر مارس سنة ١٩١٥ وقف خطيبا وأخذ يتكلم عن شئون البلاد الاقتصادية وما أصابها من التضعضع بسبب اعتمادها على الغير فى كل معاملاتها ، وعدم اعتمادها على نفسها بإنشاء المصارف والبيوت المالية التى تصون ثروتها وتحفظ ثقتها . ثم قال :

« لم تظهر فى وقت من الأوقات الحاجة الشديدة لإيجاد بنك أهلى برءوس أموال أهلية كالوقت الذى نحن فيه ، لأنه فى جميع الأوقات السابقة لم يشعر كل المصريين بهذه الحاجة لوجود بنوك كثيرة مزاحمة لبعضها ، متفننة فى طرق تصيد الزبائن والعملاء » .

« وزد على ذلك أن هذه البنوك الأجنبية تنظر أولا إلى مصلحة مساهميها الأجانب ، وتنفذ دائما أوامر مراكزها الرئيسية فى البلاد الأجنبية وإن لم تتفق فى الغالب مع مصلحة البلاد المصرية » .

« ولقد ذاق المصريون غنيهم قبل فقيرهم ألم الحاجة للمال فى هذه الأزمة ، فأحسوا بخطورة الحال. وأرجو أن يكونوا قد اقتنعوا بوجوب العمل على تغييرها . وإذا تحقق أملنا يحق لنا أن نحمد هذه الأزمة التى تكون قد خدمتنا خدمة كبرى بأن أظهرت للجميع حتى لمن كانوا يهزأون بفكرة تأسيس بنك مصرى برءوس أموال مصرية ؛ الحاجة لبنوك أهلية تقى المصريين مثل هذه الشدة» .

إلى أن قال « هذا واجب الأمة ، لاشك لدينا فى أنها ستقوم به متى وضعت الحرب أوزارها ، وعادت المياه لمجاريها . فتؤسس البنوك الأهلية ، وتعمل على إعداد المصريين للمسابقة فى ميدان الأعمال الاقتصادية ، وإيجاد ميادين للعمل » .

فى هذه الخطبة رسم طلعت حرب برنامجه الذى استطاع أن ينفذه بعد انتهاء الحرب .

وفى أبريل سنة ١٦٩١ سافرت إلى المحلة الكبرى لجنة كان من أعضائها طلعت حرب ، وزارت مصانع النسيج والمصابغ التى يملكها الأهالى ، وأعجبت بالمنسوجات التى شاهدتها . فالمحلة الكبرى كانت مشهورة بمنسوجاتها التى راجت رواجا عظيما فى خلال هذه الحرب . ولعل هذه الزيارة هى التى أوحت لطلعت حرب بإقامة مصانع الغزل والنسيج هناك للانتفاع بخبرة أهل المحلة فى هذه الصناعة .

* * *

ولما اشتدت أزمة الوقود اهتمت الحكومة بالبحث عن الفحم والبترول فى الأراضى المصرية فاستقدمت سنة ١٩١٦ خبيرا إنجليزيا للبحث عن الفحم فى منطقة أسوان ، وقد أمضى شهرا تقاضى فى نهايته مبلغ ٢٥٠٠ جنيه مكافأة له ، ولم تظهر أية نتيجة لدراسته .

وفى سنة ١٩١٦ اعتصب أصحاب المخابز والجزارون وطالبوا بزيادة أسعار الخبز واللحوم ، وذكروا أنهم يعانون خسائر فادحة بسبب التسعير الجبرى الذى فرضته الحكومة . وقد اضطرت الحكومة أمام سخط الرأى العام إلى إصدار قرار بمنع تصدير الحبوب وجميع المواد الغذائية المصنوعة منها ما عدا النخالة .

الباب الرابع

الحالة الفكرية

كان أول قرار أصدره مجلس الوزراء المجتمع برياسة السلطان حسين فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٤ هو إلغاء وظيفة القاضى التركى الذى كان يعين من قبل الدولة العثمانية . ثم شرعت الحكومة فى أمر كان إنفاذه فى أيام ذلك القاضى متعذرا . وهو تأليف لجنة من علماء الأزهر وبعض المدرسين فى مدرسة القضاء الشرعى ومدرسة الحقوق يرأسها وزير الحقانية لوضع قانون للأحوال الشخصية الخاصة بأحكام الزواج وما يتعلق به كالطلاق والفسخ والعدة والنفقة ؛ تستمد مواده من فقه المذاهب الأربعة المشهورة ، ولا تتقيد بمذهب الحنفية وحده ، بل يجعل القانون الذى وضعه قدرى باشا الحنفى هو الأصل . ويؤخذ من فقه المذاهب الأخرى ما تراه اللجنة أيسر وأكثر انطباقا على مصلحة الناس .

فظهر رأى يقول بعدم التقيد بالمذاهب الأربعة والانتفاع بالمذاهب الأخرى التى اندثرت .

وظهرت آراء أخرى تنادى بترك كل ما يتعارض مع القانون المدنى . وقد ألف أحمد صفوت ـ أحد وكلاء النيابة فى ذلك الوقت ـ رسالة جاء فى صحيفة ٢١ منها « أصول الشريعة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس . أما القياس فنصرف النظر عنه لأننا سنقيس بأنفسنا على أحكام الأصول الأخرى »

وقد علق محمد رشيد رضا على هذه الفقرة بقوله :[1] يعنى أنهم سيقيسون

(١) مجلة المنار عدد ديسمبر سنة ١٩١٧ والأعداد التى تليه ، وصحيفة وادى النيل فى ١٩١٦/٣/٢٨ تحت عنوان « قانون الأحوال الشخصية » .

على الأصول التى يشرعونها بأنفسهم بناء على أن لهم حق التشريع فى الأحكام الشخصية كالأحكام المدنية والعقوبية التى تشرع الحكومة فيها ما تشاء بإرشاد المسيطرين عليها .

وجاء فى صحيفة ٢١ أيضا « وأما الإجماع وحجتهم فيه حديث : لا تجتمع أمتى على ضلالة ؛ فنقسمه إلى قسمين : إما إجماع العلماء ، أو حكم ولى الأمر السابق . وعلى حسب قواعد نظامنا القضائى لا نتقيد برأى مهما أجمع عليه الشراح إلا أن نوافق على إجماعهم » ثم قال « ونحن الآن نرفض حكم المتأخرين والسابقين » أى أنه يرفض أحكام جميع المسلمين من السلف والخلف .

وقال عن السنة فى صحيفة ٢٢ « أريد أن أبحث القرآن من قبل ، لأن حكم اتباع السنة ناتج من حكم القرآن »

« القرآن بصفته كتاب الله قد أودع فيه كل حكم شاء أن يفرض على كافة المسلمين فى جميع أنحاء العالم اتباعه . فالذى ترك ولم ينزل فى القرآن ؛ ترك ليكون للفرد حرية التصرف فيه . ولولى الأمر الرأى فى تقييده بحسب ما يراه لازما لمصلحة الجمهور . فالرسول بصفته ولى الأمر حاكم الأمة وقاضيها ؛ كان إذا سئل عن أمر حكم فيه . وهذه الأحكام إما صدرت فى مسائل فردية خاصة فتقيدت بها . وإما صدرت عن الرسول لتكون قاعدة وحكما عاما . وفى هذه الحالة تكون بمثابة قانون صدر من صاحب السلطة التشريعية . ونفس هذه السلطة يملكها الحاكم فى كل زمن بعده فيملك إلغاء ما تقرر بمقتضاها » .

« وإذن أستنتج أن السنة إما أنها تخصصت بحوادث فردية فصارت أحكاما قضائية فى طبيعتها . وإما تعممت فى شكل قواعد وقوانين فصارت تشريعا صادرا من ولى الأمر لزمنه . وإذا ظهر من بعد للاحقين من أولياء الأمر

مصلحة للناس فى تغييرها أو إلغائها كان ذلك ولا حرج . وهذا كله خاص بالأحكام المدنية فقط دون الدينية . ولا يناقض فى شىء قوله تعالى ـ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ـ وقوله تعالى ـ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ـ إذ أننا إذا رأينا لزوما للخروج عن السنة لمصلحة فلا يكون ذلك غير طاعة ، بل شيئا آخر . وبديهى أن الرسول لو كان فى هذا العصر لاختلفت سنته فيه ، ولو لم يسأل ما أبدى حكما »

وقد رد رشيد رضا على هذه الآراء فى سلسلة مقالات نشرت بمجلة المنار تحت عنوان « المتفرنجون والإصلاح الإسلامى »

ولكن الحكومة اضطرت إلى العدول عن مشروعها لمعارضة رجال الدين له

* * *

ولما مات شبلى شميل سنة ١٩١٧ أقام له المعجبون به حفلة تأبين ، حضرها الشيخ محمد رشيد رضا وخطب فيها مادحا شبلى شميل . واقترح أحد الحاضرين إعادة طبع جميع مؤلفات شبلى وإذاعتها بين الناس . فحبذ رشيد رضا هذا الاقتراح وتحمس لتنفيذه ، لأنه كان يؤمن بأنه لا تعارض بين نظرية التطور وأصل الأنواع ، وبين ما جاء فى القرآن .

وأخذ يفسر آيات القرآن على هذا (١) الأساس . مثال ذلك قوله فى تفسير ما جاء فى أول سورة النساء وهو — يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها — حيث صرح بأن الله ذكر هذه النفس الواحدة ولم يعينها . فلكل أمة أن تفهم منها ما تعتقده ، وأنه لم يوجد فى القرآن

---

(١) الأفكار فى ١٦ ـ ٥ ـ ١٩١٧

نص أصولى قاطع على أن آدم أب لجميع البشر ، وأن اتفاق المسلمين على القول بذلك منشؤه تقليد اليهود ، وأن ماورد فى القرآن من قول — يا بنى آدم — يكفى فى فهمه أن يكون موجها فى زمن التنزيل إلى قوم يعتقدون أن أباهم آدم . وأن ماورد فى سورة البقرة فى قصة آدم وزوجه فقد ورد على سبيل التمثيل . وأن المباحث العلمية والتاريخية تعارض القول بأن آدم أب لجميع البشر . وأن النفس الواحدة تفسر هنا بالماهية الكلية لتشمل ما يقوله كل فريق من الباحثين فى هذه المسألة ، فيتفق القرآن مع القول بأنه قد كان قبل آدم آدمون كثيرون . وقد نقل عن الرافضة القول بتعدد آدم .

ثم ذكر أن النفس الواحدة يصح أن تفسر بأنها حيوان كالحيوانات الدنيا يلد عدة بطون بدون تلقيح . ويصح أن تفسر بأنها كانت جامعة لأعضاء الذكورة والأنوثة كالدودة الوحيدة ، ثم ارتقت فصار أفرادها زوجين .

وقد انبرى للرد عليه عبد الباقى سرور من رجال الأزهر . فقال إن رشيدا ارتكب شططا فى تأويل الآية لتتآخى مع نظرية التطور وأصل الأنواع . وأنه حرف الكلام عن مواضعه لأنه أوله تأويلا غير صحيح ، وهو لا ينطبق على الأصول الإسلامية .

وقال إن رشيدا أنكر النصوص التى وردت فى القرآن وهى تثبت أن آدم أب لجميع البشر . وذكر أن المباحث الحديثة تثبت أن الجنس البشرى يرجع بأسره إلى زوجين اثنين ، لا إلى عدة أصول . وقال : إن القول بأن القرآن ورد بمعان ترك تحديدها إلى ما لكل أمة من العادات والتقاليد يعد استهزاء بآيات الله وأنه أمر يخشى منه على العقائد ، إذ لامانع يمنع أى إنسان من أن يدعى تلك الدعوى فيما ورد من الآيات فى الإله وفى الرسل والدار الآخرة والصلاة والزكاة

وسائر التعاليم الإسلامية . وأن القول بأن ماورد فى قصة آدم وزوجه قد ورد على سبيل التمثيل ؛ من الأقاويل التى تعتبر تلاعبا بالعقائد الدينية ، لأنه يفتح باب القول بأن ما ورد فى شئون الدار الآخرة ومسائل الوحى والرسالة ؛ وارد كذلك على سبيل التمثيل .

وكتب عبد الباقى سرور مقالات كثيرة فى صحيفة « الأفكار » رد فيها على رشيد رضا وفند أقواله . وتهجم كل منهما على الآخر وتبادلا العبارات الجارحة مما أدى برشيد رضا إلى أن يرفع دعوى ضد عبد الباقى سرور ، اتهمه فيها بالقذف فى حقه ، وبأنه نسب إليه أمورا لوصحت لأوجبت تحقيره بين الناس

وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الطرفين .

***

وكانت مجلة « السفور » قد أوسعت صدرها لأقلام بعض المتشككين فى حقائق الأديان ، ومنهم منصور فهمى الذى كتب مقالا عنوانه « الشك[1] واليقين» جاء فيه «لست أنا ممن يؤمنون بالعقائد الذائعة بين الناس ، ولا أطمئن بعض الاطمئنان إلا لكل عقيدة ألقاها فى ضجة فكرية من التحاليل لأخلصها مما لا يمتزج بعناصر ذهنى . لقد أجد هذا الذهن العانى فى حركة تكاد لا تنقطع ، يتناول ما ينعم به الناس من الآراء فلا يسيغ له طعما ، ولكن ماضرنى ؟ » .

« ألست أنعم وأنا بين زوابع هذا الشك وإن وهم الناس أنه يؤلم النفوس ؟ ألست كهذا الملاح المكتشف تتناوب سفينته اللجج وتدفعها الأنواء ، وهو يعمل على تخليصها برباطة جأش زاعما أن النجاة فيما يعمل ؟ » .

---

(١) السفور فى ١٦ ــ ٢ ــ ١٩١٧ .

وكتب مقالا آخر جاء فيه [١] « أمور كانت حقائق عند أهل الفلك وأهل التشريح وأهل التاريخ وأشياع الدين ورجال الأخلاق . كانت تجرى فى دولة الحق وصولته ، فأصبحت تتعثر فى ثوب الأضاليل المستهانة والأباطيل المنبوذة » .

ونشر حسن الشريف الأبيارى فى صحيفة الأهرام بحوثا علمية يهدف بها إلى إنكار وجود الله . وكان حسن من تلاميذ شبلى شميل المعجبين به وبآرائه وأفكاره . فانبرت صحيفة الوطن القبطية [٢] وفندت أقواله ودافعت عن رسالة الأديان السماوية التى لا تنكر العلم ولا تجحد القوى الطبيعية ، ولا تكفر بالارتقاء العلمى . وقالت إنها لا تجد موجبا لحض الناس على نبذ الأديان اللهم إلا إذا كانت الغاية محاربة الأديان والتهجم عليها لعلة ولغير علة .

ودارت معارك حامية بين رشيد رضا وبين تلك الفئة من الكتاب . وانتصر الدكتور محمد حسين هيكل للملحدين وحمل على رشيد حملة شعواء واتهمه بالنفاق والكذب والاتجار فى الدين . قال مخاطبا الملحدين « كونوا أحرارا فى أفكاركم ، أحرارا فى عقائدكم ، أحرارا فى سعيكم إلى الإصلاح . وفوق هذا كونوا مخلصين فى حريتكم . وإن رموكم بالإلحاد فليعلم أى منكم مسه هذا القول أن المخلص فى إلحاده خير من المنافق فى إيمانه . إنما الإلحاد والإيمان ، والإسلام والنصرانية ؛ كلها ضروب من اليقين فى العقيدة يأخذ بها الرجل مخلصا لها إن وقر فى نفسه أنها الحق . أما النفاق والإفك وما يروجونه إلى جنب ذلك من الأباطيل ؛ فهى من مبتدعات النفس المخربة ، النفس الفاسدة » .

هذا بعض ما كتبه محمد حسين هيكل . وأى حق هذا الذى ينصرونه وأى إصلاح هذا ؟

---

(١) السفور فى ٢٣ ـ ٢ ـ ١٩١٢ .
(٢) الوطن فى ٨/١٠/١٩١٥ .

الذى كانوا يودون أخذ أمتهم به ؟ أهى آراء منصور فهمى ؟ أم آراء حسن الشريف ؟ وهل الدفاع عن الدين يعتبر من الأباطيل ؟ وهل المدافع عن دينه يعتبر منافقا ؟ وهل الرد على الملحدين من مبتدعات النفس المخربة ؟ ياللعجب !!

وقد ساهم بعض الشعراء فى هذه المعركة . قال زكريا [١] إبراهيم جزارين وكان متشككا :

أيا بدر يا ناشرا للهموم　　أجبنى فلى خاطر حائر
أفى الحق ما يزعم المؤمنون　　أم الحق ما يزعم الكافر ؟
وهل ينشر الناس بعد الفناء؟　　وهل لهمو عالم آخر ؟
وما غاية الكون فى خلقه ؟　　ومن هو ذا الخالق القادر ؟

وقال :

من لقلب يهيم فى الكون عان　　يتظنى خلوده وهو فان

وقال أحد الشعراء فى الرد على الملحدين [٢] :

أين الطغاة ذوو القلوب الكافره ؟　　فليرفعوا نحو العلاء الباصره
وليقرأوا تلك المقالات التى　　قد دبجت بيد الإله الفاطره
حيث السموات العلا قد صرحت　　علنا بأمجاد القدير الباهره
وكذلك الأفلاك أيضا خبرت　　بفعال يمنى ذا الإله القادره
يوم إلى يوم تذيع كلامها　　ليل إلى ليل لعام ناشره
إذ كلها صنعت بفائق علمه　　وكذاك تحفظها العناية ساهره

(١) السفور فى ١٧ – ١١ ، ١٩١٦/١٢/١ .
(٢) مصر فى ١٩١٦/٤/١ .

ويحا لقوم فى الظلام تخبطوا إذ قد أضلتهم عقول قاصره
قد أنكروا الرب الإله غباوة فهووا إلى أعماق رجس غامره
زعموا بأن وجوده وَهْم وقد جاءت به حيل الدهاة الماكره
لكن تكذبهم بإجماع الورى فى عصرنا أو فى العصور الغابره
قد جاهروا بالكفر والتعطيل رغ ما عن شهادات الوجود الوافره
قالوا بأن العلم ضد وجوده وهو المؤيد بالحجى والذاكره
ونسوا شهادات الجهابذة التى لله كانت من قديم ناصره
لم يرضخوا لضميرهم أو للعوا طف منتهين إلى عقائد خاسره
وأموره المستورة العظمى ترى منذ القديم عن الحقيقة سافره
والناس من زمن قديم أدركت قوات ذاك السرمدى الظاهره
أفلا تدل على الإله صراحة آثار مبروآته المتكاثره ؟
من رصع الفلك السنى بأنجم ضاءت بها كل البلاد العامره ؟
من أخرج الشمس البهية تزدهى مثل العرائس بالوجوه السافره ؟
من قد كسا بدر الدياجى بالضيا ومن الذى أعطى الجمال مظاهره ؟
متدرجاً بين المنازل جاعلا مداً وجزرا فى البحار الزاخره
من صير الجبار موثوق العرى ؟ وكذا الثريا أنجما متناثره ؟
من أوجد الشهب العجيبة فى العلا دوما على قدر تسير مثابره ؟
إن قلتم قد أوجدتها صدفة دورات ذرات الهبا المتواتره
قلنا : فمن جعل التوازن بينها حتى تظل على المناهج سائره ؟
إن قلتم جذبا ودفعا صيرا تلك الكواكب بانتظام دائره
قلنا : وأنى ألهمت هذا المدى ترعى له سننا وتعنو صاغره ؟
يا قوم عودوا للإله وآمنوا بمقالة الدين الكريم الطاهره
حتى تنالوا فى الحياة سلامة وثواب مجد فى الحياة الآخره

الباب الخامس

الحالة الأدبية

الفصل الأول

الأدب والسياسة

كانت الدعاية البريطانية فى مصر خلال الحرب العالمية الأولى تقوم على :

١ — إقناع الشعب المصرى بفضائل الإنجليز ومناقبهم ، وأن الاحتلال البريطانى رحمة ونعمة ، بينما الاحتلال الألمانى شر ومصيبة و بلاء .

٢ — الاستعمار البريطانى قائم على العدل والإنصاف ، وتصحبه دائما السعادة والرخاء والعمران . وعلى العكس من هذا الحكم الألمانى القائم على البغى والعدوان والظلم والطغيان ، والتخريب والتدمير .

٣ — على المصريين أن يلزموا الهدوء والسكينة ، ويحمدوا الله لأنهم يعيشون فى دعة وأمن وطمأنينة ، فى حين أن أوروبا قد خربتها الحرب وأهلكت رجالها ، وقضت على الحرث والنسل .

٤ — الإشادة بثقافة فرنسا ومدنيتها وحضارتها كوسيلة لاستدرار عطف الشعوب وكسبها إلى جانب الحلفاء . وفى مقابل هذا التشنيع على الألمان ووصفهم بالتوحش والهمجية والتعطش إلى سفك الدماء . والاستدلال على ذلك بما أحدثوا فى البلجيك من التخريب والتدمير .

٥ — اتهام إمبراطور الألمـان غليوم الثانى بأنه هو الذى أشعل نيران هذه الحرب ، وهو المسئول عنها وعن كل ما ترتب عليها من خسائر فى الأرواح والأموال والممتلكات . وأن غليوم هو السبب فى كل ما يشعر به المصريون من ضيق ، وما حدث من غلاء وتعطل فى الأعمال .

٦ — إن الألمـان غرروا بالترك وخدعوهم وجروهم معهم إلى الهـاوية . وأنهم يرغبون فى إعادة مصر إلى حكمهم البغيض طمعاً فى خيراتها .

٧ — أن الحمـاية البريطانية ضرورية لوقاية مصر من شر الغزو الأجنبى ، لأن مصر لهـا حدود مترامية الأطراف ، وليست لها مقدرة مالية على الاحتفاظ بجيش قوى للدفاع عن هذه الحدود . ولا هى تمتلك مصانع للأسلحة الحديثة . وشراء هذه الأسلحة يتطلب ملايين الجنيهات ، وهذا شىء لا تستطيع مصر النهوض به . فلو فرض وخرج الإنجليز فلا بد أن دولة أخرى ستغزو مصر وتحتلها وهذه الدولة ليست كالإنجليز فى الرحمة والعدل وحب الإنشاء والتعمير . وعلى هذا فليس فى الإمكان أبدع ممـا كان . وعلى المصريين أن يسجدوا لله شـكراً على نعمة الحماية البريطانية . ولو فرض وأراد الإنجليز الجلاء عن مصر فالواجب على المصريين أن يتعلقوا بأذيالهم ويتوسلوا إليهم للعدول عن الجلاء والاستمرار فى احتلالهم للبلاد .

وكان أحمد شوقى أمير الشعراء وكبيرهم وصاحب الصوت المسموع فيهم معروفاً بعدائه للاحتلال البريطانى . وكان حين قيام الحرب متغيباً فى الأستانة مع الخديوى عباس . ولـكنه لم يتفق مع مولاه فى اتجاهاته السياسية فانفصل عنه وعاد إلى مصر فدل بذلك على أنه من أنصار الإنجليز ، فتركوه وشأنه ولم يتعرضوا له بسوء ، واستمر يؤدى عمله فى القصر . وقد أراد هو أن يقطع شك

الإنجليز فى حقيقة أمره ، فنشر قصيدة فى صحيفة الأفكار بتاريخ ٥ من أكتوبر سنة ١٩١٤ تحت عنوان « باريس » جاء فيها .

ولقد أقول وأدمعى منهـلة باريس لم يعرفك من يغزوك
ما خلت جنات النعيم ولا الدمى ترمى بمشهود النهار سفوك
زعموك دار خلاعة ومجانة ودعارة ، يا إفك ما زعموك
إن كنت للشهوات ريا فالعلا شهواتهن مرويات فيك
تلدين أعلام البيان كأنهم أصحاب تيجان رقاة أريك
فاضت على الأجيال حكمة شعرهم وتفجرت كالكوثر المعروك
والعلم فى شرق البلاد وغربها ما حج طالبه سوى ناديك
العصر أنت جماله وجلاله والركن من بنيانه المسموك
أخذت لواء الحق عنك شعوبه ومشت حضارته بنور بنيك
وخزانة التاريخ ساعة عرضها للفخر خير كنوزها ماضيك
ومن العجائب أن واديك الشرى ومراتع الغزلان فى واديك
يا مكتبى قبل الشباب وملعبى ومقيل أيام الشباب النوك[1]
ومراح لذاتى ومغداها على أنق كجنات النعيم ضحوك
وسماء وحى الشعر من متدفق سلس على نول السماء محوك
لما احتملت لك الصنيعة لم أجد غير القوافى ما به أجزيك
إن لم يَقُوك بكل نفس حرة فالله جل جلاله واقيك

وهذا شعر جيد تغذيه عواطف قوية ومشاعر متدفقة . فشوقى تلقى ثقافته

(١) النوك : جمع أنوك وهو الأحمق .

فى باريس ، وعاش فيها متمتعاً بجمال الإنسان ، وجمال الطبيعة ، ففتنته بأضوائها وبهرته بعلمها وثقافتها ، وحضارتها ومدنيتها . كان شوقى من عشاق باريس والمغرمين بها ، والمحبين لها حباً ملك عليه جوارحه وانعكس صداه فى هذا الشعر الرائع . وكان الكلام على حضارة فرنسا وثقافتها ـ كما ذكرنا ـ سلاحاً من أسلحة الدعاية التى استخدمها الحلفاء لكسب القلوب واستدرار عطف الشعوب .

وقد عرض شوقى فى هذه القصيدة بالألمان ،وشنع عليهم لفظائعهم التى ارتكبوها فى البلجيك . وهو بهذا قد أرضى الإنجليز ونال ثقتهم . والانتصار للإنجليز ضد الألمان أمر لا غبار عليه .

* * *

وفى ١٨ نوفمبر سنة ١٩١٤ نشرت له صحيفة المؤيد قصيدة أخرى تحت عنوان « نصيحة خليفة المتنبى لقومه بمناسبة الحالة الحاضرة ، وحظ المسلمين من الحرب » وقدمت لها بقولها :

« لخليفة المتنبى وشاعر المشرقين سعادة أحمد شوقى بك أياد بيضاء على الأدب اعترف بها القاصى والدانى . وله جولات فى عالم الخيال والحقيقة لم ينازعه فيها منازع ، ولم يجرؤ أن يصارعه فيها مصارع » .

« والناطقون بالضاد ينتظرون كبرى الحوادث ليسمعوا قوله المفيد ويلتقطوا دره النضيد ؛ ليعرفوا مبلغ ما وهب الله لهذا الشاعر من الخيال فى شعره ، وليسيروا على أثره فى قوله وفعله » .

« ولقد كان للأمة المصرية من الحوادث الجارية فى العالم نصيب من استماع تغريد ذلك المفوه الحكيم ، اعتبرته سلوتها ، واتخذته قدوتها فى السير إلى طريق مستقيم ، به تبلغ القصد ، وتنال المنى » .

ونشرتها صحيفة الأفكار فى التاريخ المذكور تحت عنوان : « فرائد شوقى » وقدمت لها بكلمة جاء فيها « .. وإنا نزف إلى القراء إحدى فرائده التى جاد بها على أمته فى هذه الآونة الحاضرة التى صمت فيها كل قائل ، وتضاءل لديها كل شاعر » قال :

دع ما يضرك والتمس ما ينفع ... واختر لنفسك مايزين ويرفع
واسمع لقول العقل لا قول الهوى ... إن الهوى لضلالة لا تتبع
واجعل شبابك من هواك بمأمن ... إن الشباب هو العنان الأطوع
واعلم فقدما للممالك فتحت ... بالعلم أبواب السعادة أجمع
إن الشعوب إذا أرادوا نهضة ... بذرائع العلم الصحيح تذرعوا
وانظر بعين فى الأمور جلية ... لا تثبت الأشياء عين تدمع
مما أحب به الرجال بلادهم ... أن يحسن الإنسان فيما يصنع
واحفظ على مصر السكينة إنها ... روض بأفياء السكينة ممرع
وصن اليدين عن الدماء فإنها ... فى البغى أوخم ما تكون المرتع
القتل من خلق الذئاب وشهوة ... فى الرأس يركبها الجبان فيشجع
برئ العباد من الشرائع كلها ... إن كان قتل النفس مما يشرع

ارتدى أحمد شوقى فى هذه الأبيات ثياب الشيخ الحكيم الذى ينقاد للعقل ويعرض عن الهوى . واستخدم شاعريته فى دعوة قومه إلى التزام الهدوء والسكينة وترك نزق الشباب . وهو بهذا قد أرضى الإنجليز الذين كانوا متخوفين من قيام الثورة ضدهم . والدعوة إلى التزام الهدوء فى الوقت الذى اشتد فيه طغيان الإنجليز وعسفهم ، ومصادرتهم للحريات ، واعتقالهم لرجال الحزب الوطنى ؛ هذه الدعوة

لها قيمتها وخطرها عند الإنجليز ، لأنها تحمل فى طياتها الاستسلام للمحتلين ، والرضى عن قبائحهم ومظالمهم التى انهالت على الشعب دون أدنى مراعاة للمشاعر الوطنية . وقد أراد شوقى أن يثبت للانجليز أنه معهم قلباً وقالباً ، فجرى لسانه بهذا الشعر .

ومنها وفيه تعريض بالعثمانيين :

نزل البلاء وحل طوفان دم   بالمسلمين سماؤه لا تقلع
كانوا بظل السلم ، لا بهلالهم   شر يراد ولا حماه مروع
لولا قضاء الله ما خاضوا الوغى   إن القضاء إذا أتى لا يدفع
تلك العوان على الشديد شديدة   أين السيوف لمثلها والأدرع ؟
ماذا اندفاع المسلمين بموقف   الغالب المنصور فيه مضعضع ؟

وهو فى هذه الأبيات يرضى الإنجليز أيضاً ويتطوع بالترويج للدعاية البريطانية فيما يتعلق بالعثمانيين . ويقول إنهم كانوا يرتعون فى بحبوحة السلم ، لم يفكر أحد فى الاعتداء عليهم ، ولكن الألمان قد غرروا بهم وجروهم إلى حرب سيكون فيها هلاكهم .

وقد فات شوقى كما فات غيره من رجال الأدب والسياسة ، أن روسيا لم تدخل الحرب إلى جانب الحلفاء ، ولم تعقد المحالفة العسكرية بينها وبين فرنسا وانجلترا إلا نظير ثمن باهظ ، وهو الحصول على شمال تركيا بما فى ذلك الأستانة والدردنيل والبسفور . ولو بقيت روسيا إلى جانب الحلفاء حتى النصر لحصلت من غير شك على هذا الثمن ، سواء دخلت الدولة العلية الحرب أم لم تدخل .

ومع أن العثمانيين لم يكونوا توغلوا فى القتال بعد ، ولم يكونوا قد سيروا

حماتهم على مصر ، إلا أن شوقى أراد أن يقتل الروح المعنوية فى قلوب المتحمسين للعثمانيين من أبناء مصر ، فقال إن هؤلاء القوم ضعاف لا حول لهم ولا قوة ، ولا طاقة لهم على احتمال هـذه الحرب التى تنوء بأعبائها الدول القـوية والإمبراطوريات العظيمة . وقال إن العثمانيين سيهزمون حتما ، ولن تقوم لهم قائمة بعد ذلك . وكان الرأى العام فى مصر يتشيع لدولة الخلافة ، وينتصر لآل عثمان بحكم الروابط الدينية . وليس هناك أفضل من هذا الشعر فى تثبيط همم المتشيعين لدولة الخلافة ، والقضاء على آمالهم . وفى هذا إرضاء للإنجليز الذين كانت دعايتهم تتجه هذا الاتجاه وبهذه القصيدة يكون شوقى قد تبرأ من العثمانيين ونفى عن نفسه تهمة الانحياز إلى جانبهم ، وأعلن رأيه صريحا الذى ينحصر فى موالاة الإنجليز ، ومساعدتهم ضد الغزو العثمانى المرتقب ، وذلك بالدعوة إلى التزام السمع والطاعة ، والخلود إلى الهدوء ، وعدم التفكير فى الثورة ضدهم أو الاحتجاج على أعمالهم حتى يمكنهم أن ينتصروا على الغزاة .

* * *

ونشرت له صحيفة مصر فى ٤ ديسمبر سنة ١٩١٤ جانبا من قصيدة[١] تحت عنوان « شاعر الشرق يخاطب المصريين والإنجليز » . وهو :

يا أهل مصر جرى القضاء بلطفه   وأراد أمراً بالبلاد فكانا
إن الذى أمر الممالك كلها   بيديه أحدث فى الكنانة شانا
أبقى عليها عرشها فى برهة   ترمى العروش وتنثر التيجانا

---

(١) هـذه الأبيات موجودة فى ديوانه ضمن قصيدة تحت عنوان : « الصليب الأحمر » .

وكسا البلاد سكينة من أهلها ووقى من الفتن العباد وصانا
أو ما ترون الأرض خرب نصفها وديار مصر لا تزال جنانا
يرعى كرامتها ويمنع حوضها جيش يعاف البغى والعدوانا
كجنود عمرو أينما ركزوا القنا عفوا يدا ومهندا وسنانا
إن الشجاع هو الجبان عن الأذى وأرى الجرىء على الشرور جبانا
أم الحضارة أنتمو آباؤنا منكم أخذنا العلم والعرفانا
بنيان إسماعيل بعد محمد كانت مساعيكم له أركانا
رقت لكم منا القلوب كأنما جرحاكمو يوم الوغى جرحانا
ومن المروءة وهى حائط ديننا أن نذكر الإصلاح والإحسانا
ولئن غزا كم من ذوينا معشر فلرب إخوان غزوا إخوانا
حتى إذا الشحناء نامت بينهم لم يعرفوا الأحقاد والأضغانا

كان شوقى بحكم عمله فى القصر قد علم منذ أول ديسمبر بعزم الإنجليز على خلع عباس وإعلان الحماية ، وتولية حسين كامل سلطانا على مصر . فنظم هذه القصيدة داعيا فيها المصريين إلى الرضا بما جرت به المقادير . وقال إن الله لطف بمصر فحفظ لها عرشها فى وقت تهاوت فيه العروش وتساقطت التيجان . وأن الله وقى مصر من الفتن والثورات ، وأحاطها بالسكينة والهدوء . وبينما الحرب قد خربت نصف العالم ، إذا بمصر آمنة مطمئنة متمتعة برغد العيش كأنها جنة فيحاء تجرى من تحتها الأنهار .

وتغنى بفضل جنود الاحتلال الذين يحافظون على كرامة مصر ،ويذودون عن حياضها ، ويدفعون عنها شر العدوان ، وقال إنهم فى سمو أخلاقهم وعفتهم

وطهارتهم يشبهون جيش عمرو بن العاص الذى كان يضم عددا كبيرا من الصحابة والتابعين . وقال إن من الشجاعة الكف عن إلحاق الأذى والضرر بالناس ، وأما الذى يندفع فى ارتكاب الشرور فهو الجبان حقا .

ومدح الإنجليز ووصفهم بأنهم منبع الحضارة والعلم والعرفان ، وقال إن المصريين تتلمذوا عليهم . والإنجليز هم الذين دعموا بنيان إسماعيل حين اختاروا حسين كامل سلطانا لمصر . وتكلم عن إخلاص المصريين للإنجليز ومشاركتهم لهم فى آلامهم . وقال إن المروءة التى هى أساس الدين الإسلامى تفرض علينا الاعتراف بجميل الإنجليز ، وبأعمالهم العظيمة التى قاموا بها فى مصر إبان احتلالهم لها . وهون من شأن الحرب القائمة بين العثمانيين والإنجليز ، وقال إن الحرب كثيرا ما تنشب بين الأقارب والإخوة ، حتى إذا ما انتهى القتال رجع الصفاء يغمر قلوب الإخوان ، وإذا العداوة كأنها لم تكن .

وهو فى هذه القصيدة قد أرضى الإنجليز إلى حد بعيد ، وقام بدور الداعية إلى قبول الانقلاب المنتظر .

إن انتصار أحمد شوقى للإنجليز ضد الألمان والعثمانيين أمر لا غبار عليه ، ولكن دعوته المصريين إلى الاستسلام والرضوخ المطلق لأعمال الإنجليز و بغيهم وعسفهم ، وتجاهله لما كان يقع من جنود الاحتلال من عدوان على الشعب الأعزل ومن نهب وسلب واغتصاب للأموال والأعراض ، ووصف هؤلاء اللصوص بأنهم كجنود عمرو بن العاص عفة وطهارة ؛ فهذا أقل ما يوصف به أنه تنكر للوطن ، ومخالفة للذمة والضمير ، بل هى الخيانة الوطنية بعينها وحاجبها ! !

ولما انتهى الأمر بخلع عباس وتولية السلطان حسين ؛ نظم شوقى قصيدة في مدح السلطان نشرتها بعض الصحف اليومية فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، ومما جاء فيها :

حلفاؤنا الأحرار إلا أنهم أرقى الشعوب عواطفا وميولا
أعلى من الرومان ذكرا فى الورى وأعز سلطانا وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحا فى البلاد عدولا

كان أحمد شوقى يرجو أن يظل فى وظيفته أو على الأقل فى وطنه ، فتجاهل كل الاعتبارات الوطنية ولم ير بأسا من الكذب فأسند إلى المحتلين كل منقبة وعزا إليهم كل فضيلة .

ولكن هذه القصيدة وإن كان فيها ما يرضى الإنجليز ويطربهم ، إلا أن شوقى قد أغضب السلطان بما أورد فيها من إشارات تاريخية سيأتى الكلام عليها . ولم يشفع له الإنجليز عند السلطان ليبقيه فى منصبه .

ومنها :

سبحان من لا عز إلا عزه يبقى ولم يك ملكه ليزولا
لا تستطيع النفس فى ملكوته إلا رضا بقضائه وقبولا
الخير فيما اختاره لعباده لا يظلم الله العباد فتيلا
يا ليت شعرى هل يحطم سيفه للبغى سيفا فى الورى مسلولا ؟
زال الشباب عن الديار وخلفوا للباكيات الثكل والترميلا
طاحوا فطاح العلم تحت لوائهم وغدا التفوق والنبوغ قتيلا

فى هذه الأبيات يحاول شوقى أن يسكن النفوس المضطربة ، والخواطر

الثائرة . فقال إن ما حدث كان بقضاء الله وقدره . وعلى الإنسان أن يرضى بما جرت به المقادير ، لأنه أعجز من أن يتغلب عليها أو يحول مجراها . ثم تمنى أن يتحطم سيف البغى والعدوان، وأن ينتصر الحق على الباطل . وبكى على الشباب الذين أهلكتهم الحرب وطحنتهم برحاها فخلوا الثكل للأمهات والترمل للزوجات وقال إن دور العلم أقفرت منهم وانقضى النبوغ بموتهم .

ومنها :

الله يشهد ما كفرت صنيعة في ذا المقام ولا جحدت جميلا
وهو العليم بأني قلبي موجع وجعا كداء الثاكلات دخيلا
مما أصاب الخلق في أبنائهم ودها الهلاك ممالكا وقبيلا

أراد شوقي أن يبرئ نفسه من تهمة التنكر لمولاه وولى نعمته عباس فقال إنه لم يتنكر له ، ولم يكفر نعمته ، بل هو معترف بها ، ولكن عباس أخطأ فى نظره لأنه طاوع هواه ولو أنه حكم عقله لما فقد عرشه . وإن كان شوقي يبكى فى هذه الأبيات على ما أصاب العالم من ويلات الحرب ، وما أصاب الآباء والأمهات من الفجيعة بفقد الأبناء إلا أنه كان فى الواقع يبكى على نفسه التى فجعت بفقد مولاها وولى نعمتها ، وكان يبكى على مستقبله الذى بات مظلما أمامه .

ومنها :

رؤيا على يا حسين تأولت ما أصدق الأحلام والتأويلا
وإذا بناة المجد راموا خطة جعلوا الزمان محققا ومنيلا
القوم حين دها القضاء عقولهم كسروا بأيديهم لمصر غلولا
هدموا بوادى النيل ركن سيادة لهمو كبيت العنكبوت ضئيلا

وقد جاء فى هامش الشوقيات عن البيت الأول أن محمد على كان يحلم بإنشاء مملكة مستقلة عن الدولة العثمانية وأن هذا الحلم قد تحقق بولاية السلطان حسين. ولكن عباس محمود العقاد ذكر لى أن علياً المذكور فى هذا البيت هو على الليثى شاعر إسماعيل ونديمه . وقد رأى مناماً أخبر به الخديو وفسره له ومضمونه أن ثلاثة من أبناء إسماعيل يتولون ملك مصر . وهذا فى الوقت الذى كان إسماعيل يسعى لحصر الملك فى أكبر أبنائه ، ولم يكن واثقا من نجاح مساعيه . فاستبشر بمنام على الليثى . ومن العجيب أن هذا المنام قد تحقق بتولية توفيق ، ثم حسين ثم فؤاد .

ومنها :

يا أكرم الأعمام حسبك أن ترى للعبرتين بوجنتيك مسيلا
من عثرة ابن أخيك تبكى رحمة ومن الخشوع لمن حباك جزيلا
ولو استطعت إقالة لعثاره من صدمة الأقدار كنت مقيلا

ومن المعروف أن السلطان حسين قد طعن فى العصر السابق لعصره ، وقال إن المصريين كانوا فى حيرة ، ولم يعرفوا إلى أى جهة يتجهون : هل يتجهون إلى الخديو ، أم إلى المعتمد البريطانى ، أم إلى الحكومة المصرية ؟ وزعم أن هذه الحيرة قد زالت حينما وضعت مصر تحت الحماية . فشوقى هو الذى بكى وهو الذى ناح على ما حدث للخديو . ولم يستطع أن يصرح بذلك فادعى أن السلطان بكى رحمة على ما حدث لابن أخيه .

ومنها

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم فالله خير حافظا ووكيلا

جرت الأمور مع القضاء لغاية وأقرها من يملك التحويلا
أخذت عنانا منه غير عنانها سبحانه متصرفا ومديلا

وهو فى هذه الأبيات يحاول أن يخفف من آلامه وأحزانه ، فدعا نفسه ودعا المصريين إلى الرضا بما حدث ، ونصحهم بأن يتركوا أمرهم لله ، فحسبهم الله ونعم الوكيل . وقال إن ما جرى كان لحكمة أرادها الله المتصرف فى كل شىء . ثم عرض بعصر الخديو عباس فقال :

هل كان ذاك العهد إلا موقفا للسلطتين وللبلاد وبيلا ؟!
يهتز كل ذليل أقوام به وعزيزكم يلقى القياد ذليلا
دفعت بنا فيه الحوادث وانقضت إلا نتائج بعدها وفصولا
وانفض ملعبها وشاهده على أن الرواية لم تتم فصولا

أشار فى هذه الأبيات إلى ما كان من خلاف مستحكم بين السلطة الشرعية التى يمثلها الخديو ، والسلطة الفعلية التى يمثلها المعتمد البريطانى . وقال إن الخديو كان يضطر فى النهاية إلى الاستسلام للإنجليز . وقال إن الملعب وإن كان قد خلا من اللاعبين ، إلا أن شواهد الأحوال تدل على أنه لا تزال للرواية بقية فصول ستمثل إن لم يكن اليوم فغداً .

ثم ألقى على المصريين تبعة ما حدث ، قال :

فأدمتمو الشحناء فيما بينكم ولبثتمو فى المضحكات طويلا
كل يؤيد حزبه وفريقه ويرى وجود الآخرين فضولا
حتى انطوت تلك السنون كناعب وفرغتمو من أهلها تمثيلا
وإذا أراد الله أمراً لم تجد لقضائه رداً ولا تبديلا

من الخطأ التاريخي العظيم أن نلقى على عاتق المصريين تبعة وضع مصر تحت الحماية ، ونعزو تلك المحنة إلى انقسامهم وتفرقهم . وذلك لأن الإنجليز كانوا يحكمون مصر منذ سنة ١٨٨٢ كأنها إحدى مستعمراتهم وقد انتهزوا فرصة وقوع الحرب بينهم وبين العثمانيين وأعلنوا الحماية ، وكان فى نيتهم إعلانها منذ حادثة « طابا » سنة ١٩٠٦ كما مر بنا . ثم إن الأحزاب كان قد انتهى أمرها منذ رحيل محمد فريد سنة ١٩١٢ ، ولكن هل كان شوقى يستطيع أن يقول غير ما قال ؟

ولما نشرت هذه القصيدة كثر اللغط حول الشاعر . وقد ذكرت الصحف فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩١٤ أن أحمد شوقى سيحال على المعاش ابتداء من أول يناير سنة ١٩١٥ بناء على طلبه مراعاة لصحته .

وفى أوائل يناير سنة ١٩١٥ دعته النيابة العامة للتحقيق معه فيما جاء بهذه القصيدة من المغامز السياسية . قالت صحيفة الوطن فى ١١ ـ ١ ـ ١٩١٥ تحت عنوان « التحقيق مع أحد كبار الشعراء » « الذى نقل إلينا ولم تنشر إليه الجرائد أن بعض السلطات يحقق فى هذين اليومين مع واحد من كبار الشعراء لنشره قصيدة فيها بعض المغامز السياسية والإشارات إلى بعض الحوادث التاريخية مما لا يصح نشره فى الوقت الحاضر »

وقد ذكر لى عباس محمود العقاد أنه سأل شوقى عن موضوع التحقيق فقال إنه فى قوله :

وانفض ملعبها وشاهده على ... أن الرواية لم تتم فصولا

وذلك أن شوقى كان يعتقد أن تولية حسين مؤقتة ، وأن عباس سيعود إلى

عرشه ، ولكن كيف يتم ذلك ؟ هل عن طريق العثمانيين و بذلك تكمل فصول الرواية ؟ أم عن طريق آخر ؟

وفى القصيدة أبيات يبدو أن السلطان لم يرتح إليها ، كقوله:

يا أكرم الأعمام حسبك أن ترى   للعبرتين بوجنتيك مسيلا
من عثرة ابن أخيك تبكى رحمة   ومن الخشوع لمن حباك جزيلا

وتكثر فى القصيدة ألفاظ الدموع والبكاء والعبرات ، علاوة على جو الحزن الذى يشيع فى جانب كبير من أبياتها مما لا يناسب موقف التهنئة والمدح . ولم تكن العلاقات على ما يرام بين حسين كامل وأحمد شوقى ، فقد سبق أن عرض به فى قصيدته التى نظمها حينما غادر كرومر مصر سنة ١٩٠٧ وكان حسين كامل رئيسا لحفلة الوداع . فقد قال فيها :

فى ملعب للمضحكات مشيد   مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد الحسين عليه لمن أصوله   وتصدر الأعمى به تطفيلا

وبعد أن حققت معه النيابة وأطلقت سراحه لزم داره بالمطرية . ولم يمدح السلطان بعد ذلك ، ولم يهنئه بمناسبة نجاته من الاغتيالات التى دبرت ضده ، وظل ساكتا لا يسمع صوته ، فلما ألقيت القنبلة على السلطان فى الإسكندرية فى شهر يوليو سنة ١٩١٥ اشتطت حكومة حسين رشدى فى إلقاء القبض على الناس والتحقيق معهم . ورأت الفرصة مواتية للانتقام من شوقى ، ففى أوائل أغسطس سنة ١٩١٥ كلفته بمغادرة القطر المصرى . فسافر فى يوم ٥ منه إلى بور سعيد مصحوبا بزوجته وأولاده و بعض خدمه . ومن هناك استقل باخرة أسبانية نقلته إلى ميناء برشلونة بأسبانيا حيث استقر به طوال وقت الحرب . وقد أشار إليه

نفى حكومة حسين رشدى له بقوله « نفانا حكام عجم ، أعوان العدوان والظلم . خلفناهم يفرحون بذهب اللجم ، ويمرحون فى أرسان يسمونها الحكم »

« ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه . سامحهم فى حقوق الأفراد ، وسامحوه فى حقوق البلاد . وما ذنب السيف إذا لم يستح الجلاد ؟ »

وقوله «حكام عجم» أى يشبهون الحيوانات الأعجمية ؛ لأن شوقى من أصل تركى كحسين رشدى وكحسين كامل .

ولما مات السلطان حسين لم يرثه شوقى فى حين أنه رثى كتشنر لما غرق. ولم يرث حسين رشدى حينما مات سنة ١٩٢٨ مع أنه رثى جميع رؤساء الوزارات الذين شهد موتهم .

وفى سنة ١٩١٩ سمح له الإنجليز بالعودة إلى وطنه ، ولكن حكومة مصر[١] لم تسمح له بذلك فتأخر حضوره مدة من الزمن .

* * *

وفى أسبانيا نظم قصيدتين مدح فيهما الإنجليز بمثل ما اعتاد أن يمدحهم به . الأولى منشورة فى ديوانه تحت عنوان «ذكرى شكسبير»[١] وقد نظمها فى شهر مارس سنة ١٩١٦ ومما جاء فيها :

أعلى الممالك ما كرسيه الماء ... وما دعامته بالحق شماء
يا جيرة المنش حلاكم أبوتكم ... مالم يطوق به الأبناء آباء
ملك يطاول ملك الشمس ، عزته ... فى الغرب باذخة ، فى الشرق قعساء

(١) أبى شوقى ص ٤٥

تأوى الحقيقة منه والحقوق إلى ... ركن بناه من الأخلاق بناء
أعلاه بالنظر العالى ونطقه ... بحائط الرأى أشياخ أجلاء
وحاطه بالقنا فتيان مملكة ... فى السلم زهر ربى ، فى الروع أرزاء
يستصرخون ويرجى فضل نجدتهم ... كأنهم عرب فى الدهر عرباء
ودولة لا يراها الظن من سعة ... ولا وراء مداها فيه علياء
عصماء لا سبب الرحمن مطرح ... فيها ولا رحم الإنسان قطعاء
تلك الجزائر كانت تحتهم ركنا ... وراءهن لباغى الصيد عنقاء
وكان ودهم الصافى ونصرتهم ... للمسلمين وراءيهم كما شاءوا

الخ . . .

وقال يرثى كتشنر لما غرق فى شهر يونيو[1] سنة ١٩١٦ :

فامض شيخا فى هوى المجد قضى ... رحمة المجد ورفقا بالكبر
أنتمو القوم حمى الماء لكم ... يرجع الورد إليكم والصدر
لجج الدأماء أوطان لكم ... ومن الأوطان دور وحفر
لست فى البحر وحيدا فاستضف ... فيه آباءك تنزل بالدرر
رسبوا فيه كراما وطفا ... طائف النصر عليهم والظفر
نشأ النيل إليكم سيرة ... لكمو فيها عظات وعبر
اقرأوها يكشف العصر لكم ... كل عصر برجال وسير
لا تقولوا شاعر النيل غوى ... من يغالط نفسه لا يعتبر

الخ .....

---

١ ديوانه ٣ / ٢٠٠ .

وفى قوله « لا تقولوا شاعر النيل غوى » أى لا تصدقوا فى ما اتهمنى به حسين رشدى من أنى أعمل ضد حكومته الموالية لكم . فأنا مخلص لكم فى السر والعلن ، وسواء كنت فى مصر أو بعيدا عنها .

* * *

وقد فتح أحمد شوقى الباب على مصراعيه أمام الشعراء ، وجرأهم على مدح الإنجليز والتسبيح بحمدهم ، والتغنى بمناقبهم وفضائلهم التى لا مثيل لها . فها هو حافظ إبراهيم يقول من قصيدة فى مدح السلطان :

ووال القوم إنهم كرام ميامين النقيبة أين حلوا
لهم ملك على التاميز أضحت ذراه على المعالى تستهل
وليس كقومهم فى الغرب قوم من الأخلاق قد نهلوا وعلُّوا
فإن صادقتهم صدقوك ودا وليس لهم إذا فتشت مثل
وإن شاورتهم والأمر جد ظفرت لهم برأى لا يزل
وإن ناديتهم لباك منهم أساطيل وأسياف تسل
فمادهم حبال الود وانهض بنا فقيادنا للخير سهل

لا شك فى أن الدعاية البريطانية فى مصر قد كسبت كثيراً بمثل هذا الشعر الذى صدر عن كبار الشعراء . فإن هؤلاء بما كان لهم من قراء معجبين بشعرهم ، وبما كان لهم من صوت مسموع قد عملوا على تخدير الرأى العام وتسكينه فى وقت اشتداد الضائقة على الإنجليز . فقد كان العثمانيون يعدون العدة لغزو مصر ، وكانت الجيوش البريطانية تتجرع كأس الهزيمة فى كل مكان . فلو لم يعتصم المصريون بالهدوء لما استطاع الإنجليز أن يتغلبوا على الصعوبات

التى أحاطت بهم فى مصر . وكان الشعب يغلى بالثورة لما يلاقيه من عسف المحتلين وطغيانهم . والشبان على استعداد للتضحية بأرواحهم فى سبيل الوطن . فدعوة الشعب إلى التزام الهدوء من رجال مسموعى الكلمة مثل شوقى وحافظ كان فى ذلك الوقت أكبر خدمة تؤدى للإنجليز فى هذه الضائقة . وحافظ ينصح السلطان بأن يكون للإنجليز الصديق المخلص الوفى الأمين . وأن يشاورهم فى الأمور قبل أن يبت فيها . ولم يكن السلطان فى حاجة إلى هذه النصيحة التى تطوع بها حافظ إرضاء للإنجليز وتملقا لهم . وهو تملق رخيص يدل على نفسية متخاذلة . .

وقال حافظ مخاطباً مكماهون :

أى « مكمهون » قدمت بالـ قصـد الحميـد وبالرعايه .
ماذا حملت لنا عن الـ ملك الكبير وعن «غراية»[1] !
أوضح لمصر الفرق ما بين السيادة والحمايه
وأزل شكوكا بالنفو س تعلقت منذ البدايه
ودع الوعـود فإنهـا فيما مضى كانت روايه
أضحت ربوع النيل سلـ ـطنة وقد كانت ولايه
فتعهـدوها بالصـــــلا ح وأحسنوا فيها الوصايه
إنا لنشكو واثقيـ ـن بعدل من يشكى الشكايه
نرجو حياة حرة مضمونة فى ظل رايه
ونروم تعليما يكو ن له من الفوضى وقايه
ونود ألا تسمعوا فينا السعاية والوشايه

---

(١) اللورد غراى : وزير خارجية انجلترا فى ذلك الوقت.

أنتم أطباء الشعوب ، وأنبل الأقوام غايه
أنى حللتم فى البلاد لكم من الإصلاح آيه
رسخت بناية مجدكم فوق الروية والهدايه
وعدلتم فلكتم الدنيا ، وفى العدل الكفايه
إن تنصروا المستضعفين فنحن أضعفهم نكايه
أو تعملوا لصلاحنا فتداركوه إلى النهايه
إنا بلغنا رشدنا والرشد تسبقه الغوايه
لا تأخذونا بالكلام ، فليس فى الشكوى جنايه
هذا « حسين » فوق عرش النيل تحرسه العنايه
هو خير من يبنى لنا فدعوه ينهض بالبنايه

وهكذا جرى حافظ فى أثر شوقى فمدح الإنجليز وأطراهم ، ووصفهم بالعدل الذى هيأ لهم أن يملكوا الدنيا ويتحكموا فى الشعوب . فهم لم يستعمروا الأمم إلا ليقيموا منارة العدالة بين ربوعها . وهذا من الضلال الكبير الذى روجت له الدعاية البريطانية ، وآمن به بسطاء الأحلام وضعفاء العقول من أمثال حافظ إبراهيم . لم يقرأ هؤلاء تاريخ الاستعمار البريطانى فى الهند والملايو وغيرهما من الأقطار الأفريقية والآسيوية التى نكبت بهذا النوع من الاستعمار . ولم يقرأوا عن الشركات الاحتكارية التى قامت فى تلك الجهات لامتصاص دماء شعوبها . والإنجليز بنوع خاص لم يعنوا بنشر ثقافة أو حضارة ، وَإنما عنوا بأن تكون مستعمراتهم أسواقاً تجارية وَقفاً عليهم دون سواهم .

وطلب حافظ من مكماهون أن يشرح له الفرق بين السيادة والحماية . ثم قال إن مصر تقدمت خطوات إلى الأمام ، فقد كانت قبل الحماية ولاية ، ولكنها

فى عهد الحماية ارتقت رقياً عظيما فصارت سلطنة . و بعد أن كان الجالس على عرشها يلقب بسمو الخديوى ؛ أصبح يلقب بحضرة صاحب العظمة السلطان . و إذن تكون مصر قد قطعت شوطاً بعيداً فى طريق الاستقلال ! !

وتكلم عن مطالب مصر كما تصورها وهى مطالب متواضعة ، ورجا من الإنجليز أن يعملوا على تحقيقها . وأول هذه المطالب : حياة حرة ، واعتقد أن هذا الطلب لا يتعارض مع وجود الحماية . أو هو يريد الحرية فى ظل الحماية . وثانيها : نشر التعليم . وثالثها : ألا يسمع الإنجليز الوشاية والنميمة والسعاية . فعليهم قبل أن يعتقلوا الناس و ينفوهم أن يتحققوا من صحة التهم المنسو بة إليهم .

وكان حافظ وأمثاله من السذج يعتقدون أنه من الممكن أن ينال المصريون من الإنجليز باللين والدعة والهدوء والسكينة أعظم بكثير مما يمكن أن ينالوه عن طريق الثورة . وزاد هذا الاعتقاد رسوخا وانتشارا بعد انحلال القيادة الشعبية التى كان ينهض بأعبائها محمد فريد والمخلصون من رجال الحزب الوطنى . وقد أثبتت الأيام فساد هذا الاعتقاد . إن إنهاض البلاد ثقافياً واجتماعياً واقتصاديا معناه قرب جلاء المستعمرين عنها . ولم يكن الإنجليز راغبين فى الجلاء عن مصر .

وقد أراد حافظ أن يجارى شوقى فى مدحه للإنجليز ، بل لعله أراد أن يتفوق عليه ، وأن يبزه فى النفاق والرياء ليزداد قربا من المحتلين ومن السلطان ، إذ ربما جعله شاعره الخاص كما كان حال شوقى مع عباس . وكل هذا على حساب الشعب .

وهذا الشعر الذى نظمه شوقى وحافظ وغيرهما فى مدح الإنجليز والسلطان لم

يكن معبراً عن رغبة الشعب وميوله . إن هؤلاء الشعراء قد انفصلوا عن أمتهم وتجاهلوا مصالح بلادهم فى تلك الفترة الحالكة السواد فى تاريخ البلاد فليتهم كفوا عن الخوض فى السياسة وشئون الحكم . لو أنهم فعلوا ذلك لكان أكرم لهم .

* * *

ولأحمد نسيم شعر جيد فى التغنى بفضائل الإنجليز ، والإشادة بالأعمال الجليلة فى زعمه — التى قاموا بها فى مصر . من ذلك قصيدة طويلة نشرتها صحيفة المؤيد فى ٩ من نوفمبر سنة ١٩١٤ تحت عنوان «رأى شاعر فى الحرب الأوربية» وقدمت لها بقولها « بعث إلينا حضرة الشاعر الكبير أحمد أفندى نسيم هذه القصيدة العصماء ، وهى تنبىء عن رأيه فى الحرب الأوربية الحاضرة ، وفى أعمال الألمان فى البلاد التى غزوها ، وفى وصف الجنود الإنجليزية . وهى أيضاً تتضمن نصيحة ثمينة للدولة العثمانية ، وهذا نصها :

يا مصر حسبك هجعة بأمان ووقاك ربك طارىء الحدثان
حرستك عين معاشر قد أشربوا حب الشعوب برأفة وحنان
الشاهرين إذا دعوا لنزالهم أكمى الكماة وأشجع الشجعان
والضاربين بكل عضب مرهف ضرباً يقد كواهل الأبدان
نزلوا على هام السماك بمشرف متمنع الجنبات والأركان
وهم الأولى حملوا الجلالة والعلا والعدل فى عرش وفى سلطان
من يكذب التاريخ فهو مدلس كبرت جنايته على الغفران
ياليل ذكرنى بعهد غابر فالمرء مطبوع على النسيان

عهد ألذ على الصدى من مزنة ... تروى غليل جوانح الظمآن
من لى به والدهر يحرق نابه ... لو عاد فى زمن من الأزمان
فالنيل يعلم أن خير عصوره ... هذا الزمان ويشهد الهرمان
عهد الرفاهة والحضارة والمنى ... عهد الكريم يجود بالإحسان
عهد النضار يدر من أطيانه ... عهد اغتناء المرء من فدان
عهد الغنى يجرى بكل تنوفة ... فيسيل من مصر إلى أصوان[1]
عهد السعادة ، عهد كل تنعم ... عهد الوثوق وعهد كل ضمان
عهد الصحائف وهى تنشر حرة ... مما يروعها بأى لسان
طورا تكيل القول غير مطفف ... وتكيله طورا بلا ميزان
ويلاه من صرف الزمان وحكمه ... كل المصائب أطبقت فى آن
أغنى السراة تلهفت آذانه ... لسماع صوت الأصفر الرنان
وكأنما الدينار قد طبعوا على ... وجهيه آية كل شىء فان

* * *

يا أمة التاميز فضلك شائع ... كالشمس مشرقة على الأكوان
عدل يسير مشرقاً ومغرباً ... مثل النسيم سرى بكل مكان
فوق الذرى يمشى وتحت سفوحها ... يجرى وبين شواطىء الغدران
بين السهول الوعث ، بين وهادها ... بين الجبال الشم والقيعان
بين السوائح من مهى وضياغم ... والطير من رخم ومن عقبان
بين النجوم الزهر لو يرقى لها ... عدل وبين مسابح الحيتان

(١) التنوفة : الأرض الواسعة البعيدة الأطراف .

كادت تلوذ بعدلكم شمس الضحى لو عاقها طاغ عن الدوران
كنا نظن بكم ظنونا لم تشد إلا على واه من البنيان
حتى تجلى حسن مقصدكم لنا كالضوء لم يحتج إلى برهان

* * *

يادولة الأتراك قدك فإنما تلك الغواية غاية الألمان
فشلوا فجاءوا بالغيلك لتنزلى معهم إلى الهيجاء فى الميدان
جاءوا بكل فظيعة لانت لها صم الصفا وجلامد الصوان
كبرت جرائمهم على كل الورى فكأنما فيها يد الشيطان
دكوا صروحاً للعلوم تهدمت بعد البلوغ بها إلى كيوان
نسفوا المعابد وهى ملأى بالتقى من كل شيخ طاهر الأردان
قطعوا الرءوس وقد أبوا من بغيهم أن يرأفوا بالشيب والشبان
تركوا الحرائر فى الخدور جوائعا مابين عار فاضح وهوان
هدموا المنازل والربوع ولم يعوا معنى الجوار وحرمة الجيران
هدروا الدماء على التراب زكية حتى تبلل بالنجيع القانى
نبشوا المقابر ، بعثروا أشلاءها بحثوا عن الأرواح فى الأكفان
طمسوا المدائن ، قوضوا أركانها هدوا كيان معالم العمران
فقدوا الشعور فما بهم من رحمة تنبى عن الإحساس والوجدان
جمدت قلوبهم التى بصدورهم حتى فقدن عواطف الإنسان
فهمو أحط مراتبا من كاسر عدوه بين مراتب الحيوان

* * *

أهلال عثمان نداء أخى حجى والفخر أن تعزى إلى عثمان

قد جاءك النبأ اليقين فلا تكن ... بعد الكمال علامة النقصان
من يرتجى للدين بعد أريكة ... قامت لحفظ الدين والقرآن ؟
أين الأولى صعدوا به من هاشم ... أين الذين بنوه من عدنان ؟
غليوم رغم غروره متضائل ... بين الهواجس ضارب بجران
شطر الممالك ، والممالك جمة ... شطرين للجرمان والرومان
من لا يخاف الله فى إنجيله ... يعبث غداة النصر بالفرقان
هذى نصيحة مسلم فى قلبه ... صدق اليقين وصحة الأبدان

* * *

أهل الكنانة إن مصرا لم تزل ... فى ظل عدل وارف وأمان
ناموا على مهد السكون وحاذروا ... خطأ التخرص عن فل وفلان
ولتذكروا القوم الذين تحملوا ... عبء الردى لحراسة الأوطان
(متأدبين على ضخامة ملكهم ... متواضعين على عظيم الشان)
إياكمو بخس الجميل فإننا ... قوم أبينا وصمة النكران
لا تجعلوا الأديان داعية إلى ... تفريقكم فالدين للديان
والله يأمركم بأن لا تشتروا ... صنع الجميل بأبخس الأثمان
سيرد عادية الكوارث عنكمو ... لجب قريب منكمو متدان
جند ابن ادوار بمصر دوافع ... بطش الكروب وصولة الأحزان
ملك تبوأ عرش كل عدالة ... حتى استطال على ذوى التيجان
حملوا السلاح وقدموا أرواحهم ... كرما لكل مهند وسنان
متضامنين ولو تطيح رءوسهم ... فى الحرب والجمعان ملتقيان
متقسمين فمن مشاة خلتهم ... شم الجبال سرت ومن فرسان

ورأيت تحت ثيابهم أسـد الشرى ولو انهم فى رقة الغزلان
ونظرت هيئات الشيوخ تدفقت من أوجه ·'· ·ان والفتيان
جروا القواضب بالحمائل واعتلوا متن الجياد تجر بالأرسان
من كل أروع للردى متبسم طرب الفؤاد إلى الوغى جذلان
يحمون مصر وأهلها من ناكث عهد الوفاء وغادر خوان
إنى لأهدى النصح قومى بالغاً منهم مكان السمع فى الآذان
نصحا تدبجه يراعة شاعر فى حب مصر وأهلها متفان
يرجو لـكم حسن المـآب ولم يكن فى نصحه المصدوق بالمتوانى

فى هذه القصيدة يقول أحمد نسيم إن مصر تنام آمنة مطمئنة لأن الله حفظها من ويلات الحرب . وأن جيش الاحتلال ساهر على حمايتها حبا فى أهلها ورحمة بهم . وجنود الاحتلال شجعان معروفون بالجرأة والإقدام ، مشهورون بالعدل والتطلع إلى معالى الأمور . ومن قال غير ذلك فهو كاذب ، وكذبه لايغتفر لأنه مجرم فى حق التاريخ .

ثم تحدث عن العهد السابق للحرب فوصفه بأنه عهد الرخاء والسعادة والرفاهية والغنى . وعهد الحرية السياسية حيث كانت الصحف تكتب ما تشاء دون رقيب أو حسيب . وأخذ يوازن بين ذلك العهد السعيد ، وبين عهد الحرب الذى عم فيه الضيق والبؤس والشقاء حتى أن أغنى الأغنياء أصبح مشتاقاً إلى رؤية الجنيه وقد خلت أيدى الأغنياء والفقراء من كل أثر للنقود .

ولم يحاول أحمد نسيم أن يعلل سبب انتشار هذه الأزمة الخانقة مع أن مصر لم تسكن من الدول المحاربة . وتجاهل أسباب هذه المصائب التى حلت بالمصريين فجأة ، وما أسبابها سوى وجود جيش الاحتلال .

وانتقل بعد ذلك إلى مدح الإنجليز ، والإشادة بعدلهم الذى تحدثت عنه الركبان ، وسار ذكره فى كل مكان ، فى السهول والوديان ، والجبال والهضاب والمرتفعات والمنخفضات . وفى الفضاء بين الطيور ، بل بين النجوم . وفى البحار مع الأسماك والحيتان . وهكذا تجاهل الشاعر الواقع المؤلم الذى يعيش فيه المصريون . تجاهل الأقوات التى نهبها الإنجليز ، وصدروها إلى بلادهم و بلاد حلفائهم ، مما ترتب عليه ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، وتعرض الناس للموت جوعا . تجاهل حرمان المصريين من خيرات بلادهم واحتكار الأجانب لها .

ثم خاطب الأتراك وزعم أنه يسدى إليهم النصح . وعرض بالألمان مرددا ما كانت تذيعه الدعاية البريطانية عن فظائعهم ؛ مع أن بابا روما قد احتج احتجاجا شديداً على الحصار الذى فرضته بريطانيا على شواطىء ألمانيا ؛ لأنها عرضت الشعب الألمانى للموت جوعا ، ولم ترحم فى ذلك الأطفال الأبرياء أوالشيوخ . ثم إن الإنجليز صمموا على مواصلة الحرب حتى يقضوا على الشعب الألمانى قضاء مبرما . لقد تجاهل شعراؤنا هذه الحقائق كلها ولم يلتزموا جانب الإنصاف . فكانوا أبواقا للدعاية البريطانية ، بل إنهم تطوعوا من تلقاء أنفسهم للقيام بدور هذه الدعاية . وبذلك وفروا عليها جهداً كان من الممكن أن تبذله فى هذا الصدد .

ثم أخذ يوجه اللوم إلى الأتراك لدخولهم الحرب فى جانب الألمان . وقال إن الألمان إذا انتصروا سيبسطون سلطانهم على المسلمين و يتعرض الإسلام بذلك لخطر الزوال ؛ لأن الألمان الذين لم يحترموا تعاليم الإنجيل ولم يرعوا للكنائس حرمة لا يمكن إذا انتصروا أن يحترموا تعاليم القرآن أو يرعوا للمساجد حرمتها

وقدسيتها . وهذه نصيحة مسلم غيور على دينه ، عامر القلب بالإيمان والإسلام ، قدمها أحمد نسيم للترك لعلهم ينتفعون بها .

وانتقل بعد ذلك إلى إسداء النصح للمصريين ، قائلا إن العدل مازال يبسط سلطانه على مصر ، ولذلك ينبغى عليهم أن يناموا آمنين مطمئنين ، وأن يركنوا إلى الهدوء والسكينة ، وليحذروا الخوض فى الفتن وترويج الشائعات الضارة . وليتغنوا دائما بفضل الإنجليز الذين حملوا عنهم عبء الدفاع عن مصر ، ونهضوا وحدهم بالذود عن حياضها . وطلب منهم ألا ينكروا هذا المعروف ، بل عليهم أن يذكروه دائما ، لأن الله يأمرهم بذلك . أما الاختلاف فى الدين فلا عبرة به ، أى أنه لاينبغى أن ينتصر المصريون للترك لأنهم مسلمون ، إذ أن هذه الحرب لادخل للأديان فيها .

وختم قصيدته مشيدا بشجاعة الجنود الإنجليز وبأسهم وجرأتهم . وذكر أنه بدعوته المصريين إلى الهدوء والسكينة إنما هو ينصحهم نصيحة وطنى مخلص لبلاده وأمته .

* * *

وبعد أسبوع من نشر هذه القصيدة ، نظم أحمد نسيم قصيدة أخرى نشرتها له المؤيد فى ٢١ من نوفمبر سنة ١٩١٤ تحت عنوان « خطرات شاعر كبير بمناسبة العام الهجرى » وهى :

تجلى كمقصوم السوار يسلم ... فناجوه نجوى مسلم يتألم
وبثوا إليه الشجو إن قلوبنا ... بها حسرات كالغضا يتضرم (١)

(١) الشجو : الحزن . الغضا : الجمر .

إذا نحن أظهرنا إليه شكاية ... يضيق بها المحزون فالقلب مفعم
كأن الذى سماه شهرا محرما ... درى أن سعد المسلمين محرم
هلال الدجى خبر عن الحال معلنا ... فقد جار فيك الناظر المتوسم
أأنت هلال البشر أم أنت منجل ... ونحن حصيد تحته يتهشم ؟
وما كان عهدى أن ترى متلألئا ... وما فيك مرجو به العين تنعم
فكل هلال فى منازله قذى ... وأقبح مرأى من طويس وأشأم
وطاروا سرورا بالهلال ونوره ... فقلت أفرح ذاك أم ذاك مأتم ؟
فوالله ما أدرى أهلّ مناحة ... على الناس أخرى الدهر أم هو موسم
أفى كل عام للهلال منازل ... تضىء بها آمالنا ثم تظلم ؟
وفى كل عام لا يزال يسرنا ... بهذا السنا والخطب بالخطب يصدم ؟
مضى العام والدنيا كثير خطوبها ... فما معظم إلا ويتلوه معظم
مضى بعد أن أخنى على الأرض كلها ... وجشمها فوق الذى تتجشم
مضى تاركا منا جسوما عليلة ... مضى عالماً أنا جلود وأعظم

* * *

ذوت فيه أغصان السلام ورفرفت ... قلوب على البأساء والفقر حوم
وأصبح خلق الله فى كل مأزق ... كأنهمو للسيف نهب مقسم
عليهم سطا غليوم كالنسر ساقطا ... وهم فى ديار الأمن كالزغب جثم (١)
فما تنظر العينان إلا مقوما ... من السمر يتلوه صقيل مصمم
ولا تسمع الآذان إلا قذائفا ... بها الناس والبلدان ترمى وترجم

---

(١) الزغب : صغار الفراخ . جثم : جثم بصدره على الشىء أى نام عليه .

ولا تحمل الأنباء إلا عرمرما يصادمه للحتف جيش عرمرم
تماشوا وكل المهالك عاشق وساروا وكل بالحتوف متيم
فما خاف خوض النار شيخ ويافع ولا هاب هول الحرب بكر وأيم
وقد زاد بلوى المسلمين عصابة تسوس برأى المستبد وتحكم
لئن سألونا قبل إعلان حربهم لما اختار أن يسعى إلى الحرب مسلم
وعود من الألمان كالبرق خلبا أضلوا بهن القوم والله أعلم
ستبدو لهم عقبى الضلال من الهدى إذا جاء يوم للمراقب أيوم
عزيز على نفس بلاء كريمة تعز على نفسى الأبى وتكرم
وإنى لأخشى أن تصاب بمحنة يكابد عقباها الحطيم وزمزم

* * *

أودع عامى والهموم كثيرة يضيق بها صدر الحليم ويكلم
لقد كان لى يا عام فيك شوارد كأن قوافيها الجمان المنظم
أوابد يرجوها ابن هانى لنفسه ويجثو لديها البحترى ومسلم
وكانت بلاد المسلمين خميلة يراعى فيها الساجع المتجهم
وأطبقت الدنيا بكل صروفها فلم يبق إلا الله يحنو ويرحم
فغفرانك اللهم من كل مأثم فما بعد هذى الحرب عندك مأثم
كأنى بأبواب الجحيم تفتحت ومدت على طول الصراط جهنم
فما المهل أحمى من قذائف ترتمى ولا شرر كالقصر أذكى وأضرم
أيارب هل أعددت للناس يومهم وهل جاء يوم الحشر أم ذاك أعظم؟
جنانيك أو رحماك أو عفوك الذى يؤمله جان ويرجوه مجرم

لك اللطف فالطف بالعباد إذا دنا   لنا الحتف أو حم القضاء المحتم

بدأ أحمد نسيم قصيدته بالتحدث عن الهلال فقال إنه ظهر كقطعة من سوار ثم أخذ يشرح المتاعب التى حلت بالمسلمين ، والخطوب التى نزلت بهم من جراء توقف حركة الأعمال ، وانقطاع الصادر والوارد ، وانتشار البؤس والفقر فجأة بين الناس ، وماحل بالفلاحين من الخسائر الفادحة بسبب هبوط سعر القطن واستغلال المرابين للظروف وانتهازهم الفرص لسلب مايملكه الفلاح من أرض وماشية . وقد عبر الشاعر عن آلام الأمة وأحزانها ، وعن ضيقها بما فرضته السلطات العسكرية من قيود . ومع أن الحماية لم تكن قد أعلنت بعد ، ومع أن القيود لم تكن قد ثقلت واشتدت وطأتها ، فقد خص جانباً كبيرا من قصيدته للإعراب عن السخط والتبرم مما وصلت إليه الحال ، وعن اليأس والقنوط الذى استبد بالناس ، وعن الظلام الحالك الذى خيم فجأة وسد منافذ الأرض ، وحجب شمس الأمل عن أعين الجماهير .

ثم تكلم عن السلام الذى تهدمت أركانه ، وتقوض بنيانه ، وعن تعرض الناس للهلاك فى كل مكان . وألقى تبعة ذلك كله على « غليوم » الذى انقض كالنسر الكاسر على الناس بينما كانوا متمتعين بالأمن والطمأنينة . وتحدث عن القتال الناشب ليلا ونهاراً ، وعن دوى القنابل الذى لا ينقطع ، وعن الجيوش التى لا تتوقف عن النزال .

وانتقل من ذلك إلى الكلام عما حل بالمسلمين من البلاء ، وألقى تبعة ذلك على رجال حزب الاتحاد فى تركيا ، وقال إنهم لم يأخذوا رأى المسلمين حينما دخلوا الحرب ، وأن الألمان غرروا بهم ومنوهم الأباطيل ، وأن العاقبة السيئة

تنتظرهم . وأبدى خوفه من وقوع البلاد المقدسة فى قبضة الألمان . وكان مثل هذا الشعر فى ذلك الوقت يؤدى أكبر خدمة للدعاية البريطانية لأنه يقتل الروح المعنوية لأنصار دولة الخلافة ويدخل اليأس على نفوسهم ، إذ هو يؤكد هزيمة العثمانيين واندحارهم فى هذه الحرب .

وأخيرا ودع العام الهجرى المنصرم ذاكرا ما حل فيه من الهموم والأحزان ، متحسراً على ذهاب أيام الرخاء وأوقات الصفاء . وطلب من الله أن يغفر للناس ذنوبهم نظير ما صادفوه من الشدائد والآلام . وقال إن نيران هذه الحرب لا تعدلها نار جهنم . وتساءل عما إذا كانت هذه الحرب هى القيامة التى يحشر فيها الناس ويساق المذنبون إلى العذاب ، أم أن يوم القيامة أعظم من هذه الحرب . وطلب من الله أن يرحم الناس ويلطف بهم إذا جاء أجلهم وانقضت أعمارهم .

وقد أفلح الشاعر فى نقل إحساساته الداخلية إلينا ، واستطاع أن يعبر عن عواطفه وآلامه وأحزانه ، ويجعلنا نشاركه فيها مشاركة تامة ، إلا فى فخره بقصائده وقوله إنها تفوق قصائد أبى نواس والبحترى ومسلم ؛ فإن هذا من الفخر الكاذب الذى لا أساس له من الصحة .

* * *

وقال حلمى المصرى تحت عنوان « صدى الحرب » من قصيدة(١) :

ومشى من الحلفاء جيش زاخر   قد قام فى وجه الجحافل سدا
فتراه مثل الموج فى زحفاته   ينحط وهدا ثم يصعد نجدا
وللخدعة لزم التقهقر خطة   يبغى مناوشة ويضمر قصدا

(١) المقطم فى ٥ — ١١ — ١٩١٤ .

والروس فى طول البلاد وعرضها   شرقا لواؤهمو بدا ممتدا
وفيالق النمسا تبدد شملها   ولغارة القوزاق لا تتصدى
الويل للمغلوب قلت ولو يجر   حى الحرب توصى كان ذلك أجدى
ويل لمن ثلموا الوعود ومزقوا   ذمما وفى البلجيك داسوا عهدا
ويل لمن هدموا الكنائس والمدا   رس والمعاهد والمتاحف هدا
ويل لمن نهبوا الديار وأحرقو   ها نقمة ضد الحماة وحقدا
قتلوا النساء وغير كل محارب   لم يغفلوا شيخا كبا أو مردا
أشباح « لوفان » ستبقى غصة   لك فى النهار وفى الليالى سهدا
وارحمتا للآمنين بدورهم   حيث القنابل أهلكتهم حصدا
لزموا المنازل فى الحياة وفى المما   ت فما أطاقوا قط عنها بعدا

نوه الشاعر بضخامة جيوش الحلفاء وقال إنها تبدو فى زحفها كالأمواج المتلاطمة ، لا تعوقها مرتفعات أو منخفضات . وكانت الدعاية البريطانية ؛ إذا انهزمت جيوش الحلفاء وتراجعت أمام الجموع الألمانية ؛ تزعم أن هذا التراجع لم يحدث عن هزيمة ؛ وإنما حدث بناء على خطة حربية مرسومة . وها هو الشاعر يردد هذه الأكاذيب إما اقتناعا بصحتها ، وإما مجاراة لدعاية البريطانية . ثم عرض بالألمان وتكلم عن إخلافهم للوعود ، وتنكرهم للمعاهدات والاتفاقات الدولية ، وانتهاكهم لحياد البلجيك ، وما ارتكبوا من فظائع كتدمير الكنائس والمدارس ، وهدم المنازل على السكان الأبرياء من أطفال وشيوخ ونساء .

وكانت الدعاية البريطانية تعتمد على الأكاذيب وجهل الشعوب بالحقائق التاريخية . فهذه الحقائق تثبت أن غليوم حاول أن يمنع الحرب فتبادل الرسائل مع قيصر الروسيا لهذا الغرض ، ولكن القيصر الذى كان يعانى أزمة نفسية منذ هزيمته

أمام اليابان سنة ١٩٠٤ أراد أن يمحو أثر هذه الهزيمة بانتصار سريع على النمسا وألمانيا . وأراد أن يجعل من هذا الانتصار وسيلة لكسب الرأى العام الروسى الذى كان سخطه يزداد يوما بعد يوم بسبب فساد الحكم الداخلى وطغيان القيصر واستبداده . لذلك بادر القيصر إلى إعلان التعبئة غداة زحف الجيش النمساوى على الصرب ، و بذلك تحطم السلام . فتبعة هذه الحرب تقع على قيصر روسيا ، لا على إمبراطور الألمان . أضف إلى ما تقدم أن فرنسا منذ هزيمتها فى الحرب السبعينية وهى مصممة على الانتقام من ألمانيا والثأر لهزيمتها ومحو عار تلك الهزيمة . لذلك عقدت محالفة عسكرية مع روسيا وأخرى مع إنجلترا . وكان هذا مشجعا للروس على الدخول فى الحرب .

و إذا سلمنا جدلا بأن إنجلترا حاربت دفاعا عن حرية الشعوب ، فكيف نسلم بأن قيصر روسيا حارب دفاعا عن هذه الحرية مع أن شعبه كان يرسف فى قيود العبودية والظلم والطغيان ؟ أما كان الأجدر به أن يحرر شعبه أولا ؟ ومن الذى يصدق أن اليابان و إيطاليا وفرنسا حاربت لتحرير الشعوب ؟ لقد كانت هذه الحرب حربا استعمارية ، أى أنها قامت بسبب التنافس على امتلاك البلاد الضعيفة واستعمارها واستعباد أهلها . ولكن الشعراء المصريين انساقوا مع الدعاية البريطانية واستخدموا مواهبهم فى الترويج لأكاذيب الحلفاء . ونظموا فى هجاء غليوم قصائد كاملة . فمن هؤلاء الشعراء حافظ إبراهيم . قال مخاطبا إمبراطور الألمان[1] ومنكرا عليه إثارة الحرب وما ارتكبه من الفظائع :

لله آثار هناك كريمة حسدت روائع حسنها برلين
طاحت بها تلك المدافع تارة لما أمرت وتارة زبلين

(١) ديوانه ٢/٨٣ طبع دار الكتب سنة ١٩٣٩ .

ماذا رأيت من النبالة والعلا   فى عدمهن وكلهن عيون ؟ !
لو أن فى برلين عندك مثلها   لعرفت كيف تجلها وتصون
إن كنت أنت هدمت «رمس» فإنه[1]   أودى بمجدك ركنها الموهون
لم يغن عنها معبد خربته   ظلما ولم يمسك عنانك دين
لا تحسبن الفخر ما أحرزته   الفخر بالذكر الجميل رهين
هل شدت فى برلين غير معسكر   قامت عليه معاقل وحصون ؟
وجمعت شعبك كله فى قبضة   إن لم تكن لانت فسوف تلين
نظمت تجارتك المدائن والقرى   فالنيل ناء بها وناء السين
فبكل أرض من رجالك عصبة   وبكل بحر من لدنك سفين
نسرى ونسرك[2] أين لحن يظلها   لا الليث يزعجها ولا التنين
فالأمر أمرك والمهند مغمد   والنهى نهيك والسرى مأمون
قد كان فى برلين شعبك وادعا   يستعمر الأسواق وهى سكون
فتحت له أبوابها فسبيلها   وقف عليه ورزقه مضمون
فعلام أرهقت الورى وأثرتها   شعواء فيها للهلاك فنون ؟
تالله لو نصرت جيوشك لانطوى   أجل السلام وأقفر المسكون
سبعون مليونا إذا وزعتها   بين الحواضر نالنا مليون
ويل لمن يستعمرون بلاده   القحط أيسر خطبه والهون
أكثرت من ذكر الإله تورعاً   وزعمت أنك مرسل وأمين

---

(١) رمس : مدينة بفرنسا .

(٢) النسر : يريد به الراية الألمانية لأن بها صورة نسر . والليث يريد الراية البريطانية ، والتنين : إشارة إلى الراية اليابانية .

عجباً ! أتذكره وتملأ كونه ويلا لينعم شعبك المغبون ؟
وكذلك القصاب يذكر ربه والنصل فى عنق الذبيح دفين

استمد حافظ أفكاره ومعانيه التى أوردها هنا مما أذاعته الدعاية البريطانية عن ألمانيا و إمبراطورها . فقد صوروا الشعب الألمانى — كما سبق ذكره — فى صورة الشعب المتعطش إلى سفك الدماء ، الراغب فى استعباد العالم . وقالوا إن غليوم ظل أعواماً طويلة يستعد لهذه الحرب . فأنشأ مخازن عظيمة تحت الأرض ملأها بجميع أنواع الأسلحة . ولو انتصرت ألمانيا لخرج شعبها البالغ عدده سبعين مليونا وانتشر كالجراد فى جميع بلاد الدنيا ، فلا يبقى لسكانها الأصليين شيئاً . وصوروا الألمان فى صورة الوحوش الكاسرة التى تفترس كل شىء ، واستدلوا على توحشهم بما حل بالبلجيك وفرنسا من تخريب وتدمير . وقالوا إن هذا الخراب والدمار سيقع مثله فى كل مكان إذا انتصر الألمان . و بناء على هذا اندفع الشعراء فى مصر إلى التنديد بفظائع الألمان فى شعر يزخر بالكره والحقد الشديد على ألمانيا وعلى إمبراطورها . وهكذا نجحت الدعاية البريطانية فى مهمتها حتى أن ذكر الألمان كان دائما يقترن فى الأذهان بالتوحش والهمجية . فى حين أن ذكر الحلفاء ومن بينهم روسيا وفرنسا واليابان كان يقترن دائما باللطف والرقة والوداعة والظرف ، والحضارة والمدنية . فأعمال فرنسا فى شمال أفريقية وفى جميع مستعمراتها تنحصر فى إدخال المدنية الفرنسية إلى تلك الجهات . وفرنسا لم تستعمر الشعوب إلا لغاية نبيلة وهى العمل على تقدم هذه الشعوب وتمدينها وتثقيفها . وكذلك قيل عن بريطانيا التى لم تكن الشمس لتغيب عن أملاكها فى ذلك الوقت ، كما قيل نفس الشىء عن إيطاليا والبلجيك واليابان والبرتغال . وهذا كله محض افتراء ، لأن تاريخ الاستعمار الأوروبى معروف .

فقد ارتكبت هذه الدول فى مستعمراتها ما تقشعر لهوله الأبدان . ولكن الدعاية البريطانية استطاعت أن تغطى على هذه الفظائع بذكر فظائع أخرى لم تقع ، ونسبة وقوعها إلى الألمان إذا انتصروا .

وقال أمين بقطر يهجو امبراطور الألمان[1] :

ما كان ضرك لو عصيت هواكا ... وكفيتنا والعالمين أذاكا
أفنيت آثارا ، هدمت معابدا ... أحرقت دور الآمنين كذاكا
قطعت أوصالا ، أبحت محارما ... يتمت أطفالا فما أقساكا
إبليس يأبى مع فظاعة شره ... ما قد جنيت فمن ترى أغواكا
صوت الدماء من المقابر صارخ ... قايين ويحك قد قتلت أخاكا
يا أيها الوحش المخضب بالدما ... إبليس لو بلك قيس كان ملاكا
لا حبذا يوم ولدت صباحه ... بل حبذا اليوم الذى ينعاكا
أشعلت نار الحرب تبغى سحق من ... قد سالموك فلم يصب مرماكا
وكذا من اتخذ الجماجم سلما ... يبغى ذرى العليا أصاب هلاكا
سلحت جيشك بالخيانة والأذى ... فبعثت وحشا هائجا فتاكا
أحسبت أن النصر منتظرا إذا ... ناديت فى ساح الوغى لباكا
أم قد زعمت يد القضاء قصيرة ... عن أن تؤيد فى الوغى أعداكا
خطأ ظننت الله ينصر ظالما ... فيخط آى النصر فوق لواكا
لما عجزت عن القتال نفخت فى ... بوق السلام فما أجيب نداكا
أين الفرار من انكسار ساحق ... فيه جزا بما قدمت يداكا

إلخ . . .

---

(١) الوطن فى ٢٩ ـ ١ ـ ١٩١٧

ومن العجيب أن الشعراء المصريين ذرفوا الدموع السخينة على حرية البلجيك المسلوبة ، وعلى حرية شعب البلجيك المهضومة ، ولم يذرفوا دمعة واحدة على أمتهم ووطنهم الذى كان يرزح فى الأغلال . لو أن الألمان لم يحتلوا البلجيك لكان من المؤكد أن تنضم هذه إلى الحلفاء وتفتح أبوابها لتمر منها جيوشهم وتهاجم ألمانيا . ولماذا تجاهل هؤلاء الشعراء فظائع البلجيك فى مستعمراتها ؟ وكيف نصدق أن شعب البلجيك وديع مسالم وقد كان يمتص دماء أهل المستعمرات ويتركهم يموتون جوعا ؟ إن بلجيكا سطرت فى تاريخ الاستعمار صفحة سوداء ولكن هى الدعاية البريطانية التى قامت على الغش والخداع وتزييف الحقائق . ولئن كانت بريطانيا قد انتصرت فى حرب الدعاية كما انتصرت فى حرب السلاح ، إلا أن انتصارها كان مؤقتاً . وذلك لأن الشعوب تنبهت واستيقظت ورفعت الغشاوة من فوق عينيها ، وعرفت أن إنجلترا لم تحارب دفاعاً عن حرية الشعوب ، وإنما دفاعاً عن نفوذها الاستعمارى . وعلى كل فقد كانت عاقبة غليوم خيرا ألف مرة من عاقبة قيصر الروسيا .

وقال نصر لوزا الأسيوطى (١) :

غليوم عامك بيننا مشئوم ... والخطب منك على العباد جسيم

عكرت صفو السلم حتى خيمت ... فى جوه بالحادثات غيوم

وأثرت حربا من تلظى نارها ... فى كل مملكة لظى وجحيم

يا ويح قوم طاعوك عليهمو ... عصفت رياح الموت وهى سموم

أظهرت للملأ المهابة والتقى ... وزعمت أنك مرسل وكليم

ودعوت ربك والمهند مصلت ... للفتك من سم الورى مسموم

---

(١) مصر فى ٢٩ — ١٢ — ١٩١٤ .

جردت بالظلم الأسنة والقنا ... والظلم مرتعه عليك وخيم
الظالم العاتى يرى من ربه ... فشلا ويحظى بالمنى المظلوم
زعم المنجم أن نجمك آفل ... صدق المنجم فيك والتنجيم
أعددت للحرب المعدات التى ... يجرى بهن البغى والتأثيم
زبلاين تقذف من علا حمما على ... هام من البرءاء وهى تحوم
ومدافع الهاوون أنى صوبت ... فهنالك التدمير والتحطيم
ليست قذائفها قنابل إنما ... هى غيرهن صواعق ورجوم
من كل فوّهة كباب جهنم ... يجرى بها الغسلين والزقوم
وكذلك الأسطول من عدوانه ... يرمى البرىء بناره ويعوم
صيرت بلجيكا مهادا أقفرت ... فيهن ينعب بالخراب البوم
لهفى على آثارها كيف انطوت ... وتبدلت بعد السرور هموم
درست مرابعها وأقفر روضها ... فكأنهن بسابس ورسوم
وخلت مغانى العز من سكانها ... لا خادم فيها ولا مخدوم
وسطا على حرماتها من غيه ... جيش بآداب الحروب غشوم
كم ربع أشيب من أذاه أشمط ... وأهين فى مهد الشقاء فطيم
فى كل ناحية هناك مناحة ... وبكل بيت ثاكل ويتيم
أبلى بلاء المستميت رجالها ... فلهم يحق المجد والتعظيم
كروا أسوداً للعدو ولم يهن ... إلا بعيد جنوفه التسليم
فى صفحة التاريخ عاطر ذكرهم ... بمداد أمجاد لهم مرقوم
أشجاهم صوت الرصاص وعندهم ... صوت المدافع كالطبول رخيم
كل امرئ منهم على حب الحمى ... باق وإن جار الزمان مقيم

لا يرهبون الموت فى طلب العلا والموت فى حب العلاء نعيم
«البرت» فضلك مثل بدر كامل بين البرية ظاهر معلوم
خيبت آمال العدو فلم ينل ما يبتغى من قصده ويروم
سيظل تاجك فوق رأسك ساطعاً لينير ليل الخطب وهو بهيم
وسينجلى المحتل عن أوطانكم بالذل وهو مخيب مغموم
غليوم حسبك ذى الكوارث فاتئد واغمد ظباك اليوم ياغليوم
ما أشأم الحرب التى أضرمتها سيصيب جيشك ويلها المشئوم
فى كل آونة وكل هنيهة منها مصاب العالمين عميم
ما أنت للحلفاء خصم وحدهم بل أنت خصم للأنام ذميم
غليوم أنت لكل مكلوم الحشا فى كل مصر لا سواك غريم
فاسأل إلهك رحمة من فيضه إن الإله إذا سألت رحيم

هكذا نجحت الدعاية البريطانية فى إقناع العالم بأن تبعة هذه الحرب تقع على عاتق إمبراطور الألمان عدو الإنسانية ، المتعطش إلى سفك الدماء ، الساعى فى نشر الفناء . وأن الإنجليز مهما ارتكبوا من الفظائع والمنكرات فهم أبرياء ، منزهون من العيوب ، يجودون بأموالهم وأرواحهم دفاعا عن سلامة الشعوب ، وذودا عن حريتها ورفاهيتها . ولو لم ينهضوا بواجب القتال لوقع العالم فى قبضة الألمان ، ولزالت مدنيته وحضارته تحت أقدام هؤلاء المتوحشين . وقد صدق نصر لوزا الأسيوطى كل ما جاء فى هذه الدعاية عن غليوم . وحملت قصيدته بين طياتها إيمانا عميقاً بأن إمبراطور الألمان هو السبب فى كل ما حل بالعالم من الدمار والخراب والهلاك ، والضيق والبؤس . ولو أن شاعراً بلجيكيا أو فرنسياً أراد أن يهجو غليوم ويندد بفظائعه لما قال أكثر مما قاله نصر لوزا

فهو يتحدث عما حل بالباجيك كشاهد عيان ، أو كأن هذه الفظائع قد أصابته وحات به ، لا أنها نزلت ببلاد لا تربطه بهما رابطة أو تجمعه بها جامعة . أخذ الشاعر ما أذاعه الحلفاء كأنه قضية مسلمة لا تقبل الجدل والنقاش وراح يصب جام غضبه على إمبراطور الألمان . وليس من الحكمة أن نندد بفظائع الألمان ونتجاهل فظائع الروس والفرنسيين والإنجليز والطليان والبلجيك . إن الدعاية البريطانية جعلت الناس لا يفكرون إلا فى فظائع الألمان المنتظرة .

وعلى كل حال فقد كان من حسن حظ العالم أن طال أمد الحرب ، لأن ذلك أدى إلى اندلاع الثورة الروسية التى نادت بضرورة تحرير الشعوب . ثم جاء ويلسون فنادى بتقرير المصير . وبعد الحرب قامت الثورات فى كثير من المستعمرات .

* * *

وقد نظم شعراؤنا قصائد فى مدح عظماء الإنجليز . قال ولى الدين(١) يكن يمدح الملك جورج الخامس :

يا أيها الملك العظيم سلام   هتفت ببيعتها لك الأقوام
مصر الوفية لا تزال وفية   وكما عهدت النيل والأهرام
نالت حمايتك التى اعتزت بها   أمثالها واستمكن الإسلام
اليوم تحسد عزها جاراتها   ويود ما نالت أخوها الشام
ذهبت مخافات المظالم وانتهى   حكم الهوى وأكبت الأصنام
فلناشئيها فى النعيم مراتع   ولكابريها فى الأمان مقام
من كان يحسب أنها تعلو إلى   حيث اعتلت وتشام حيث تشام

(١) المقطم فى ١٨/١٢/١٩١٤ .

بلغت مكاناً فى الحضارة دونه   تعيا الظنون وتظلـم الأوهـام
تعنو الأنام إلى مليك مفرد   هو وحـده بين الأنام أنام
مولاى ملك الحر حر مثـله   ورعيـة الملك الـكريم كرام
شادت معاليك السيوف مواضياً   واليـوم تفعـل فعلهـا الأقـلام
حامى السلام أدم حماية ملـكه   لولاك لم يك فى الوجود سلام
تجرى جبالك فى البحار سوابحا   وتظل تخفق فوقهـا الأعـلام
تحمى المتاجر والثغور وتغتـدى   ولهـا بأطراف البحار زحام
وتسير أسدك فى الـكفاح سوانحا   ولهـا الصوارم والقنـا آجام
يحمى البـلاد المستضامة بأسهـا   وبهـا جنود المعتدين تضام
عم السرور المخلصين فأصبحوا   طربا كأن كلامهم أنغـام
لو يستطيعون الثناء لأفصحوا   والشعر فى لغـة القلوب كلام
لا زال ملـكك ناهضا بجـلاله   وله اتصال بالمـدى ودوام
اليوم مصر قد ارتقت وسترتقى   ولـكل مجد فى حماك تمـام

نظم ولى الدين يكن هذه القصيدة بمناسبة إعلان الحماية البريطانية على مصر . وكان أحمد شوقى قد سبقه إلى مدح الإنجليز والثناء عليهم . فسار ولى الدين على آثاره ، ونسج على منواله . وقد ادعى ولى الدين أن البلاد قد عمها الفرح والسرور بإعلان الحماية ، لأن مصر فى عهد الحماية قد ارتقت فأضحت سلطنة بعد أن كانت ولاية ا وادعى فوق ذلك أن الإسلام قوى وارتفع شأنه بهذه الحماية ، وأن المسلمين بايعوا جورج الخامس على السمع والطاعة بعد أن سحبوا بيعتهم من الخليفة العثمانى . وقال إن الشام تحسد مصر على تلك الحماية التى ظفرت

بها . و بهذه الحماية انتهى عهد الظلم والطغيان ، وأشرق فجر العدل والأمن والرفاهية .

* * *

وكان اللورد كتشنر قد ركب الطراد الحربى همشير فى طريقه إلى روسيا و بينما كان الطراد سائراً بقرب جزائر أوركنى بشمال أسكو تلاندة ، إذا به يصطدم بلغم ، وسرعان ما هوى إلى قاع البحر فغرق كتشنر ومعه حوالى ثلاثمائة من كبار أركان حربه .

فرثاه أحمد شوقى بقصيدة سبق الكلام عليها . ورثاه ناشد تادرس(١) بقصيدة جاء فيها :

يا قائد الآلاف ما أنكى المصاب وما أمر
فالشعب لولا أن فيه بعض تقوى لانتحر
كنت المرجى للحروب وأنت فى يدك الظفر
فتركتنا إلا مآثر لا تزول عن الفكر
كل الرجال تعاض إلا من أضاعت همشير
هذا قضاء الله فينا ليس منه لنا مفر
حسب الفقيد جلائل الأعمال من حسن السير
يا فاتح السودان يا خير الورى برأ و بحر
سيخلد التاريخ ما أحرزت من مجد البشر
فى ذمة الرحمن أنت منعم يا كتشنر

---

(١) مصر فى ١٥ ـ ٦ ـ ١٩١٦ .

وقال محمود شكرى[1] :

أعزى أمة السكسون فيمن ... تجرع مبحراً كأس المنون
وزير الحرب كتشنر المرجى ... لنيل النصر فى الحرب الزبون
حديد العزم لم يعرف كلالا ... شديد الحزم فى كل الشئون
غضنفر فى المعارك عبقرى ... وقسورة العجائب والفنون
تهاب لقاءه الأسد الضوارى ... تخر له الجبابر للذقون
على الستين نيف وهو يدعى ... لـكبح جماح ذى البأس الحرون
حليف السعد لم ينفك عنه ... يلازمه ملازمة الخدين
نرى فى وجهه سيما المعالى ... وتاج الفتح من فوق الجبين
فهل سيسد ثلمته مثيل ... وكم يمضى لذلك من قرون ؟

* * *

أبى لحدا يشق ببطن أرض ... وإن تخذوه من قمم الحصون
وآثر أن يكون البحر قبراً ... ويقضى نحبه فوق السفين
حياة لا تعادلها حياة ... وموت تم فى شرف مصون
ركون المرء فى الدنيا غرور ... وإن الهلك فى ذاك الركون
وإن العمر للإنسان واق ... من الحدثان أو سوء الفتون
فـكم « همشير » قد مخرت بحاراً ... هنا وهناك فى حفظ مكين
ولما هم أمر الله مالت ... ومزقها القضا تمزيق نون[2]
لقد صدع النعى قلوب قوم ... غلاة فى الثبات وفى السكون

(١) مصر ق ٢٦/ ٦ /١٩١٦

(٢) النون : الحوت .

مصاب فادح أدمى قلوبا ورزء مؤلم مبكى العيون
ومصر كما ارتأى بلد وفى فلا هو بالكفور ولا الخئون
تنادى بالثناء عليه جهراً وتنظم عقد شكران ثمين
تؤبن فيه أكبر مصلحيها وترثى خير معوان معين
فلا عجب إذا هى قد أحدت عليه وأنفدت ماء الشئون

من المعروف أن النفاق يكثر فى عصور الظلم والطغيان ، وفى أوقات الاستبداد والإرهاب . ومن المعروف أن الانجليز كانوا فى ذلك الوقت قابضين على ناصية البلاد بيد من حديد . وكانت أبواب الرزق ميسرة أمام كل من يستند إلى الإنجليز ويعرب لهم عن ولائه وإخلاصه . فلذلك رأينا بعض الأدباء من صغار الموظفين ينتهزون كل فرصة لإظهار حبهم الشديد المحتلين لعلهم ينالون بذلك ترقية أو علاوة . وعلى كل حال فقد كان غرق كتشنر من الحوادث التى اهتز لها العالم بصفة عامة ، والانجليز بصفة خاصة . وقد أوجدت فتوراً فى العلاقات بين روسيا وإنجلترا ، لأن كتشنر كان مسافراً لإجراء مفاوضات مع قيصر الروس حول المساعدات التى كان يطلبها لمواصلة الحرب . وقد أحيطت رحلته بالكتمان الشديد ، ولكن جواسيس الألمان فى روسيا استطاعوا أن يعرفوا أسرار هذه الرحلة . وسرعان ما بعثت ألمانيا غواصاتها فبثت الألغام فى الطريق الذى كان من المقرر أن يسير فيه الطراد .

فإذا كانت إنجلترا قد خسرت أحد رجالها العظام ، وإذا كان من واجبها أن تبكى عليه ؛ فما الذى يدعونا نحن المصريين إلى البكاء على رجل أمضى حياته فى مصر ، ولا هم له إلا القضاء على الحركة الوطنية ؟ إننا لا نستطيع أن نلوم صغار الشعراء ما دام كبارهم قد فتحوا باب القول أمامهم .

وإلى هنا ينتهى الكلام على « الأدب والسياسة » .

الفصل الثانى

الأدب والحرب

ظهرت فى خلال هذه الحرب أسلحة فتاكة كانت موضع دهشة الناس وعجبهم . سمعوا لأول مرة عن الغواصات التى تسير فى أعماق البحار مع الأسماك والحيتان . وإذا فاجأت السفن دمرتها فى طرفة عين وأرسلتها إلى القيعان . وشاهدوا الطائرات والمناطيد تشارك الطيور فى أجوائها وترسل على الناس الصواعق بغتة من حيث لا يشعرون . وقرأوا عن الطوربيد وما يحدثه من قوة تدميرية هائلة . والألغام البحرية والبرية وما تسببه من الخراب . والغازات السامة والخانقة والمسيلة للدموع والمهيجة للأعصاب . والقنابل الثقيلة والشديدة الانفجار والحارقة . والمدافع البعيدة المرمى والسيارات المدرعة والدبابات .

هذه المخترعات ظهرت أمام الناس وبخاصة الشعوب الجاهلة كأنها معجزات يحار فيها العقل ، أو كأنها من عمل الجن . وقد كانت هذه الحرب هى الأولى من نوعها من حيث كونها حربا عالمية ، ومن حيث ما ظهر فيها من أنواع الهلاك ، وما سببته من التخريب والتدمير ، وما اشترك فيها من جيوش ضخمة تبلغ الملايين ، وما تطلبته من نفقات هائلة ، ومن جهد شاق متواصل . تخيل للناس أن العالم يسير إلى النهاية المحتومة وهى الفناء . فأخذوا يتساءلون : هل ما يسمعون به هو ما تحدثت عنه الكتب السماوية من أهوال القيامة ؟ أم أن أهوال القيامة أشد وأفظع ؟ قال أحمد شوقى :

يارب هل تلك القيامة كلها   أم للقيامة بعد ذلك موقع ؟

وقال أحمد نسيم :

كأنى بأبواب الجحيم تفتحت ومدت على طول الصراط جهنم
فما المهل أحمى من قذائف ترتمى ولا شرر كالقصر أذكى وأضرم

وقد وصف القرآن الكريم نار جهنم فقال — إنها ترمى بشرر كالقصر — والقصر : أصول الشجر . فشبه الشرر فى كبره وعظمه بأصول الشجر . وأما المهل فقد جاء ذكره فى القرآن فى سورة الكهف آية رقم ٢٩ — إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا — فأحمد نسيم يقول إن نيران هذه الحرب فاقت نيران جهنم التى جاء وصفها فى القرآن .

* * *

وكان الإنجليز يخوفون المصريين بأهوال الحرب ، ويلقون فى روعهم أنهم يعيشون فى دعة وأمن بينما العالم كله يكتوى ويشتعل . ويطلبون منهم أن يحمدوا الله على سلامتهم . انظر إلى حافظ إبراهيم كيف وجه الخطاب إلى قومه ، وبماذا خاطبهم .

قال :

أمم تفنى وأركان تهى وعروش تتهاوى وسرر[1]
وجيوش بجيوش تلتقى كسيول دفقت فى منحدر
ورجال تتبارى للردى لا تبالى غاب عنها أم حضر
من آبائها وغاها خالها صبية خفت إلى لعب الأكر
وحروب طاحنات كلما أطفئت شب لظاها واستعر

(١) الأفكار فى ٢٧ / ١ / ١٩١٦

ضجت الأفلاك من أهوالها ... واستعاذ الشمس منها والقمر
فى الثرى ، فى الجو ، فى شم الذرى ... فى عباب البحر ، فى مجرى النهر
أسرفت فى الخلق حتى أوشكوا ... أن يبيدوا قبل ميعاد البشر
فاحمدوا الله ثم احمدوا الله على ... نعمة الأمن وطيب المستقر
نعمة الأمن وما أدراك ما ... نعمة الأمن إذا الخطب اكفهر

وقول حافظ .

من رآها فى وغاها خالها ... صبية خفت إلى لعب الأكر

فيه صورة ضعيفة ، وأحسن منه قول على الجارم :

كأنهم والنار من فوقهم ... جن تآلوا أن يبيدوا معا

فإن الصورة فى بيت الجارم ؛ صورة الجن وقد أقسموا أن يتقاتلوا حتى يموتوا جميعا فى وقت واحد ؛أعظم بكثير وأوقع فى النفس ،وفيها رهبة وأى رهبة .

وحافظ إبراهيم يطالب من المصريين أن يحمدوا الله حمداً كثيرا دائما على نعمة الأمن التى أسبغها عليهم . ولعله يقصد أن مصر لم تتعرض للتدمير والتخريب الذى تعرضت له البلجيك وغيرها . فإن كان مراده ذلك فقد صدق وإلا فإن المصريين لم يذوقوا نعمة الأمن طوال أيام الحرب . فقد ساقت السلطة العسكرية حوالى مليون من خيرة الشبان . وكان كل أمرىء عرضة للاعتقال والنفى والتشريد ، أو عرضة للموت جوعاً أو بالطاعون والكوليرا والحميات ، أو تصرعه سيارة من سيارات الجيش البريطانى ، أو يقتله جندى مخمور . إن حافظ يريد أن يقول للمصريين إن الإنجليز حموا بلادكم وحملوا عبء الدفاع عنكم فناموا

آمنين مطمئنين حامدين الله شاكرين له هذه النعمة .

وقال على الجارم تحت عنوان « الحب[1] والحرب » من قصيدة :

من عهد قابيل وليس أمامنا ... فى الأرض غير تشاكس وعراك
مابين فاتكة تصول بقدها ... وفتى يصول برمحه الفتاك
يا أرض ويحك قد رويت فاسئرى ... وكفاك من تلك الدماء كفاك[2]
فى كل ربع من ربوعك مأتم ... وثوا كل ونوادب وبواك
كاشفتهم سر العناصر فانبروا ... يتخيرون أمضها لرداك
نثروا كنانتهم وكل سهامها ... للفتك والتدمير والإهلاك
دخلوا على العقبان فى أوكارها ... وتسربوا لمسابح الأسماك
فتأملى هل فى تخومك مأمن ... أو هل هنالك معقل بذراك
ظهر الليوث وذاك أصعب مركب ... أوفى وأكرم من أديم ثراك
ليت البحار طغت عليك وسجرت ... أو أن من يطوى السماء طواك[3]
لم يبق فى الإنسان غير ذمائه ... فدراك يارب العباد دراك[4]
وإذا النفوس تفرقت نزعاتها ... قامت إذا قامت بغير مساك
والسيف أظلم مافزعت لحكمه ... والحزم غير شمائل الإملاك
ومن الدماء طهارة وعدالة ... ومن الدماء جناية السفاك
والعلم ميزان الحياة فإن هوى ... هوت الحياة لأسفل الأدراك

(١) السفور فى ١٩١٦/٤/١٤
(٢) اسئرى : اتركى سؤرا ، والسؤر : مايتبقى من الشراب .
(٣) سجرت : غلت وتحولت إلى نيران .
(٤) الذماء : بقية الروح .

كثر الكلام على الحب والحرب، ونظم بعض الشعراء فى ذلك قصائد جميلة .

وقد خاطب الجارم فى هذه القصيدة الأرض وقال إنها شربت من دماء القتلى والجرحى إلى درجة لم تعرف من قبل . وهو يتعجب من كثرة ماشربت من الدماء ويطلب منها أن تكتفى . ويقول إن الخراب قد انتشر فى جميع أنحاء العالم ، وأن الإنسان لايسمع إلا بكاء النساء وعويلهم على من فقدن من الأبناء والأخوات والأزواج . فالمناحات فى كل مكان ، والمآتم فى كل جهة ، والأحزان فى كل ناحية . وقال إن الأرض كشفت للعلماء أسرار العناصر فتسابقوا فى اختراع أشد الأسلحة فتكا ، وأعظمها تدميراً وتخريبا . فصنعوا الطائرات والغواصات وغير ذلك من أنواع المهلكات . فلا عجب إذا انعدم الأمن ، واختفت الطمأنينة ، وأحدقت الأخطار بالجنس البشرى . وتمنى لو أن القيامة تقوم ليرتاح الناس من أهوال الحرب وماترتب عليها من اضطراب وقلق.

وقال أحمد شوقى(١) من قصيدة :

طلعت على حرم الممالك خيلهم ... نارا سنابكها على البلجيك
البأس والجبروت فى أعرافها ... والموت حول شكيمها المعلوك
عريت لياج عن الحصون وجردت ... نامور من فولاذها المشكوك
تمشى على خط الملوك وختمهم ... وعلى مصون مواثق وصكوك
والحرب لا عقل لها فتسومها ... ماينبغى من خطة وسلوك
دكت حصون القوم إلا معقلا ... من نخوة وحمية وفتوك
وإذا احتمى الأقوام باستقلالهم ... لاذوا بركن ليس بالمدكوك

(١) الأفكار فى ٥–١٠–١٩١٤

أوردنا بعض هذه القصيدة فى الفصل السابق . وقد سلك شوقى فيها مسلك ابن هانئ الأندلسى فى قصيدته التى مطلعها :

فتكات طرفك أم سيوف أبيك ... وكئوس خمر أم مراشف فيك ؟

ومطلع قصيدة شوقى :

جهد الصبابة ما أكابد فيك ... لو كان ما قد ذقته يكفيك

واستمر فى غزل متكلف حتى تخلص منه إلى الحديث عن الحرب . وصور فى هذه الأبيات الجيش الألمانى فى صورة رهيبة . فقد جرد البلجيك من حصونها المنيعة بأن دكها دكاً وأزالها من الوجود . ثم اعتذر عن انتهاك الألمان لحياد البلجيك وضربهم بالمعاهدات عرض الحائط قائلا إن الحرب لاعقل لها، فكيف نطالب المحاربين بالتزام نصوص الاتفاقات ؟. وقال إن كان الجيش الألمانى قد دمر حصون البلجيك إلا أنه لم يستطع أن يقضى على شجاعة أهلها وبسالتهم . ثم قال :

وإذا احتمى الأقوام باستقلالهم ... لاذوا بركن ليس بالمدكوك

وهذا البيت من قصيدته التى نشرها تحت عنوان « باريس » فى الخامس من اكتوبر سنة ١٩١٤ ، أى قبل إعلان الحماية ، وقبل أن يعرف الناس شيئاً عن نيات الإنجليز وما سوف يتخذونه من إجراءات . فلما أعلنت الحماية غير شوقى رأيه فى الاستقلال وطالب المصريين بالتزام الهدوء والسكينة وقبول الحماية والرضى بالأمر الواقع .

وقال حافظ [1] إبراهيم من قصيدة فى ذكرى شكسبير مشيراً إلى أهوال الحرب :

---

(١) السفور عدد مارس سنة ١٩١٦

أفق ساعة وانظر إلى الخلق نظرة　　تجدهم وإن راق الطلاء هم هم
على ظهرها من شر أطماعهم دم　　وفوق عباب البحر من صنعهم دم
تفانوا على دنيا تغر وباطل　　يزول إلى أن ضجت الأرض منهم
فليتك تحيا يا أبا الشعر ساعة　　لتنظر ما يصمى ويدمى ويؤلم
وقائع حرب أجج العلم نارها　　فكاد بها عهد الحضارة يختم
وتعلم أن الطبع لا زال غالبا　　سواء جهول القوم والمتعلم
فما بلغت منه الحضارة مأربا　　ولا نال منه العلم ما كان يزعم
أهبت بهذا من قرون ثلاثة　　وكدت على تلك الطبائع تنقم
وما هدم التجريب رأيا بنيته　　ولا زالت الآراء تبنى وتهدم
ألا إن ذكرى شكسبير بدت لنا　　بشير سلام ثغره يتبسم
ولو أنصفوا أبطالهم لتهادنوا　　قليلا وحيوا شعره وترنموا
ولم يطلقوا فى يوم ذكراه مدفعا　　ولم يزهقوا نفسا ولم يتقحموا

وقد تعرض ناقد للبيتين الأخيرين فقال [1] « يقول حافظ بك إبراهيم فى القصيدة التى عرضها على أهل العلم والأدب من الأمة الإنجليزية فى ذكرى شاعرها الكبير شكسبير : إنكم لو أنصفتم أبطالكم ومنهم شكسبير لعقدتم هدنة عن الحرب يوم تحتفلون بذكراه ، فتنصرفون عن إطلاق المدافع وإزهاق النفوس وتقحم المعارك إلى تحية شعره والترنم به . نعنى يريد أن يقول لهم : اتركوا ميادين القتال خلاء أمام أعدائكم ، وأهملوا الثغور والرباط ، وضعوا

---

(١) وادى النيل فى ١٢ — ٣ — ١٩١٦

السلاح وردوا الجيوش ، لأن إنصاف شكسبير يقضى أن تفعلوا ذلك يوم ذكراه . فهل وجد أحد أفسد من هذا الذوق ؟ وكيف يحكم شعراء الإنجليز وأدباؤهم علينا يوم يعلمون أن شاعرنا يدعوهم لترك أعدائهم يقتحمون البلاد فلا يجدون مدافعا ولا مرابطا ، لأن الأمة الإنجليزية والجيش الإنجليزى مشغولان بإنصاف شكسبير فى يوم ذكراه بالقعود عن القتال ؟ »

وليس من المعقول أن يقصد حافظ ما يذكره هذا الناقد الجاهل . وإنما حافظ يقول إن شكسبير شخصية عالمية ، فلو أنصفه المتحازبون جميعاً من الإنجليز والألمان لاعتبروا يوم ذكراه هدنة يتوقفون فيها عن القتال . هذا كل ما هدف إليه حافظ . وهذه الدول رفضت أن تتهادن يوم ميلاد المسيح ، فكيف تتهادن يوم ذكرى شكسبير ؟؟

* * *

وقد أخذ الشعراء ينوهون بالأسلحة الفتاكة التى ظهرت فى هذه الحرب ويتخذون منها مقياساً على تقدم الغرب ، ويحثون الهمم ويستنهضون العزائم للحاق بهذه الدول المتقدمة ، وذلك بالإقبال على العلم الصحيح ، ويوضحون أنه بغير هذا العلم لا يمكن أن تتحرر البلاد وتظفر بمكانتها اللائقة بها بين الشعوب القوية . مثال ذلك قول المراوى(١) :

انظر إلى الأقوام كيف سمت بهم ... تلك العلوم إلى المحل السامى
من طائر فوق السحاب كأنه ... فلك يدور على ذرى الأجرام

---

(١) السفور فى ١٦–٢–١٩١٦

أو سابح فوق العباب وتحته غواص فلك فيه أو عوام
فإذا همو من بعد علم أجرموا فالذنب للأقوام فى الإجرام
والعلم مثل الدين يرشد للهدى والناس رغم الدين فى آثام

وأحيانا يذكرون تلك المخترعات على أنها أشياء بغيضة ممقوتة لأنها جلبت الشقاء والخراب . مثال ذلك قول الهراوى[1] من قصيدة :

طائر يقذف الأنام رجوما غائص يسكن السفين البحارا
قاصف يجعل المدائن قاعاً لا ديارا أبقى ولا ديارا
ومثير مع الهواء دخانا يزهق الروح ، يطمس الأبصارا
أمة تبعث المنايا صنوفا وفنونا ، وأمة تتبارى
زادتا الأرض من حديد ونار تلك تبغى وتلك ترجو انتصارا
لا تكفان عزة وعنادا بسوى النصر قوة واقتدارا
بين هذى وبين تلك تداعى موطن الأمن والسلام انهارا
رحمتا للشعوب حين تطاحن ، فشقا الرحى عليهن دارا
أين عهد السلام ؟ أين حماة ؟ أين ولت دعاته الأدبارا
ليت شعرى فمن أثار لظاها ؟ ليت شعرى فأشعل الكون نارا
فتنة لم تصب مثيرى لظاها وحدهم ، بل أصابت الأقطارا
روعت آمنا وحلت وثيقا ورمت بالأسى أناسا كثارا
من قطين وراحل وغريب فارق الأهل رغبة واضطرارا

فالفرق كبير بين جو هذه الأبيات والأبيات السابقة . هنا جو تشيع فيه

(١) المقطم فى ٢٥-١-١٩١٦

الرهبة والخوف . وهناك جو يشيع فيه التشويق لطلب معالى الأمور عن طريق العلوم النافعة هنا استنكار وسخط ، وهناك إعجاب و إكبار . والأبيات الأولى من قصيدة قيلت فى حفلة افتتاح مدرسة فهى مناسبة للمقام . والثانية قيلت فى حفلة خيرية أقيمت لمساعدة الطلبة السوريين ، وكانت الصلات قد انقطعت بينهم و بين ذويهم بسبب نشوب الحرب بين العثمانيين و الإنجليز ؛ فهى مناسبة للمقام أيضا .

وقال أحمد شوقى فى وصف الغواصة[1] وما أحدثته من إغراق الباخرة « لوز يتانيا » .

رأيت على لوح الخيال يتيمة قضى يوم لوزيتانيا أبواها
فيالك من حاك أمين مصدق و إن هاج للنفس البكا وشجاها
فواها عليها ذاقت اليتم طفلة وقوض ركناها وذل صباها
وليت الذى قاست من الموت ساعة كما راح يطوى الوالدين طواها
كفرخ رمى الرامى أباه فغاله فقامت إليـه أمه فرماها
فلا أب يستذرى بظل جناحه ولا أم تبغى ظلها وذراها

و منها :

و دبابة تحت العباب بمكمن أمين ترى السارى وليس يراها
هى الحوت أو كالحوت منها مشابه فلو كان فولاذاً لكان أخاها
أبث لأصحاب السفين غوائلا وألأم نابا حين تفغر فاها
خئون إذا غاصت، غدور إذا طفت ملعنة فى سبحها وسراها

---

(١) ديوانه ٣ـ١٣٣

تبيت سفن الأبرياء من الوغى وتجنى على من لا يخوض رحاها
فلو أدركت تابوت موسى لسلطت عليه زناباها وحر حماها
ولو لم تغيب فلك نوح وتحتجب لما أمنت مقذوفها ولظاها
فلا كان بانيها ولا كان ركبها ولا كان بحر ضمها وحواها
وأف على العلم الذى تدعونه إذا كان فى علم النفوس رداها

كان شوقى قد ذهب إلى دار الخيالة ، فشاهد الباخرة الأمريكية لوزيتانيا التى أغرقتها إحدى الغواصات الألمانية . ورأى فتاة يتيمة تذرف الدموع الغزيرة لأنها فقدت أبويها وكانا ضمن ركاب الباخرة المذكورة ، فغرقا مع من غرق . وقد أثر هذا المشهد فى نفسه فجادت شاعريته بهذه القصيدة العصماء . ووصف الغواصة التى تختفى فى الماء وتحتجب عن عيون الرقباء ، ثم تفاجىء البواخر بمن فيها من الركاب ، وتفتك بها فتكا ذريعا ، و بذلك يتعرض الركاب للهلاك . ثم قال إن النجاة من الغواصات أمر بعيد الاحتمال . وأبدى سخطه على العلم الذى أدى إلى صنع مثل هذه الأسلحة الفتاكة .

وقال حافظ إبراهيم(١) :

لاهم ! إن الغرب أصبح شعلة من هولها أم الصواعق تفرق(٢)
العلم يذكى نارها وتثيرها مدنية خرقاء لا تترفق
ولقد حسبت العلم فينا نعمة يأسو الضعيف ورحمة تتدفق
فإذا بنعمته بلاء مرهق وإذا برحمته قضاء مطبق

(١) ديوانه ٢ـ٨٦ (٢) لاهم : اللهم . تفرق : تخاف

عجز الرماة عن الرماة فأرسلوا كسفاً يموج بها دخان يخنق[1]
تتعوذ الآفاق منـه وتنثنى عنـه الرياح ويتقيه الفيلق
وتنـابلوا بالـكيمياء فأسرفوا وتساجلوا بالـكهرباء فأغرقوا
وتنازلوا فى الجو حين بدا لهم أن البسيطة عن مداهم أضيق
نفسوا على الحيتان واسع ملـكها فتفننوا فى سـلبه وتأنقوا
ملـكوا مسابحها عليهـا بعدما غلبوا النسور على الجواء وحلقوا
إن كان عهد العلم هذا شأنه فينا فعهـد الجاهلية أرفق

ألقى حافظ تبعة مصائب الحرب وأهوالها على العلم ، فأنحى عليه باللائمة . وقال إنه كان يظن أن العلم نعمة كبرى ، فإذا هو بلاء وشر مستطير . وقال إن عهد الجهل كان أفضل بكثير من عهد العلم ، لأن تقدم العلوم أدى إلى اختراع الأسلحة المدمرة . وبذلك زاد شقاء الناس واضطرابهم وقلقهم ، وعظم خوفهم وفزعهم ، وكثرت الأخطار المحدقة بهم ؛ لا فرق فى ذلك بين المحاربين والمسالمين .

ومنذ قيام هذه الحرب والناس مختلفون فى شأن تقدم العلوم . فمنهم من يربط بين شقاء الإنسانية وبين تقدم العلوم . ومنهم من يقول إن تقدم العلوم مصدر خير وسعادة ورفاهية للإنسانية . وقد سبق أن رأينا المراوى يدافع عن العلم ويلقى تبعة ما حل بالعالم من الخراب والدمار على عاتق الإنسان الذى أساء استخدام العلوم وسخرها للتدمير والتخريب ، وكان الأجدر به أن يسخرها للإنشاء والتعمير .

(١) الـكسف : القطع ، والمراد الغازات الخانقة

وقال أحمد محرم[1] :

سهام وغى تسـددها عقول لها فى كل غاضة مروق
تبارى الجن فى الإبداع آنا تحاكيها وآونة تفـوق
إذا الأسباب كانت واهيات دعت فأجابها السبب الوثيق
جرت طلقا فجاءت سابقات وجاء وراءها الأمد السحيق
وأخرى تنفث الأهوال يجرى بمقذوفاتها القـدر الطليق
ترد حقـائق الزلزال وهما وتبطل ما ادعاه المنجنيق
لقد حمـل الردى المجتاح منها ومن أهوالهـا مالا يطيق
إذا قذفت فملء الجو رعب وملء الأرض موت أو حريق
تتابع لجـتين دما وناراً سـلام الناس بينهما غريق
إذا طلب النجاة تواكلـته مواليه وأسـلمه الصديق
يرم إليه « ولسن » حين يدعى وقد سد الطريق فلا طريق
حماه من القياصر كل غاز يسـوق من الفيالق ما يسوق
يعبئها وينفـذها سراعا تراع لهـا العواصف والبروق
إذا ضاقت فجاج الأرض عنها سمت فى الجو فانفرج المضيق
وفى الدأماء[2] داء مستـكن وجرح فى جوانبها عميق
إذا الأسطول أحدث فيه رتقا توالت فى جوانبه الفتوق
تطـير مدائن النيران منه وتهوى الفلك فيه والوسـوق
يخيب الحـول المرجو فيه ويهلك عنده الآسى اللبيق
أصاب بشره الدنيـا جميعاً فما تصفو الحياة وما تروق

---

(١) الأفكار فى ٢٦-٣/١٩١٧ .

(٢) الدأماء : البحر .

تفاقمت الخطوب فـلا رجاء   وأخلفت الظنون فلا وثوق
تطالعنا السنون مروعات   ونحن إلى أهلّتها نتوق
يمر العهد بعد العهد شراً   فأين الخير والعهد الأنيق ؟

كانت أسلحة الحروب الماضية لا تذكر إلى جانب الأسلحة التي ظهرت في خلال هذه الحرب . فقد تقدمت علوم الكيمياء تقدما عظيما ، فاهتدى العلماء إلى أسلحة خيل إلى الناس أنها من عمل الجن . وذلك لأنهم لم يعهدوا من الجنس البشرى أن ينتج أسلحة كهذه فى قوة الفتك والتدمير . بل إنهم رأوا أنها تفوق ما يمكن أن يصل إليه الجن . وكان من أشد الأسلحة فتكا الألغام الهوائية ، والطوربيد ذو الأجنحة الكهربائية ، والطوربيد الهوائى . فالألغام الهوائية وزن الواحد منها من ستين إلى مائة وعشرين كيلو جراما ، يقذفها مدفع من عيار ثمانين ملليمترا فتحدث انفجاراً هائلا ، وتنغرز فى الأرض عشرة أمتار فتقتل كل من حولها وتنسف ما حولها . والطوربيد ذو الأجنحة وزنه سبعة عشر كيلو جراما ، يطلقه مدفع خاص به من عيار ثمانية وخمسين ملليمترا ويقذفه إلى بعد ٥٥٠ مترا فيحدث انفجاراً مخيفاً ويفتك بمن هناك فتكا ذريعاً .

ومن اختراعات الألمان فى ذلك الوقت الطوربيد الهوائى الذى استعملوه فى طياراتهم ومناطيدهم . وطوله متران ويتحرك بالكهرباء ، ويمكن إبقاؤه فى الهواء ثلاث ساعات على الأكثر ، وهو يحوى مقدارا كبيراً من أشد المواد المتفجرة فتكا . هذه الأسلحة كلها هى التى أشار إليها أحمد محرم ، وقال إنها تحدث مالا يحدثه أشد الزلازل . وإذا قذفت عم الرعب والخوف نصف الأرض بينما يحترق النصف الآخر . وتتخلف عنها لجج من الدماء وأخرى من النيران .

ثم أشاد برئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت ولسن ونوه بالجيوش الضخمة التى أرسلها لمحاربة الألمان ، و بالأساطيل القوية التى سيرها لهذا الغرض .

وتناول بعض الشعراء المواقع الحربية الهائلة التى حدثت فى خلال هذه الحرب ، و بخاصة موقعة فردون الشهيرة . وفردون مجموعة حصون متلاصق بعضها ببعض على مسافة طويلة أمام حدود اللورين الألمانية وحصن متز الشهير .

هاجمها الألمان صباح ٢١ فبراير سنة ١٩١٦ بجيش يزيد على أربعمائة ألف مقاتل . وقد فاقت هذه المعركة بشدتها جميع المعارك التى وقعت فى العالم منذ الخليقة إلى ذلك التاريخ . فالعناد فى الهجوم ، والاستبسال فى الدفاع ، والمعدات الهائلة التى استخدمت فى القتال ؛ كل ذلك حير العقول وأدهش الألباب . فوقف العالم مبهوتا أمام هذا الصراع المنيف . وقد استمرت هذه المجزرة البشرية حوالى ثمانية أشهر ، ولم يفلح الألمان فى اقتحام هذه الحصون فارتدوا عنها .

قال نصر[1] لوزا الأسيوطى :

« فردون » ياحصن الحصون مناعة   أعداء كل العالمين عداك
دفعت حماتك عنك كل إغارة   وحمت عساكر كالليوث حماك
من كل قرم فى الحروب مجرب   بطل شجاع فى العدا فتاك
لجيوش نصرك كنت خير معاقل   وغدوت للأعداء شر شراك
هجموا على عالى حماك وقبلها   كمن الردى بشوائك الأسلاك
باعوا نفوسهمو هناك رخيصة   لله يا « فردون » ما أغلاك

(١) الوطن فى ٢٣/٥/١٩١٦ .

فكأن تربك للعدو مصايد حيطت بواد للردى وشباك
فبكل ركن معقل لكريهة وبكل شبر خندق لهلاك
سفكت بسفحك كالبحار دماؤهم هدراً فكيف إذا دنوا لذراك
لله ما أشقى الأنام جميعهم ما بين باك فى الحياة وشاك
أفرنسا يا فخر الممالك رددت بالمدح ما بين الملا ذكراك
المشرقان وأنت أصل نهاهما قبسا المعارف من سماء نهاك
حرية الأفراد ما انتشرت وما سطعت شموس إخائهم لولاك
أعيا قريضى حسنك السامى وكم أعيا عقول الواصفين سناك
يا كعبة الدنيا أقلت عثارها وهمى عليها كالسحاب نداك
أرضى الخلائق « جوفر » بفعاله والدهر والدنيا كما أرضاك
أفرنسا يا وطن الجمال وداره لله ما أبهى وما أسماك
يرعاك جيش لا تلين قناته والله جل جلاله يرعاك

أعجب الشاعر بدفاع الفرنسيين عن فردون ، فأوحى إليه إعجابه بهذه القصيدة التى مدح فيها فرنسا كما مدحها أحمد شوقى من قبل . وقال إنها منبع المدنية والحضارة . ومنها عرف الناس معنى المساواة والإخاء والحرية .

وفى الغارة الجوية الألمانية على مدينة القاهرة التى وقعت(١) فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٦ قال شاعر لم يذكر اسمه :

ما لنا قوة فنثأر منكم لا ، ولا نحن من جناة الحروب
أعجزتم هناك عنهم فجئتم ههنا تشتفون بالتخريب
كان فينا على الضلال أناس أحسنوا الظن فيكمو بالغيوب

(١) المقطم فى ١٤/١١/١٩١٦ .

فعكستم ظنونهم واعتديتم   وا كتسبتم عداء كل القلوب
محق الله جيشكم ورماكم   بالغوادى تغولكم والخطوب

يقول الشاعر إن المصريين كانوا يعطفون على الألمان ، ويحسنون الظن بهم ، ولكن لما وقعت هذه الغارة تبدلت مشاعرهم نحو الألمان فأصبحوا يمقتونهم. وقال إن المصريين لا يملكون القوة التى تمكنهم من رد عادية الألمان ، وأن هؤلاء لما عجزوا عن إلحاق الهزيمة بالإنجليز جاءوا إلى مصر ليخربوها ويدمروها لعل نفوسهم تطيب بذلك العمل .

* * *

وكان بعض الشعراء يتلقف قصص الحرب ونوادرها ويستوحى منها شعراً رقيقاً . مثال ذلك قول محمد صبرى السربونى تحت عنوان « حول[1] الحرب »

وأب يظل جناحه أفراخه   ما ذاق من جرائهم طعم الكرى
ولكم تزود منهمو لرحيله   قُبَلا إذا ما الصبح بان وأسفرا
ويناضل الحدثان عنهم جاهدا   حتى يرد من العوادى عسكرا
والناس إما غافل أو كادح   والرزق فى الدنيا لمن قهر الورى
فإذا العشية أقبلت ألفيتهم   أبدوا لمقدمه السرور الأكبرا
من ضاحك جذل ومن مستبشر   يلقى أباه مهللا ومكبرا
فتدافعوا للقائه وتسابقوا   ولو انه صخر إذن لتفجرا
يا رحمتا لبنيه روع قلبهم   خطب يدك المشمخر إذا عرا
فمضى إلى الحرب الضروس أبوهمو   ومشى إلى الموت الزؤام ومادرى
من ذا يواسى اليوم ربة بيته   أ كذا يداس عرين آساد الشرى ؟

(١) الأفكار فى ١٥/١٠/١٩١٤ .

لهفى على العهد القديم وأنسه عجباً لذاك العهد كيف تغيرا
بعثوا إليه بكتبهم وتساءلوا عنه فما وجدوا هنالك مخبرا
وأتى البريد ولا كتاب مسعد فبكوا عليه رحمة وتحسرا

فهنا قصة والد كان يرعى أولاده ويحنو عليهم . وحينما يخرج فى الصباح لعمله كان يزودهم بقبلاته الأبوية الزاخرة بالعطف والحب والحنان . وإذا رجع من عمله ليلا قابله أطفاله بالفرح والسرور ، والتفوا حوله جذلين مستبشرين . فلما نشبت الحرب دعى ليقوم بواجب الدفاع عن وطنه فلقى حتفه وانقطعت أخباره . وعاشت زوجته تبكى رجلها الذى كان يعولها ، وقاسى أطفاله مرارة اليتم .

وقال شحاته عطا الله[1] عبيد :

كيف يرجى من ذا الزمان الأمان وهو لا حرمة له أو ضمان ؟
فمن اغتر بالزمان يلاقى ما يلاقى من نفسه ذا الزمان
قُلّب لا النعيم فيه بباق أو شقاء يدوم أو أحزان
إنما المرء طبعه بئس طبع فيرى الصفو إذ تعالى الدخان
يترامى فى حضن أوهامه لا فطنة تثنيه ولا إمعان
كفتاة وفى لها الدهر يوماً بمناها فشاقها الإحسان
وتظنت أن الزمان كريم وهى لا تدرى أنه وسنان
قربت ساعة الزفاف وكادت بحلى العرس صدرها يزدان
فبنت من أوهامها خير صرح لا أساس له ولا أركان

---

(١) مجلة المفتاح عدد فبراير سنة ١٩١٦

ورأت نفسها بقرب حبيب بعد أن تم عندها الاقتران
سرحت فى مسارح الوهم لا تد رى بما يأتيها به الحدثان
بعد أسبوع قد يتم رجاها لا تمام لما رجا الإنسان
أخلفت ظنها الليالى وهدت ركن وهم فزعزع البنيان
دخل الخاطب المفدى عليها وهو مما أصابه حيران
كيف ينبيها بالفراق ولكن لا مناص له ولا غنيان
قبل أن يبدأ الحديث علتها صفرة الموت زادها الخفقان
ودرت من ألفاظه ما تحاشى قوله وهو العاشق الولهان
ذرفت دمعها السخين وناحت نوح ثكلى ماتت له ولدان
موقف جربته أهل الهوى قِدْ ما فهم أحبوا ثم قاسوا وعانوا
كل هذا وذا الخطيبُ حزين يسكب الدمع صابه الخذلان
ثم يحنو ملاطفا ويلين الـ قول ، لكن هل يفيد الليان ؟
إن مزجت السم الزعاف بشهد لجدير تحضر الأكفان
فهو كالسيف فعله فسواء كان عاطلا أو زانه مرجان
أحبيبى كيف تطلب قتلى بفراق ما رامه إنسان ؟
أين وعد وعدتنيه مراراً ويمين عليه سوف تدان ؟
أين مثل الشبان غير لا عهـ د لهم يبقى لا ، ولا أيمان
ينقضون الميثاق والعهد لا يثـ نيهمو إنجيل ولا قرآن
ظلمته فى لومها المر حتى قد تمنى لو انه مران
وأراد الموت الزؤام بطعن عن ملام فيه له خسران
وأجاب الفتاة بالرفق حتى تنطفى من أحشائها النيران

قائلا إننى وهبتك روحى منذ لقيانا ، يشهد الرحمن
ثم أقسمت لا أخون عهودا ليس يثنينى فى الورى سلطان
إنما الآن لا حياتى بملكى إذ حياتى ترومها الأوطان
كل شىء حسبته غير هذا فارحمينى إنى أنا الفقدان
واجب أن تشجعينى قليلا ففرنسا روحى لها قربان
أو يرجى الزواج ممن يرى أو طانه ذلت وهو نذل جبان ؟
لا مقام له فبئست حياة سوف تقضى وهو الذليل المهان
ودعينى ولا تلومى حبيباً راح يقضى ما تطلب الأوطان
إن أعش بعدها فقربك حتم أو مت كم قبلى قضت شبان
ودعته و بعد شهرين منعا ه أتاها فسادت الأحزان

هنا قصة شاب فرنسى خطب فتاة كان يحبها وتحبه . وقد أعدا العدة للزواج وظنا أن الدهر قد صفا لهما ، وأنهما سينعمان بالسعادة والرفاهية وطيب العيش . ولما وقعت الحرب فجأة دعى الشاب لحمل السلاح ، فذهب إلى خطيبته حزيناً ، وقد اصفر لونه وجف حلقه . وأحست خطيبته أن وراء الأمر شيئاً فتلهفت على سماع كلمة منه . و بعد تردد أخبرها أن موعد الزفاف سيؤجل ، فاعتقدت أنه غير رأيه فيها ، وأنه ربما فسخ الخطبة كما يفعل غيره من الشبان الذين لا عهد لهم ولا أيمان . ففهمها الحقيقة ، وهى أنه دعى لحمل السلاح ، وأنه ذاهب للدفاع عن الوطن . فودع كل منهما الآخر وداعاً حاراً ، وقد انهمرت دموعهما بغزارة واختلط بعضها ببعض . ثم انصرف لشأنه ، ولبثت هى تنتظر أخباره وتترقب

أو بته ، وتتمنى أن تحقق آمالها بالعيش السعيد فى كنفه . و بينما هى تعيش فى هذه الأحلام اللذيذة إذ جاءها نعيه فلبست عليه ثياب الحداد .

* * *

ونظمت قصائد كثيرة فى الإشادة بالأعمال الإنسانية التى تقوم بها هيئة الصليب الأحمر ، وحضّ الناس على التبرع لها . فمن ذلك قول أحمد شوقى[1] :

سر يا صليب الرفق فى ساح الوغى　　وانشر عليها رحمة وحنانا
وادخل على الموت الصفوف مواسيا　　وأعن على آلامه الإنسانا
والمس جراحات البرية شافيا　　ما كفت إلا للمسيح بنانا
و إذا الوطيس رمى الشباب بناره　　خض كالخليل إليهمو النيرانا
واجعل وسيلتك المسيح وأمه　　واضرع وسل فى خلقه الرحمانا
الله جارك فى عوان لم تهب　　لله لا بِيَعاً ولا صلبانا
وسلمت يا حرم المعارك من يد　　هدمت لسلم العالمين كيانا

الخ ...

وهذا شعر جميل تغذيه عاطفة إنسانية نبيلة . ولكن المصريين فى ذلك الوقت كانوا فى حاجة ماسة إلى المعونة . وليس من العدل ولا من الإنسانية أن نحض الناس على التبرع لجرحى الإنجليز فى حين أن فقراء الأمة من العمال المتعطلين وغيرهم كانوا فى حالة جوع و بؤس . كان على شوقى أن يبكى على هؤلاء العمال ، لا على جرحى الإنجليز . وقد سبق أن تكلمنا على الأموال التى

(١) ديوانه تحت عنوان « الصليب الأحمر » .

اغتصبها المحتلون من أفراد الشعب ، وأعلنوا أنها تبرعات دفعها الناس طائعين مختارين .

وقال ناشد سعد[1] :

سلام للأولى بالرفق قاموا إذا ما عز فى الأرض السلام
وهل ترجى السلامة فى زمان تحكم فى تصرفه الحسام ؟
ويالله من حرب عوان يشيب لهول مصرعها الغلام
فكم هى يتمت فى المهد طفلا فأصبح لا يلذ له ابتسام
وكم هى أثكلت فى الناس أما وكم فيها قضى بطل همام
وكم فيها هوى رجل جريح وآخر سامه الموت الزؤام
فرعيا للجريح بها وسقيا لمن فى الحرب عاجله الحمام

ومنها :

فيا أهل العطا والجود قوموا بواجبكم فقد وجب القيام
أجيبوا دعوة الداعى وجودوا فإن الشح فى هذا حرام
ولبوا دعوة الجرحى وأعطوا فإنكمو بفطرتكم كرام
ومصر بلا مرا بلد العطايا وهل فى مصر مكروب يضام ؟
هم الجرحى وقد بذلوا نفوساً فحق لهم على الناس احترام
وهم يشكون ما برحوا سقاما وجودكمو يخف به السقام
مجال الرفق والإسعاف هذا وإن الرفق للخيرات هام

(١) مصر فى ٢ — ١١ — ١٩١٥ .

وحيا الله فضلكمو ودامت لكم بين الورى همم عظام
وعشتم للعلا والجود ذخراً ونخراً والسلام لكم ختام

وقال نصر لوزا الأسيوطى من قصيدة[1] طويلة :

تأججت الهيجاء وهى سعير وبات رحى الموت الزؤام يدور
ونادى مناديها أجيروا بلادكم فليس سواكم للبلاد مجير
فلباه أجناد قساورة لهم يلذ ورود الموت وهو مرير
وغطى أديم الأرض من رمم الورى جبال ومن فيض الدماء بحور
وجرحى تباكوا والأسى يتبع الأسى إلى أن تباكت للصخور صخور
لهم زفرات أشعلت لحمة الدجى يكاد لها قلب الشجاع يطير
تفتتت الأكباد منها وهل ترى يخفف من داء الجريح زفير ؟
ترق لبلواهم نساء شعارها صليب على نهج المسيح يسير
صليب على بيض الغلائل أحمر هنالك لمسفوك الدماء يشير
أضأن ليالى الخطب فى ظلمة البلى فهن بديجور الخطوب بدور
هجرن الخدور الآهلات وأصبحت لهن بساحات الحروب خدور
وأيقن أن الدين فى البر بالورى وأن هداء المحسنين وفير
برزن لإسداء الجميل سوافراً وما ضر ربات العفاف سفور
سفرن فما لاحت لهن ترائب بدر ولا زينت لهن نحور

الخ ...

(١) الوطن فى ١٦ ــ ٣ ــ ١٩١٥ .

وكثر كلام الشعراء عن السلم والحب والوئام ، وترك الشقاق والخصام . قال عبد اللطيف النشار[1] :

فرقت الأطماع ما بيننا ونحن كالإخوان لولا الطماح
نعيش فى أمن وفى غبطة لو ينزع العالم هـذا السلاح
نريد صلاحا لعاداتنـا ليس سوى السلم لنا من صلاح
الخ ...

وكل هذا من الشعر الوجدانى المنبعث من العواطف الصادقة والأحاسيس والمشاعر المتدفقة .

وإلى هنا ينتهى الـكلام على « الأدب والحرب » .

(١) الأهالى فى ٢١ ـ ٩ ـ ١٩١٦ .

الفصل الثالث

الأدب والمجتمع

ذكرنا فى الكلام على الحالة الاجتماعية أن أسباب الحياة قد تعذرت على الطبقات الفقيرة حتى كان منها من يموت جوعا . وقد انعكس صدى هذه الحالة فى الأدب ، فكتبت مقالات ونظمت قصائد تصور البؤس والشقاء الذى حل بهذه الطبقة . مثال ذلك ما كتبه محمد توفيق دياب تحت عنوان « صريع[1] الرغيف » وهو :

« حادث أليم شهدناه بالأمس : رجل أضناه الجوع والنصب ، فخر مغشياً عليه . فلما أفاق من غشيته رفع يده المرتجفة إلى المارة وهو طريح على الأرض يسألهم كسرة من الطعام يدفع بها عن نفسه هجمة الموت . فلم يستجب له منهم أحد » .

« هنالك نظر ذلك المسكين إليهم نظرة كلها بغض وانتقام وقنوط . فما أتم تلك النظرة العجيبة حتى قبض يده ، وأغمض عينيه ، وأخذ يبكى بكاء خافتا وهو ما بين ميت وحى » .

« سأله صديق لى : ماذا يبكيه ، فلم يجب . فأعاد عليه فلم يجب . وكأن شدة الجوع وقسوة الناس وثورة البكاء قد خدرت حواسه فسلبته شيئاً من سمعه . صاح صديقى به الثالثة : ماذا يبكيك أيها الرجل ؟

---

(١) السفور فى ٤ ـ ٢ ـ ١٩١٦ .

فأجابه بصوت ضعيف ولسان لا يكاد يبين :

— لا يعنيك بكائى ، فاذهب فى طريقك .

— بل يعنينى ، وأريد أن أنفعك .

— أو تنفعنى كما نفعنى من قبلك مئات المارة الذين داسنى نعالهم وتأبى عيونهم أن تنظر إلى ؟!

— كلا ! بل أريد حقاً أن أنجيك من البؤس الذى أرى .

— إذن فعلىّ برغيف .

— هاك ثمن رغيفين ، فانهض وابتعهما من الخباز .

— لا أستطيع النهوض يا سيدى .

— وأنا لا أستطيع جلب الرغيف إليك ، فإن لم تنهض لشرائه خليتك ومضيت لسبيلى »

« هنا ارتجف المسكين خشية الموت ، فحاول النهوض بكل ما بقى فيه من جهد ضئيل معتمدا على الأرض بكلتا يديه طوراً ، ومتماسكا مستجمعاً لقواه طوراً آخر ، حتى وهت قواه فسقط كالميت ، وأخذته الغشية مرة أخرى »

« عندئذ أحسست وصديقى من وخزات الضمير بأمثال الإبر المسمومة ، فجعل كلانا ينظر إلى صاحبه ثم إلى ذلك الصريع الفانى ، ثم إلى السابلة وقد أحدقوا به و بنا فى زحام كثيف . وكذلك عامة أهل البلد يزدحمون على العاثر ، فإذا استغاث بهم من شقائه تولوا عنه ضاحكين . لا يشعر أحدهم إلا بجوع بطنه ولا يتألم إلا لأوجاع بدنه . إذا ضحك هو فما يضره بكاء الناس جميعاً . أو عاش هو فما يضره هلاك الناس جميعاً . لا يرى فى صحيفة الوجود إلا اسما واحداً يحبه

بكل قلبه ويسعى لإعلائه بكل قلبه عن سبيل حق أو باطل ؛ ذلك هو اسم شخصه الكريم » .

« بينا نحن كذلك إذا بالصريع يئن أنيناً تسمعه الأرواح ولا تسمعه الآذان .

آه ! واحسرتاه ! واحسرتاه على روح عزيزعندى ، رخيص عند كل الناس. على روح ينتزعه الجوع من بين جنبى بأظافره الملتهبة ، والناس حولى ينظرون ولا يشعرون» .

« على روح يموت وحياته فى كسرة من رغيف ، فى كسرة ينبذها الغنى والفقير لكلبه فى كل يوم من أيام دهره الطويل » .

« يا عجبا ! أفكان الإنسان فى تعاليم المدنية الحديثة أشد إخاء للحيوان منه للإنسان ! أشكو البؤس ولا أحسد الكلاب ، فقد ذقت مرارة الجوع ، وأشفق منها حتى على الكلب » .

« يا عجبا ! أيكون الإنسان هكذا ؟ ! من . . . هنا تضاءل أنينه حتى خفى على سمعى . هنالك مضيت مستعبراً[1] لأشترى له رغيفاً » .

* * *

وكتب أحدهم بإمضاء قارعة من السماء تحت عنوان[2] « حادثة فظيعة »

« فى ميدان قصر النيل ، مغدى أهل النعيم إلى أماكن النزهة ، ومراحهم إلى دورهم المشيدة الموفورة الحظ من أسباب الرفه ؛ فى ميدان قصر النيل حيث لا نسمع إلا صفير السيارات ، وصهيل الجياد ، ولا ترى إلا مظاهر الغنى ومظاهر القوة

---

(١) مستعبرا : باكيا .　　(٢) السفور فى ٢ — ٧ — ١٩١٧ .

ومظاهر الجمال ؛ وجدوه جثة هامدة دب فى تجاليدها الفناء ، صريع الجوع والظمأ ، صريع الآلام والأمراض . ذهبت صيحاته إذ يطلب لقمة تقيم حياته المتهدمة ، وإذ تخرج نفسه الموجوعة فى ثنايا زفرات الألم » .

« كان فتى فقيراً أصابه داء عضال ، فدخل مستشفى قصر العينى ، ثم أخرجوه يأساً من شفائه ، لا تحمله رجلاه المتورمتان ، ولا يملك مايمسك الرمق. جعلت تتقاذفه الشوارع وتطارده الشرطة . وقد رآه الراؤن يأكل من حشائش الأرض إذ لم يجد ما يأكله . ولما اشتد به السقم والجوع ، ولم يلق بين الناس راحماً أوى إلى تلك الأرض البراح الواقعة فى أول شارع سليمان من ناحية قصر النيل ، غير بعيد من نادى محمد على ؛ مجمع أهل الغنى من الأمراء والوزراء والكبراء . وهنالك وجد مكانا للموت ، إذ لم يجد مكانا للحياة فى بلد لا يجد فيه المريض مستشفى يحتمل علاجه إذا طال ، ولا يجد العاجز ملجأ يؤوى اختلاج صدره بالنفس الأخير » .

وكتب آخر تحت عنوان « فقراؤنا يموتون جوعاً »[(١)] .

« اتضح من الكشف الطبى الذى أجرى على جثة المرأة التى وجدت ملقاة على مقربة من مصر الجديدة ؛ أن الموت تسبب من الجوع » .

« ماتت إمرأة ، ولكن لم ماتت ؟ لأنها لم تجد من يعطيها كسيرة عيش . فياالخيبة الإنسانية فى زمن تدعى فيه التمدين ! وياالقسوة قلوب تدعى الرقة والعطف ! وياالخيبة أمل فى أناس كنا نظن أنهم يفعلون الخير لمجرد الخير » .

« ماتت المرأة ، ولا شك فى أنها بقيت أياما علة تمد اليد فترد ، وتشكو

---

(١) وادى النيل فى ١٩ — ٣ — ١٩١٥ .

حالها فتنهر ، وتذرف الدموع السخان فيقولون إنه تكلف . وهكذا بقيت تنازع البقاء ، والفناء يهددها حتى زهدت المدنية والعمران ، وسارت فى طريق العزلة تشكو اربها قسوة الإنسان على أخيه الإنسان » .

وكتب منصور فهمى تحت عنوان « الطائر الظلوم[1] » مصورا الظلم الواقع على الفلاحين :

« كان الطفل الذى رأيته هناك ؛ هناك فى ذلك الحقل ؛ صغيراً قصيراً . وكان ممتلىء الجسم ، يكاد يشبه الحمامة البيضاء فى وداعتها . لقد أراد أبوه الفلاح أن يستخدمه كإخوته لخير الزرع ، بل لخير عائلة قد ألفت الفقر ، وطالما ألفها الفقر من والد إلى ولد . فاصطفاه ليذود الطير عن شجر القوت ، ويزع الغراب الأحمق عن حبوب كادت تنضج ، ويقوم نضجها على كد العائلة وعرق الجبين » .

« كان الصبى يضرب بقدميه العاريتين صائحاً من جهة لأخرى ، وتارة كان يضرب الغراب بجمرات أعدها لرجمه . وكان تارة أخرى يدق على صفيح مجوف ليرعب بدقاته الطائر الظلوم » .

« رأيت الغلام مجدا فى عمله كأنه يشعر بفؤاده السليم أن غلة الزرع من حقه ومن حق إخوته وأمه وأبيه . وأن ليس للغراب أن ينالها وقد زرعوها ، ونظفوها وقد تعهدوها ، ويلتهمها وقد انتظروها كما ينتظر الأمل الجميل » .

« توهمت أن هذا الصغير الذى لم تعبث الأيام بطهارته ؛ توهمته يقول :

« لو أن الغربان عملت فى الأرض كما عمل فيها والدى وإخوتى لحق لها نصيب

---

(١) السفور فى ٧ — ١ — ١٩١٦ .

مما رزقنا الله. ولو أن الغربان كانت مستضعفة مكسورة الجناح لبسطنا لها أكفنا بالزكاة والرحمة ، تأكل آمنة مطمئنة »

« دق الطفل دقاته ، وصاح الطفل صيحاته . دفع بأقوى مجهوده إيجمرات فى وجه الغراب »

« على أن الطائر طفق يلتقط الغنيمة ويسمو فى الجو ، ويحلق فى فضاء الله الواسع ، وكأنه يلقى بنظرة من العلا ساخراً هازئا من كيد الغلام »

« ألا إن لهذه الغربان أسلحة من أجنحتها القوية تبلغ بها مناها رغم جهدك ياهذا الصغير !! ألا إن الطبيعة القاسية قد ميزت عليك خصمك ياولدى ورفعته بسلاح لم تؤته ، فلن تبلغ اليوم منه أمراً » .

« إن الحياة تداول بيننا الأمثال . فكم من مخلوق كان من العدل أن يعمل ويأكل ، فأكل من ثمرة العاملين دون أن يصرف شيئاً من العمل . وكم من غراب بين البشر يستمرىء لذة كد الغير ، ثم يترك الغير فى غصة الحرمان ! ألا إن الوجود لم يبلغ بعد كماله المنتظر . فسيرا حثيثا أيهذا الوجود على بركة الله إلى كمالك المرجو !! ألا إن الحياة الاجتماعية مازالت بيننا حمقاء غير رشيدة ، قد سلحت بعضنا بالسيوف ، وأبقت الآخرين عزلا عاطلين ، ثم دفعتهم ليقتتلوا قتالا مراً »

« رفقا رفقا أيها المتقاتلون ، وعزاء أيها الصرعى باسم الحق والواجب. أما آن للبشر بعد أن يمتحنوا قواعد هذا الحق والواجب ؟؟ »

وهكذا كانت حياة سواد الشعب فى ظل الاحتلال البريطانى . ومع ذلك وجدنا كتابا وشعراء تجاهلوا هذا البؤس والشقاء الذى كان يرزح تحته

المصريون ، وأكثروا من التغنى بالعدالة البريطانية !! فأين كانت هذه العدالة؟! أفى تقديم الأجانب على المصريين فى وظائف الدولة والشركات والمصارف ؟ أم فى حصر الشئون الاقتصادية بأيدى الأجانب ؟ أم فى شرائهم القطن بأبخس الأسعار ، واغتصابهم ثروة البلد ونهبهم لأقوات الناس ؟ ؟

* * *

وقد كان من نتيجة هذه الضائقة رواج لون من الأدب اقترن فيه الألم بالفكاهة والسخط بالدعابة . مثال ذلك ما كتبه أحمد بهجت تحت عنوان « الرغيف[١] » وهو :

« دفعنى الولاء القديم إلى رثائك بعد أن أصابتك يد الزمن ، واختلفت عليك الإحن . فقد رأيتك اليوم على غير عهدى بك ، فأهمنى الأمر كثيراً . أين ذهبت غضارتك ونضارتك ، ولين ملمسك وشهى مطعمك ؟! كان اللائذ بك قفارا يتورد خداه صحة ، ويفتل ساعداه قوة ، ويملأ صدر الأرض فى سيره رعبا . وقد كان كنفك عظيم الرحاب ، يتفيأ ظله رجلان فى شرخ الشباب ، فيجدان من حجمك صدرا رحبا ، ويصيبان من برك وابلا يطفىء أوار المسغبة ، ويبعد عنهما جائحة الجوع . فما بالك قد أصبحت مكمد اللون كأنما قد اعتراك مرض عضال ؟ وغدوت صغير الحجم ، نحيف البدن حتى ليصعب على سليم النظر تبينك اللهم إلا إذا استعان بالمنظار المكبر . وقد غدا المرء يرتجف إشفاقا من أن يلمسك خشية أن تصيبه بشواظك المهلكات . أو أن يجرأ على مضغك

---

(١) الأفكار فى ٥–٢–١٩١٧

تفاديا من أن يصيب معدته مالا تحمد عقباه ، لاسيما إذا سمع برائيتك التى فيها :

ولا ألين لفرد حين يأكلنى   حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

ويعلم الله أنه لولا الحياد والخوف من التداخل فيما لاحق لى فيه ؛ لكاشفت قواد الجيش ليتخذوك بديلا من القنابل ، لأنى أراك أكثر فتكا ، وأشد مِرَّة !!

فلا عجب لو أرقيك من ظلم التاجر وتفننه فى ابتزاز أموال الورى بسهر الحكومة ويقظتها ، لأن من واجب القوامة النظر فى مصالح الرعية ، وتخفيف ويلاتها . وأحوطاك من كثرة مزيجك وخلطك بتعاويذ مجالس الصحة فتصد عنهم غائلة العلل والأمراض » .

« أيها الرغيف ! أتريد أن تخلع ذلك الرداء الجميل الذى دعا السلف الصالح إلى تسميتك بجابر ابن حبة ؟ فأين بالله جبرك للقلوب وقد أتت عليها أسعارك المتوالية الارتفاع ؟ بل أين ما انطبعت عليه من البر ، وقد يأتدملك الطفل فلا تكسر حدة جوعته ؟ فإن كان عملك دلا منك فأستمحيك عذرا إذا قلت إنك قد جاوزت حدود الدلال إلى الهجران والصد . وإنك خلفت وراءك محبيك طر لاسيا الفقراء منهم ، ورغما من إساءتك إليهم بغير جريرة ، فإنهم يتمثلون بقول أبى نواس :

أساء فزادته الإساءة حظوة   حبيب على ما كان منه حبيب »

وبهذه المناسبة يقص علينا محمود بيرم التونسى قصة رجل كان قبل الحرب فقيرا لايكاد يملك قوت يومه ، ثم باع ماعنده من متاع قليل وأنشأ فرنا، واستغل

ظروف الحرب فجمع ثروة طائلة من تجارة الخبز . قال[1] :

لى جار كنت أواسيه ... من مالى دون الجيران
مأواه إذا ما الليل أتى ... كوخ مصدوع الأركان
فى يوم جئت لأنظره ... وأراه بقلب جذلان
فحـــــزنت لأنى لم أره ... ورجعت حليـــف الأشجان
ويئست من اللقيا حتى ... مـوتى ، وتقضى عامان
وأنا أتولى البحـث على ... هـــــذا المسكين الحيران
فتشت جميع مساجـــدنا ... وسألت جميـــع العميان
حتى مرت بى مركبة ... فيهـــا يختال جـوادان
ظلت تجرى حتى وقفت ... قدام فخيم البنيان
قصر قد حاط حديقته الـ ... فيحاء زنوج السـودان
بصروا بالخيل وقد وقفت ... فتقدم منهم عبـدان
أخذا بذراعى راكبها ... فإذا بالجار الجـوعان
فبهت لأمر فاجأنى ... ما كان يدور بحسبان
هذا جارى صار أميرا ... أو من أرباب التيجان
ووقفت بعيـدا ألحظهم ... حتى حجبوا بالأغصان
فسألت العبد وقلت ألا ... يا من يحسده القمران
قل لى من هذا الملك ولا ... تـكسر قلبى بالـكتمان
فاغتاظ أبو البيضاء وقد ... نادى بجميع الحبشان
بسرور ثم بمرسال ... وبالماس ثم بمرجان

(١) الأهالى فى ١١–١٢–١٩١٦

كل قد جر هراوته كبراً كفعال الشجعان
ففرقت وقلت رويدكمو ما جئت لضرب وطعان
لكن قد جئت أسائلكم عن صاحب هذا الإيوان
فأجاب كبيرهمو : هذا يدعى بفلان الفران
كنا نلقاه وكان له ديك والكوخ وعنزان
قد باع الكل وشاد بها فرناً كجميع الأفران
وأقام طويلا مجتزئا بالقوت وخبز الرغفان
حتى قامت ذى الحرب وقد نشبت بجميع البلدان
فأتت قوماً بفوائدها وأتت قوماً بالخسران
فعجبت وقلت لمرسال سبحان الله المنان
عن كنه بدائع حكمته عجزت أصحاب الأذهان
لكن القوم لهم شكوى فى كل زمان ومكان
يدعون بويل وثبور وغلاء وقود النيران
وأرى شكواهم كاذبة شيبت بصريح البهتان
لو كان بكفى أمرهمو لرددت الكل بخذلان
فليرض الخباز بهذا وليقلع عين الشيطان

كان موضوع الرغيف وما يتعلق به ، والفقر وما صاحبه من انحراف فى السلوك والأخلاق ، أومن ضعف فى الصحة ، والتعطل وما تبعه من يأس وانتحار؛ من الموضوعات التى شغلت الكتاب والشعراء فى خلال تلك الفترة فجادت قرائحهم بأدب قوى رائع يزخر بالعواطف الحارة والمشاعر المتقدة . وقد اشتدت

الحملة على الأغنياء وكثر التنديد بهم وارتفعت الصيحة بالثورة عليهم . قال أحمد محرم تحت عنوان « إلى[1] الأغنياء »

هززت اليراع فثار الأدب ورمت القريض فشب اللهب
حلفت بشعث خماص البطون عداها من القوت ما ترتقب[2]
تريد الكلام فتعيا الشفاه وتبغى القيام فتهوى الركب
رأى الله آلامها فاستحى ومر النبي بهـــا فانتحب
لأستجفلن بنى المشرقين بصاعقة من رجوم الأدب
ألم تر للدهر فى حكمه وكيف استحال بنا وانقلب ؟
ألحت علينا تصـــاريفه فما تستفيق وما تنثنى
تصدت لنا فى معين الحياة فما برح العيش حتى نضب

* * *

بنى مصر أين تراث الجدود وما جمعوا فى قديم الحقب ؟
وأين الضياع تدر النضار وتكفى البلاد عوادى النوب ؟
بنى مصر إن ثراء الشعوب فقار لجسمانها أو عصب
جريتم إلى الفقر فى حلبة ركبتم بها الغى فيمن ركب
فما برح المال حتى خوى وما برح الخير حتى ذهب

---

(١) وادى النيل فى ٤ ـ ٤ ـ ١٩١٥

(٢) شعث : جمع أشعث وهو الذى اتسخ شعر رأسه وتلبد . خماص : جمع أخمص وهو من ضمرت بطنه من شدة الجوع .

أيشكو الغنى فراغ اليـدين ويمضى الفقير شهيد السغب[1] ؟
فويح الطيالس والمركبات وويح القصور وويح الرتب
أغيثوا البلاد فإن البلاد تعانى العذاب وتشكو الوصب
جلبتم عليها هوان الحياة ويسأل جاهلكم ما السبب
فغضوا العيون ولا تعتبوا إذا اهتاج شاعركم أو غضب
ديون تئود رواسى الجبـــال وتعيى البحار وتغنى السحب
تذوب قوى مصر من تحتها كما ذاب دمعى لها فانسكب
فما ترفع الرأس إلا التوى ولا ترأب العظم إلا انشعب
فكل إلى فمه قد هوى وكل على وجهه قد أكب
بنى مصر هذا دعاء النذير فإما النجاة وإما العطب
بنى مصر إما ردى عاجل وإما حياة تزيد الكرب
أناشـــدكم وطنا ما درى أأنـــتم شهود به أم غيب
على م أضعتم ثراء البلاد وماذا قضيتم به من أرب ؟
وماذا ابتغيتم به من علا وماذا رفعتم به من حسب ؟
وكيف تجف ضروع الحيـاة وفى يدكم درها المحتلب ؟
ومن للعزيز إذا ما أهين ومن للكريم إذا ما نكب ؟
ومن للفقير عناه الطوى فبات وأمعاؤه تصطخب ؟
ضننتم عليـــه بنزر العطاء ولم تعرفوا حقه إذ وجب
وقلتم له رازق لا يضن ورزق يطالعه من كثب

(١) السغب : الجوع

مقالة من لا يخـاف الوعيد ولا يتقى الله فيما وهب
حرصتم على المال حرص الشحيح فهلا وأموالـكم تنتهب ؟
يفيض النضار على السالبين فيا للسليب ويا للسلب
أكف تدر على الأبعدين ويلوى بها الشح عن ذى النسب
أما راعكم من يبيع البنين بسوق المهانة بيع الجلب ؟
يبيع البنين ليشرى الرغيف فيـا للرجال ويا للعجب
جنود من الفقر تغزو النفوس وأنتم أسنتها والقُضُب

* * *

سراة البلاد ألا من يذود ؟ سراة البلاد ألا من يذب ؟
سراة البلاد ألا من يجود ؟ سراة البلاد ألا من يهب ؟
ألا من يرق ؟ ألا من يلين ؟ ألا من يواسى ؟ ألا من يطب ؟
ألا من يزيح شقاء العديم ؟ ألا من يزيح حياة التعب ؟
أما فيكم منعم يرتجى أما بينكم ما جد ينتخب ؟
تماثيل مرفوعة أم نصب ؟ أم القوم فى غمرة أم لعب ؟

أشار أحمد محرم فى هذه القصيدة إلى ما أصاب البلاد من الضيق الخانق . وإلى الديون الثقيلة التى كان يرزح تحتها الأغنياء الذين أنفقوا ثرواتهم على ملذاتهم الخاصة ولم يصونوها لينتفعوا بها فى أوقات الشدة . وقال إنهم ما زالوا ينفقون ما يحصلون عليه فى إشباع شهواتهم بينما هم يضنون على الفقراء بالنزر اليسير .

وفى قوله :

حرصتم على المال حرص الشحيح فهلا وأموالـكم تنتهب ؟

وما بعده إلى قوله :

أكف تدر على الأبعدين ويلوى بها الشح عن ذى النسب

تعريض بالأغنياء الذين تبرعوا بالمبالغ الطائلة للصليب الأحمر فى حين أنهم يبخلون البخل كله على أبناء وطنهم . ولكن فاته أن هذه الأموال التى جمعت للصليب الأحمر لم يدفعها الناس عن رغبة واختيار ، وإنما جمعت منهم قسرا ، وأخذت اغتصابا عن طريق تهديد رجال الإدارة لهم .

ثم أشار إلى الفقراء الذين اضطرهم الجوع إلى بيع بناتهم لعصابات تجار الرقيق الأبيض ، وقد تقدم الكلام على ذلك . أو هؤلاء الذين أرغمهم الجوع على عرض نسائهم فى سوق الدعارة . وختم قصيدته بمناشدة الأغنياء أن يدفعوا عن الفقراء آلام الجوع ، وأخذ يستدر عطفهم وشفقتهم .

* * *

وقال مصطفى صادق الرافعى تحت عنون « العمال العاطلون[١] »

ما لأهل الزمان؟ ما للزمان؟ ما لدار الهموم والأحزان؟
رجت الأرض جانبيها فبتنا وكأنا بكفتى ميزان
رب ماذا كتبت للناس فيها فتراموا بهذه الأضغان
تتحمل الأرض كل ثقل وتهوى تعبا من عداوة الإنسان
ضاقت النفس بالحقائق يصد عـ ـن وضاقت بكاذبات الأمانى
تطلع الشمس جمرة تتلظى وترى الليل مطبقاً كالدخان
فهموم الظلام تخنق خنقاً وهموم النهار كالنيران

(١) المقطم فى ٢٤/١١/١٩١٤ .

كانت الأرض كالجنان وكنا في نعيم يحكي نعيم الجنان.
فابتلينا بهم آدم لما حرمته وساوس الشيطان.
إن إبليس لو تمثل شخصاً لم يكن غير مارد ألماني.

* * *

أى خطب دهى فحرك منا رعدة الخوف فى الفؤاد الجبان.
صدم الأرض صدمة أمرضتها وبنيها بعـــــلة الخفقان
وهى مثل الوباء حل مكانا فسرى خوفه بكل مكان
فر منه الدينار رعباً وأمسى حين يمشى يمشى بغير أمان.
وغدت عقدة الدراهم فى الثو ب كعقدة الفصوص فى التيجان.
ورأت لفظـة الفقـير زمانا صار فيه الفقير شر المعانى.
ضاقت الحال ، أعوز المال ، أمسى فلك الرزق خافت الدوران.
وغدا « الشغل » كله شغل عزريـ ل وشغل المشاة والفرسان
وعجيب أن يكسد القطن جدا حين راجت تجارة الأكفان
أين عين الدينار ؟ كم شغف النا س هواها ، لا أعين الغزلان
أين تلك اللحاظ تلمع حسنا وتقر الأرواح فى الأبدان ؟
هى نور العيون فى كل أرض وهى السحر ، لا عيون الحسان.
ما ترى هجرها المبرح فينا جعل المبصرين كالعميـان

* * *

رب إنا فى عرس هذى المنايا قد شبعنا من طبخ هذا الزمان.
رب هل تمت الوليمة أم ما زال فيها لون من الألوان ؟

كم أب حوله البنون صغارا يتعانون شدة ويعانى
غاية العز عندهم طلعة الخبـ ـز ، وكل الأفراح فى الأفران
عضه الجوع عضة ضغمته فتلوى تلوى الثعبان
وتباكوا من حوله بدموع هى فى قلبه سهام الحنان
ثائر غيظه وغيظ بنيه شعل فوق ذلك البركان
صبية كاللالىء الغر فى السلـ ـك ودمع الندا على الريحان
يتناغون لوعة كفراخ الطيـ ـر حين انتفضن للطيران
جوع يأملون فى طلب الخبـ ـز أباهم ، وما أبوهم بوان
غير أن الخطوب غلت يديه بقيود من الأسى والهوان
ولو اسطاع ضرم الشمس نارا وأعد النجوم مثل الجفان
ولو اسطاع لاشترى قمر الليـ ـل رغيفاً لهم من الرغفان
ولو اسطاع ما استطاع يسوع لأتاهم من السما بخوان
كان للرزق عاملا بيديه فغدا لا ينال ما تعملان
ومضى أينما توجه قالوا ليس دفع الأجور فى الإمكان
يا فلانا إن لم يفدك فلان فعسى الله نافعا بفلان
ولو ان الفقير يملك ردا صرخت نفسه بكل لسان
إن هذا الكلام أبيض رنا ن وفقرى للأصفر الرنان
ما جناها المسكين فيهم ولكن عاقبوه بذلك الحرمان
أسلموه حيا كما يسلم الميـ ـت وحيد رحمة الرحمن
أيها المحسنون هذى ثمار بلغت نضجها لغير أوان
فتح الناس بينهم باب شر فافتحوا بابكم من الإحسان

واحفظوا للفقير فضل عفاف تركته بقيـــة الإيمـــان
إن هذا الضعيف مفترس الطبـ ـع متى ثار جوعه الحيوانى
شرس يضرب الفضيلة فى الجـذ ع فتهوى بالجـذع والأغصان
أيهـا المحسنون للدين رفقـا بأخ فى محبة الأوطـان
أيهـا المحسنون للعـلم رفقـا بأخ فى التضامن العمرانى
رجع الناس للتوحش فابقوا أنتمو للتمدن الإنسانى

بدأ مصطفى صادق الرافعى قصيدته بالحديث عن أهوال الحرب ومصائبها التى حلت بالجنس البشرى . فالعالم الذى كان جنة يرتع فيها الناس ويلهون ويلعبون قد أصبح جحيما لايطاق ، والسبب فى ذلك الألمـان الذين أشعلوا نيران هذه الحرب . ولو أن إبليس اللعين ظهر فى صورة شخص لمـا كان إلا أحد هؤلاء الألمـان وقال إن القلوب قد ملئت خوفا ورعباً ، وإن الناس من فرط الخوف يرتعشون من وباء الحرب الذى سرى فى جميع أنحاء العالم ، وأن النقود فرت من شدة الخوف وانعدم وجودها . ثم تعجب من كساد تجارة القطن بينما قد راجت تجارة الأكفان . وقال إن الشغل قد انعدم إلا شغل عزريل فإنه زاد وعظم ، وإلا شغل الجنود والأسلحة فإنه اتسع وانتشر .

ثم صور حالة العمال المتعطلين وما لاقوه من بؤس وشقاء . فهذا أب يجلس وحوله أطفاله الذين أضناهم الجوع ، وأصبح جل مناهم أن يظفروا بقليل من الخبز ولمـا لم يتيسر لهم ذلك أخذوا يبكون بكاء مرا . وأبوهم ينظر إليهم فى حسرة وألم . فهو لايملك مايشترى به الخبز لأطفاله ، لأن أبواب العمل قد أقفلت فى وجهه بإحكام ، ومسالك الرزق قد سدت فى طريقه .

وختم قصيدته بدعوة المحسنين إلى العطف على هؤلاء البؤساء حتى يحفظوا عليهم كرامتهم وعفافهم ، وإلا فإن الفقر سيدفعهم الى ارتكاب الجرائم والإخلال بالأمن العام . وحينئذ تتعرض أرواح الأغنياء وأموالهم للضياع . وأخيراً ناشدهم باسم الدين والعلم والمدنية أن يجودوا على هؤلاء الجياع بما يحفظ لهم حياتهم .

* * *

وقال الخفاجي تحت عنوان « العمال العاطلون[1] » :

أبين ظهورنا القوم الكرام ... وفى بلداننا النجب الفخام ؟
ويحيا العاطلون وهم عراة ... جياع لا لباس ولا طعام ؟
وتبكى حولهم جوعاً عيال ... هزيع الليل يسكتها المنام
وكانوا قبل ذلك فى نعيم ... لهم مال وعندهمو حطام
فساق إليهم الدهر الرزايا ... وجاء إليهمو الخطب الجسام
فباعوا كلما ملكوا ولما ... غدوا لا شىء عندهمو يسام
أراقوا ماء وجههم اضطرارا ... وسامهمو الهوان بما يسام
فمدوا نحوهم أيدى سخاء ... وخلوا البخل إن البخل ذام
وهل تجدى مقالاتى وشعرى ... لقوم باكتناز المال هاموا
وهل يجدى التناصح فى أناس ... وكل بالسفاسف مستهام
فكم كتب الجرائد من مقال ... وما يجدى بنى النيل الكلام
عشقنا المال نكنزه ألوفا ... من الذهب النضيد له نظام
ونودعه الخزائن محكمات ... يحار أمامها اللص الهمام

---

(١) الأهالى فى ١٩١٥/٥/١٢

فى هذه القصيدة تصوير لحالة العمال المتعطلين الذين فقدوا موارد رزقهم وباعوا مايملكون من أمتعة تافهة وأخيراً اضطروا إلى التسول . فهم جياع عراة، تبكى أطفالهم طول الليل من ألم الجوع حتى يأخذ منهم التعب مأخذه ويغلبهم النوم. وقال إن الأغنياء يكنزون الأموال ويحفظونها فى خزائن محكمة ، ويتركون الفقراء يموتون جوعاً .

وقال آخر تحت عنوان « أين[1] المروءة ؟ »

ألا هل بمصر أناس عمل ... تقى العاطلين المصاب الجلل
تقى السيدات وأطفالهن ... مرارة بؤس بهن نزل
ألفن من الجوع أكل الثرى ... وأكل الثرى موت من قد أكل
بكاء الصغار يذيب القلوب ... وتهتز منه أعالى القلل
فيا للرجال ويا للنساء ... لناس تساووا ببالى الطلل
وهل بعد هذا مصاب يرى ... لينفق فيه متاع الأول ؟
فهيا ابذلن من المال جزأ ... ولا تركنن لليت وعـــــل
فإن تبذلن ولو كان نزرا ... لتحيوا نفوسا بها الموت حل
تفتح لكم فضليات الجنان ... وتسموا سموا فوق زحـــل
الخ ...

لا شك فى أن هذا الشعر صادر عن عواطف صادقة ومشاعر متدفقة . فقد كان هؤلاء الشعراء يعيشون مع الشعب ، ويحسون بآلامه وأوجاعه ، فانعكس

---

(١) الأهالى فى ١٣/٥/١٩١٥

هذا الإحساس الشريف فى شعرهم الذى يتحدثون فيه عن بكاء الأطفال ، وبؤس العمال الذين اضطروا إلى أكل التراب حينما خلت أيديهم من المال . وقد حاول الشعراء استدرار عطف الأغنياء بهذه الصور الحزينة التى تترك فى النفس آثارا عميقة .

* * *

وقال عبد الرحمن سالم محرضاً الفقراء[1] على الفتك بالأغنياء :

برح اليوم بالظهور الخفاء — فكلوا الأغنياء يا فقراء
دخل البؤس بالشقاء علينا — إذ سكتنا وخلفه البأساء
امضغوهم وعلقوا الإثم فى جيـ — ـدى فهم بانتحارنا الأثماء
وابلعوهم وكلكم مستعد — لابتلاع الأحجار لولا الحياء
وأميتوا عواطف اللين إن لا — نوا ، فماذا أفادنا الإحياء ؟
ودعونى لمن عصاكم فإنى الـ — ـكفء والظن أنكم أكفاء
واخطفوهم براً كغواصة البحـ — ـر ، ففى البر والبحار البلاء

كان عبد الرحمن سالم يعيش فى الإسكندرية . ويبدو أن الضائقة المالية قد أحكمت حلقاتها حوله ، فدعا الفقراء إلى أن يتتبعوا الأغنياء ويقتلوهم ويأكلوا لحومهم لأنهم — كما يقول — هم السبب فيما حل بالفقراء من بؤس وشقاء . وقال إنه على أتم استعداد ليتحمل وحده التبعات التى من المحتمل أن تقع على عاتق الفقراء من جراء فتكهم بالأغنياء . وأشار على الفقراء بأن يخطفوا

---

(١) الأهالى فى ٣١-٣-١٩١٥

الأغنياء إذا لم يقتلوهم ، وأن يقلقوا بالهم ويزعجوهم ويتعبوهم ، لأنهم أتعبوا الفقراء، والجزاء يجب أن يكون من جنس العمل .

وهذه دعوة صريحة إلى الثورة والخروج على القانون . وقد حمل لواءها عبد الرحمن سالم ودعا إليها فى هذه القصيدة التى نشرها فى ٣١ مارس سنة ١٩١٥ و بذلك يكون قد سبق الثورة الشيوعية التى قامت فى روسيا سنة ١٩١٧ .

والحق إن المبادىء الثورية المتطرفة قد تفشت بين فقراء الإسكندرية فى خلال هذه الحرب . وكان عبد الرحمن سالم ومحمود بيرم التونسى ممن ساهموا فى الترويج لهذه المبادئ .

وجرى هذا المجرى حسن القاياتى حين قال مخاطباً الأغنياء :

فى مالكم للمعتفين فريضة ... من هب يسلبها فليس بمعتدى

فهو يحلل قيام الفقراء بسلب حقوقهم التى فرضها الله لهم فى أموال الأغنياء ، وهذا البيت ورد ضمن قصيدة نشرت تحت عنوان « وارحمتاه للعمال[1] العاطلين » .

وقال بائس محلاوى[2] :

قل يا سمير لمن شكا لك بؤسه ... وأسال غرب المدمع المطال
أجهدت نفسك ، لا غنى يرتجى ... يوما لدرء فوادح الأثقال
الحرب أفنت مالهم ، لا بل همو ... فى الراح أفنوا أكثر الأموال
من كان منهم ذا ثراء وافر ... أمسى وجل مناه نصف ريال

(١) الأهالى فى ١٩١٥/٣/٢٦
(٢) الأفكار فى ١٩١٥/١٠/٣

يا من شكوت البؤس لا تجهر به ... واكتم شكاتك إن حالك حالى
لذ بالمنية إن أردت تخلصا ... مما ألم ولا تـلذ بسـؤال
أظننت فى أرض الكنانة محسنا ... تعنيه يوما حـالة العمال ؟
خطأ ظننت فليس فينا محسن ... إلا لـكاس أو لطيب وصال
اقصد فقيراً قد ينالك نفعه ... فسرىُّ هذا القطر رب عيـال

وهذه الأبيات تصور يأس الفقراء من عطف الأغنياء . فالشاعر يقول إنه لا فائدة من الشكوى والبكاء ، لأن الأغنياء أنفقوا أموالهم على موائد الخمر وفى دور اللهو ، وعلى النساء . وعلى الفقير أن ينتحر إذا أراد أن يتخلص مما يعانى من الضيق ، لأن الموت خير له من الاستجداء . والمحسنون لا يهمهم حال العمال المتعطلين ، فهم مشغولون بأنفسهم ، عاكفون على لذاتهم يغترفون منها فى شره . واستنجاد الفقراء بأمثالهم خير من استنجادهم بالأغنياء ، لأن الفقير يحس بآلام الفقير ومصائبه فيرق له قلبه ، ويعطف عليه ، ويمد إليه يده ولو بالقليل التافه ، فالقليل إلى القليل كثير .

وقال عبد الحميد السنوسى تحت عنوان « البائسون[1] » :

كم بائس يشكو من الأيام ... متضـور لم يلف حق طعـام
كر الزمان عليه كرة حاقد ... لحبـاه بالتـبريح والآلام
يقضى النهار وبين أضلعه جوى ... بالجـوع لا من حرقة وغرام
ساءت معيشته وضل طريقـه ... وبغت عليـه عواصف الأيام
تعس يرى شكل الرغيف كأنه ... طيف يمـر عليه بالأحـلام

(١) الأهالى فى ٢٧ـ٥ـ١٩١٥

باع الحياة على كرامة نفسه ... والجوع مجلبة إلى الآثام
فاختار أشغال اللصوص لأنها ... تدنيه من مرغوبه بسلام
فغدا وبطن السجن منزله الذى ... يحميه شر تسيطر الأيام
ولرب سجن مظلم يشتاقه ... من لم يفز من عيشه بمرام
هذا هو الجوع الشديد وحكمه ... لا يقتضى للنقض والإبرام
يا من يرى الأيام وفق مرامه ... لا تغلقن بابا من الإكرام
إن الفقير إذا رعته كرامة ... لا يرتضى بالفتك والإجرام

صور عبد الحميد السنوسى أحوال الفقراء وما حل بهم من جوع دفعهم إلى مزاولة اللصوصية ، والسطو على المنازل والمتاجر ونهب مافيها من أموال . وهذا قد حدث فعلا كما بينا ذلك فى الكلام على الحالة الاجتماعية . وقال إن علاج هذه الجرائم هو فتح أبواب الرزق أمام المتعطلين .

وبهذه المناسبة نذكر أن الشاعر محمود عماد ، وكان موظفا بوزارة الأوقاف ، وقد تسلم راتبه الشهرى وقدره أربعة جنيهات ووضعه فى كيسه ، فإذا بنشال ماهر يمد يده إلى هذا الكيس ويأخذه ويختفى . فقال فى ذلك تحت عنوان « اللص الجرىء[1] » :

فى غمرة الشهر والأيدى مسددة ... نحوى تطالبنى بالدين فى الحين
والوقت حرب وللأزمات سيطرة ... على الجيوب وحظ الطين كالطين[2]

(١) الأفكار فى ١٩١٧/٦/١٠ .
(٢) الطين الأولى المراد بها الأرض الزراعية ، وقد هبطت قيمة إيجارها فى أول أيام الحرب لانخفاض سعر القطن ، وتعذر وجود السماد ، وصعوبة الرى بالآلات الرافعة بسبب ارتفاع أسعار الوقود .

مضيت أخطر تياها بأربعة   غر بكيسى أكياس ميامين
حتى إذا فاح منها ريحها عبقا   وللدنانير ريح كالرياحين
هوى إليها أخو حذق بنكهتها   سهل الإغارة شيطان الشياطين
فبزها بزة الإسفنج ثم عدا   عدو الظليم بلا دنيا ولا دين
ضاقت عليه كنوز الأرض قاطبة   وعف عن حوض أصحاب الملايين
وسار نحوى رعى الله مزوءته   وتلك سيرة مسكين لمسكين
يا أسوأ الناس رأيا بى وأخبثهم   ذهنا وأصلبهم فى موضع اللين
متى سمعت بأنى موسر « ترف »   أو أن مالى على العلات يكفينى ؟
ماذا أقول لذى دين أماطله   وكيف أمضى بأيامى الثلاثين ؟
ولى شريك على البأساء أكفله   يرجو نداى ولا يرضى بتهوينى
هلا رأيت غناء فى مناكبها   والأرض واسعة شتى الميادين؟
أقسمت باللوح لا مينا ولا كذبا   والنور والطور والزيتون والتين
أن لا غفرت لهذا اللص غزوته   جيبى ، وجيبى بلا درع وتحصين

فى هذه الأزمة الخانقة كان الشاعر محمود عماد فى حاجة إلى قرش واحد ، فإذا بهذا اللص يحرمه من راتبه الذى لم يكن يملك سواه . وقد انتظر شهرا يعد الأيام يوما بعد يوم ويمنى نفسه بقرب حلول الموعد المحدد لصرف الرواتب . فلما تم له ذلك إذا بهذا اللص يحرمه من ثمرة تعبه وكده ويضطره إلى الاستدانة أو التصرف فى بعض مايملك بالرهن أو بالبيع. وزاد من همومه وأحزانه وآلامه أنه كان ينفق

على شخص ربما كان والده أو والدته ، وكان هذا الشخص فى انتظار أول الشهر ليأخذ ما اعتاد أن يأخذ .

* * *

ويبدو أن المجلس البلدى بالإسكندرية قد اشتط فى فرض الضرائب خلال مدة هذه الحرب . فأخذ بعض الشعراء يندد بما فعله المجلس . قال محمود بيرم التونسى تحت عنوان « هوى حبيب[1] يسمى المجلس البلدى » :

قد أوقع القلب فى الأشجان والكمد	هوى حبيب يسمى المجلس البلدى
ما شرد النوم من جفنى القريح سوى	طيف الخيال؛ خيال المجلس البلدى
إذا الرغيف أتى فالنصف آكله	والنصف أجعله للمجلس البلدى
أقول حتى لو انى فى الطريق أرى	قرشين: ذا لى، وذا للمجلس البلدى
كان أمى بل الله تربتها	أوصت وقالت: أخوك المجلس البلدى
أمشى وأكتم أنفاسى مخافة أن	يعدها عامل للمجلس البلدى
وإن جلست فجيبى لست أتركه	خوف اللصوص وخوف المجلس البلدى
هل دارت الرسل بين العاشقين كما	تدور بينى و بين المجلس البلدى ؟
عندى قسائم أشواق مطولة	وغيرها من حبيبى المجلس البلدى
بكى الصغير يريد الخبز قلت له	دعنا لنجمع مال المجلس البلدى
يا بائع الفجل بالمليم واحدة	كم للعيال وكم للمجلس البلدى ؟ !
الأرض والناس والأنعام أجمعها	الكل ليست لغير المجلس البلدى

(١) الأهالى فى ٢٥ / ٣ / ١٩١٧ .

أخشى الزواج إذا يوم الزفاف أتى ... يبغى العروس صديق المجلس البلدى
وربما وهب الرحمن لى ولدا ... فى بطنها يدعيه المجلس البلدى
وصفرة اللون قد أصبحت أبغضها ... لأنها من شعار المجلس البلدى
إذا أقمت صلاتى قلت مفتتحا ... الله أكبر بسم المجلس البلدى
أستغفر الله حتى فى الصلاة غدت ... عبادتى نصفها للمجلس البلدى
أقسمت لا أدخل الجنات عن ثقة ... فى الحشر إن قيل فيها مجلس بلدى
إن الدعاء على الجبار أبلغه ... يارب سلط عليه المجلس البلدى

فأنت ترى السخرية والتهكم والمبالغة فى التشنيع والدعوة إلى التمرد والثورة على المجلس البلدى .

وقال عبد الرحمن (١) سالم معرضا بالمجلس البلدى :

إلى حوائط ذاك المجلس البلدى ... لا للمدير ولا من فيه من أحد
يا مجلس اسمع ما بليت به ... من ساكنيك وما قدمته بيدى
قدمت مستعطفا عرضا فكنت به ... كأبله يبتغى نقشاً على الزبد
أرسلت إنذارهم بالحجز مخبرهم ... بالطشت والحلة العوجاء كالأمد
وقلت بيتى لا « ويركو » عليه ولا ... صفر يجوز ولو فى آخر العدد
بيت صغير تعالى فى مساحته ... عن التشبيه ، به ثنتان من أود
ولو تمطى به البرغوث لا نكمشت ... مابين رجليه والكتفين فى الكبد
بيت إذا رهنوه فى عوائده ... كأن العوائد لم تنقص ولم تزد
كان الريال لنا فى الشهر أجرتنا ... وما سكنا به إلا من النكد

(١) الأهالى فى ١٨/٢/١٩١٥ .

لولا السكالة لى فى يومها دفعت من المحصل كان الطشت فى البلد
وكانت الحلة العوجاء تحت يد محسودة بعد ما كانت على حسد
فأسعفى بمعافاة عريضتنا إلى حوائط ذاك المجلس البلدى

وقال(١):

عجبا سمعت بأننى أتحدث ونهيت حتى خفت أنى أحدث
قلت الفلافل خير ماطعم الفتى فى الوقت حيث خرافنا لاتمكث
وصرخت من بلديتى فى حجزها طشتى وكادت حلتى لا تلبث
وكذاك قلت ولم يكن ما قلته بدعا عسى صلح يتم ويحدث
ما للمواساة التى ما زلت أحـ لف باسمها للبائسين وأحنث
فدعوت من نارى عليها دعوة فلعلها تخشى الدعاء وتبعث
هذا لعمرك كل ما قد قلته ومن ادعى شيئاً سواه يعبث

وكان عبد الرحمن سالم يمزج الشكوى بالدعابة والفكاهة والسخرية . قال من قصيدة(٢) .

فلا رغيف ولا عدس ولا بصل ولا فلافل إلا غاية الكسل
وقيل لى الآن ماذا أنت فاعله فقلت أجرى، وأنت ابكى أو اتكلى
فأمطرت بعد برق لامع عسلا فى عين ربى وفى عينى كالبصل
وقد تفطنت لكن بعدما خربت تلك التى قال عنها ضارب المثل
ناديت ساعة جيبى ليس عنك غنى لكن رهنك آن الآن للشغل
يا فرن جمعية الأهلين ترهن لى هذى على خمس أقات بلا جدل

---

(١) الأهالى ٢٥ / ٢ / ١٩١٥ .
(٢) الأهالى فى ١٣ / ٤ / ١٩١٥

أبيع فيها وأشرى حيث أربح ما يكون منها وكن عونا على الأكل
فقال اشترط أنى لا أزيد ولا قرشا عليها فعما قلت لا تحل
فلم يف القرش فيها بالطعام لنا طول النهار فهجت النفس بالأمل
صباح خير وأرجو غيرها ولقد أكلت قرشين ، قال: اخرج ولا تقل
فقلت بالله ، بالإحسان ، بابنكمو بأمكم ، بأبيكم ، قال : رح لعلى
يارب سلط لنا فى عامنا جرذا على أبى حسن وانصرن فى الحيل
لعلة ساعة جيبى بعد ما رهنت من أول الشهر ، قبل الشهر ترجع لى

وهكذا كانت ظروف الحرب عاملا فى نشر روح الثورة على الأوضاع الإجتماعية التى سادت فى ذلك الوقت . قال محمود بيرم التونسى ساخرا من قرارات لجنة التسعيرة[1] :

تعريفة محكمة التقدير من لجنة التعسير لا التسعير
اجتمعت فى أسعد الأوقات وحددت سعر الغذا كالآتى
القمح كل حبة بدرهم ومثله الأرز وحب السمسم
والتبين لم يوجد بالمثقال فى الخصب ، فالمثقال بالريال
من اشترى صاعاً من النخاله فهذا يعد من ذوى النباله
والسمن والزبد وكل دهن محرم تحريم بنت الدن
لا يذكر البيض بشىء ذاكر فالطير والدجاج كل عاقر
ويكتفى الفقير بالعظام واللحم قد يراه فى المنام
والزيت يستعمل للدواء لأنه ليس من الغذاء

(٢) الأهالى فى ١٣ ـ ١٢ ـ ١٩١٧ .

والفحم للنساء أمسى واجباً لـكى يزججن به الحواجبا
أما عن البترول فالأمر جلل ماءالحياة غائض، كيف العمل ؟
قد كان منه يملأ القنـديل صار به يضمخ المنديل
وهو لمـا قد حازه من الشرف يوضع فى بلور أصحاب الترف
وربمـا عـدوه فى الجهاز كما يقال (دخلت بالغاز)
إن جاء ذكره فقـل لا كانا ولو بقى مصباحنا عطشانا
وداخـل فى هـذه التجاره الحصى والتراب والحجاره
للأغنياء كل ما هنا ذكر وإن أبى ذاك الفقير ينتحر
مفعولهـا يسرى إلى الرجوع للسلم، لا فى آخر الأسبوع

صور الشاعر فى هذه القصيدة ما يعانيه الفقراء من الحرمان بسبب ارتفاع الأسعار فى جميع مطالب الحياة من مأكل ومشرب، وملبس، ومواد بناء، ومواد وقود وغيرها. وقال إن هذه الحاجات كلها أصبحت وقفاً على الطبقات الغنية. أما الفقراء فلا بأس أن يموتوا. وكان بيرم لا يألو جهداً فى إثارة الفقراء ونشر روح السخط والتبرم بينهم. ولعل الضيق الشديد الذى رآه فى خلال هذه الحرب قد طبع شخصيته بهذا الطابع الذى لازمه طوال حياته. وهو طابع السخط على الأوضاع الاجتماعية والتطرف فى اعتناق المبادىء البراقة التى كان يعتقد أنها الدواء الشافى لأمراض المجتمع. وقد سبب له هذا الاتجاه متاعب جمة.

ومن قوله فى إثارة الفقراء على الأغنياء تحت عنوان « الفقير المسكين » :

أيهذا الفقير كن جليـداً راضياً بالقضاء والقـدر[1]

(١) الأهالى فى ٢٦ ـ ١٢ ـ ١٩١٦

لك ثوب يميت لابسه واهن لا يخاط بالإبر
فتنفس إذا بكيت عسى تصطلى فيه نار مستعر
كان يكسوك أغنياؤك لو كنت فى عرفهم من البشر
فدواب الغنى رافلة فى كريم الدمقس والحبر
أنت للعاصفات مستمع وهو يصغى لرنة الوتر
فاخر الخز ليس يقنعه فاقتنع بالتراب والمدر
وهو إن يفترش أريكته فالتحف أنت هاطل المطر

وهكذا كان بيرم ينشر الثورة ضد الأغنياء ، و بالتالى ضد الاستعمار الذى احتضن الرأسمالية ، وهيأ لها الظروف الملائمة لتنمو وتتضخم على حساب الطبقات الكادحة كان بيرم يدعو إلى العدالة الاجتماعية ولكنه لم يلزم جانب الاعتدال، وكانت عقليته مهيأة لقبول المبادىء المتطرفة حتى قبل قيام الثورة الروسية . فإن هذه الأبيات نشرتها له صحيفة الأهالى فى ٢٦ - ١٢ - ١٩١٦ . وكانت القيصرية ما زالت قائمة فى روسيا .

* * *

وعلى أثر انتشار تجارة "رقيق الأبيض قام بعض الشعراء والكتاب بنظم القصائد وتدبيج المقالات التى تدور حول استنكار هذه التجارة ، وتدعو إلى محاربة الرذيلة ، ونصرة الفضيلة . قال شحاته عطا الله عبيد تحت[1] عنوان : «بنت الهوى »

وقفت على طنف بجسم عار هلا ترى فى فعلها من عار ؟

(١) مجلة المفتاح عدد أغسطس سنة ١٩١٦ .

لا ، لا فقد نزع الفجور حياءها فغدت تسابق غيرها وتجارى
ورأت بياض الجسم سلعة تاجر فبدت لتعرضه على النظار
آه لجسم بات عرضة طالب ولماء وجه فى الخلاعة جارى
ولربة القد الرشيق وحقها سكنى البيوت منازل الأحرار
سلها عن التعب الذى تلقاه فى جمع الدوانق واكتساب نضار
وعن الذى تلقاه من قصادها آنا وآنا من مشاغب جار
أو من مؤجرة المنازل للخنا قناصة الفتيات للاتجار
قوادة عبث الزمان بحسنها فغدت تبيع محاسن الأبكار
قوادة نضبت موارد رزقها وغدت بلا عون ولا أنصار
وتفرقت عشاقها ولقد نسوا ورد الخدود ونكهة المعطار
وارتاع قلبهمو لصفرة خدها ولما عراها من ضنى وخوار
مهلا أما هذى الذى قد كنتمو فى حبها تذرون بالأخطار؟
تتسابقون إلى اكتساب ودادها بذخا وإسرافا وخلع عذار
وترون أن المال يأسر قلبها والعشق مطبوع على الدينار
وهى التى ضحكت على أحلامكم تبدى غراما والنفاق توارى
يا هل ترى جهلت عواقب مهنة أو ما ستصنعه يد الأقدار ؟
وبأن عشاق الملاحة نفر يتقلبون تقلب الأدهار
الحسن يجذبهم ولكن إن بدا وخط المشيب بلمة وعذار
تركوا هواها واستمالوا غيرها وكذا فهم من قينة لجوار
فرغ الوفاض من الدراهم وانزوت تبكى زمان الحسن والإيسار
ولى الشباب فما لها من دهرها أمل وأضحت لعبة الأقدار

لا الدهر ينصرها ولا عشاقها إن ضرها كانوا من الأنصار
فتبيت فى بؤس و يصحبها ضنى فزمانها فى نهضة وعثار
والناس تهجر والرفاق تفرقت والله ينذرها بعقبى النار
وكذا تموت وحيدة فى دارها محرومة من زورة الزوار
لا عائد يأتى فينفث كربها مما ألم ولا أخ فيدارى
أو والد يحنو عليها عطفه بل قد أرى الأم الرؤوم تجارى
وإذا قضت يوما فما مسترحم يرجو لها عفو الإله البارى
فالعيش بؤس والممات فضيحة وكذا تكون عواقب الفجار

فى هذه القصيدة تصوير لحياة البغى أيام شبابها حينما يتهافت الرجال حولها ويجرون وراءها . ولكن أيام الشباب لا تدوم فإذا ما انقضت وتقدم بها العمر انفض الناس من حولها . فإذا هى وحيدة تعيش فى عزلة وفاقة و بؤس . لا تجد من يواسيها فى وحدتها أو يخفف عنها آلام العزلة . و إذا ماتت لم يحزن لوفاتها أحد ، ولم يبك عليها إنسان ، ولا يطلب لها الرحمة صاحب أو قريب .

ويهدف الشاعر من هذا العرض إلى الوعظ والإرشاد . فإذا كان هذا مصير البغى فأخلق بالمرأة العاقلة أن تحيا حياة شريفة تحوطها السعادة والطمأنينة .

وقال محمود شهدى(١) :

اهدم بيوت الخنا واطمس معالمها وشرف القطر بين الناس والأمم
نرى بيوت الخنا تزهو برونقها وتغلق اليوم دور العلم والحكم
نراك نحو العذارى مغرما ولها تسعى لما عاد بالويلات والندم
الخ ...

(١) المفتاح سبتمبر سنة ١٩١٥ ص ١٤٤ من العدد ١٦ .

وقال أحمد الماجدى معرضا بإسماعيل صدقى وما كان يحدث منه فى عائمته، وداعيا إلى الحجاب، ومنع الاختلاط بين الجنسين(٢) :

أمسك يراعك فالأقوام ما رغبوا فى المكرمات وعن حوض العلا نكبوا
وصار بعضهم بالفجر مفتخراً كأن معنى المعالى منه مكتسب
كنا نقول عن الشبان إنهمو هم الأولى بهوى الشيطان قد لعبوا
وطالما خدعوا عذراء فانتحرت من الخداع إذا ما عرضها سلبوا
لكن رأينا رجالا شاب شعرهم ولا الحياء بهم يعلو ولا الأدب
ساروا على منهج الشبان فاندهشت منا العقول فبئس الشيب مذ خضبوا
تلك الحوادث فى الأيام تنذرنا بأن عصمة قومى حشوها ريب
وما اختلاط الفتى بالبنت غير أذى كالنار تضرم إذ يدنو لها الحطب
من يحجب البنت عن كل الرجال نجا من عيشهم دينه والجاه واللقب
قل للأولى حاربوا أهل الحجاب قفوا عند الحوادث تدروا أنكم خشب
مع الحجاب ترون الفسق منتشرا هل بالسفور يصان العرض والحسب؟

وسبق أن ذكرنا أن المعركة بين أنصار السفور والحجاب قد عادت إلى شدتها وضراوتها بمناسبة اختطاف الفتيات وإكراههن على البغاء. وبسبب إنتشار موجة من الخلاعة والتبرج والانحلال. قال محمد شهدى منتصراً للحجاب، من قصيدة(٢) :

ترجو السفور ودين الله يمنعه بنص قرآنه المبعوث فى القدم

---

(١) المؤيد فى ٢٠ ـ ٥ ـ ١٩١٥ .

(٢) المفتاح سبتمبر سنة ١٩١٦ .

تسعى لرفع حجاب فيه مهلكة للدين والشرع والآداب والشمم
وتحتسي أكؤس الجريال مبتهجا ونصرف الوقت فى اللذات والنقم
فكم تجر عليه الأوطان من نكد ومن هموم ومن شر ومن ألم

فرد عليه طه السباعى بقصيدة جاء[1] فيها : -

يا قاتل الله البراقع إنها أدهى خداعا من خيال اليلمع
تخفى المساوئ من أنوف قبحت وملاطم سفع وثغر أشنع
وتريك برقاً خلبا من أعين تصمى الحشا بتخنث وتصنع
فيصور الوهم الكذوب محاسنا ويظن كل الحسن تحت المقنع
ولربما بدت العجوز صبية بنفوذ ذاك الساحر المتضلع
تالله ما أدرى بأية حيلة وصل النساء إلى اختراع البرقع
وكبير ظنى أنه أحبولة من نسج إبليس الخبيث المبدع
ما زال يعمل كيده فى صنعه حتى استقام له دقيق المصنع
شرك العقول وخدعة ما مثلها تصبى الحليم وفتنة المتورع
يا قوم ما هذا التخبط فى الدجى والحق أبلج غير خافى المطلع
إن كان حسناً ترغبون مصانه فالعلم والأخلاق أفضل برقع
أو كان قبحا فاتركوه وشأنه فالشوك ليس بحاجة لموشع

فطه السباعى يقول إن البراقع وسيلة للخداع والتضليل ، لأنها لا تظهر المرأة على حقيقتها . وقال إنه يغلب على ظنه أن البرقع اخترعه إبليس ليكون مصيدة للنساء يقع فيها الرجال وينساقون وراء المرأة دون أن يعرفوا هل هى شابة أم عجوز ، جميلة أم قبيحة . وقال إن البرقع فتنة للرجال لا يسلم منها التقى الورع

(١) السفور فى ١٩١٦/٣/١٠ .

والعاقل الرزين . ودعا إلى تركه لأن المرأة الجميلة لهـا من عقلها وثقافتها خير وازع . أما القبيحة فإن الناس لا يلتفتون إليها فلا حاجة بها إلى البرقع .

وقال شاعر آخر من أنصار السفور[1] :

ليس السـفور بضـائر امرأة ابست ثياب الحسن والطهر
تمشى إلى الأسـواق جامعة بأس الحديد وبهجة البدر
إن جاءها غر يغازلهـا سـارت ولم تحفل بذا الغر
والطهر ثوب لا يمزقه إلا جنوح النفس للفـكر
ماذا يفيد حجاب غانية شـدت حبال الشر والغدر
خاطت حجاباً ليس يحجبها شـفاف يخـدع أعين الغير
تمشى يهز العجب مشيتها تزهو بريح الورد والعطر
لا قلب يزجر نفسها أبدا والنفس لا تهدى بلا زجر
يا من يقول الحجب واقية إن الحجاب نقاوة الصـدر
فانشر لواء العـلم فى بلد جهـاله تربو على الحصر
واطلق حمـام الروض من قفص فالورق لا تخشى من النسر

استخدم الشاعر أدلة منطقية وبراهين عقلية . لم يقل إن الدين يبيح السفور ، ولـكنه قال إن الحجاب لا يمنع المرأه من الانحراف إذا كانت بطبيعتها تميل إلى ذلك .. وقال إن المرأة المتحجبة تهتز فى مشيتها وتنبعث منها رائحـة العطر فتعظم فتنتها ويشتد إغراؤها وبذلك تـكون مثاراً للشهوة فى قلوب الرجال . أما المرأة السافرة فلا يضرها السفور إذا كانت مثقفة مهذبة ، فثقافتها

---

(١) الأهالى فى ١٩١٥/٥/٢ .

ستكون أكبر عاصم لها من الانحراف . والحجاب إذن هو طهارة النفس من الشرور . ودعا إلى نشر التعليم وتحرير المرأة .

وقالت زينب توفيق مدافعة عن حرية[1] المرأة :

وصائح صاح فى واد فأحزننى ... إنى أراه على غير الهدى صنعا
خال الفتاة متاعا لا شعور لها ... فراعه ما رأى منها وما سمعا
وليته كان ذا رأى يصول به ... وليته قبل ما شاء الرشاد وعى
وكان أحرى به أن لا ينازعها ... نفسا تقطع مما كاده قطعاً
هل أذنبت بينهم أن جاهرت بمنى ... أم قد أتت بينهم من جهرها بدعا
لها شفيع من الآداب ينصرها ... وخير شئ من الآداب ما شفعا
يا قوم مالى أراكم من جهالتكم ... جرعتمونى من محض الأسى جرعا
وما علمتم ومالى أن أعلمكم ... إن كان أكثركم بالجهل مقتنعا
منعتمونى من الغايات أجمعها ... إن العزيز على الإنسان ما منعا
أكل ما ضرنى خير لأنفسكم ... والشر فى شرعكم لى كل ما نفعا
سعيتمو فى جمودى رغم علمكمو ... أن الرقى على ساق الحى سعى
وقد خشيتم صلاحى رغم علمكمو ... نبزى القديم وما قد كان متبعا
وهل تبعتم سوى آرائكم وكفى ... بهضمكم كل حق أرتجى جشعاً
بأى شرع قتلتم كل عاطفة ... محبوبة ، يا ويح الذى شرعا

الخ . . . .

فرد عليها محمود عز العرب تحت عنوان « حظ المرأة[2] أيضاً » .

أسيدتى رويدك أمهلينا ... وخلينا نخبرك اليقينا

(١) الأفكار فى ٢٩/٧/١٩١٧ .
(٢) الأفكار فى ١/٨ ، ٤/٩/١٩١٧ .

تقولين الرجال بغير رأى أراك على الرجال تحامليناأراك تصورين الشخص منا عريقا فى جهالته مكينا
تريدين الرقى إلى المعالى وأنت طريقها لا تسلكينا
أتعجبك الفتاة وقد تمشت تشيعها عيون الناظرينا ؟
فطوراً باليسار تثير عجباً وتارات تهز لك اليمينا
وترمق من تصادفه بلحظ فيودع قلبه داء دفينا
نريد صلاحها وشفاء داء عياء قد أقام بها قرونا
نريد لها التقدم والمعالى وأن ترقى نساء العالمينا
وليس يفوز مصلح من يليه إذا ما لم يكن هذا معينا

وهذا الرد غير سليم لأنه يقول إن الفتاة تلجأ إلى الخلاعة والإغراء ولفت أنظار الرجال باهتزازها فى سيرها . وهذا ينطبق على المرأة المتحجبة كذلك . وقد أجابته زينب توفيق بقصيدة أخرى عنيفة اللهجة . قالت[١] :

لقد راعنى أنى رأيت أئمة يرون حراما ما أراه حلالا
يرون حياتى فى الحياة ضئيلة ويرجون لى فى العالمين زوالا
ويا عجبا يبغون منى سلعة ويبغون منى منزلا ونعالا
ضلالا ، ضلالا ما أرادوا وما رأوا وإن أكثروا قيلا على وقالا
ولى مهجة لو هذبت كنت مثلهم وزدت على مر الزمان جمالا
ولكنهم شاءوا عذابى وشقوتى فما نولونى فى الحياة نوالا
كأنى من الأنعام حظى مأكلى وأن يضعوا لى مقودا وشكالا

---

(١) الأفكار فى ١٩١٧/٩/٤ .

كأنى لم أخلق لشئ فلم أنل بغير الهوى إما طلبت منالا
ألا فاتقوا الرحمن قبل لقائه لقد طال ظلمى فى الحياة وطالا
ألا هذبونى واتركونى فإننى سأحسن من بعد القبيح فعالا
ألا علمونى كل ما هو نافع لأملأ نفسى بالجميل خصالا

ومنها :

يسدد نحوى فى الملام سهامه ويهزأ منى إن مشيت نكالا
ويغضب لا مغض ولا متمهل كأنى شيطان هنالك جالا
رويدكمو فالخطب أعسر عندكم ولا تضربونى للقبيح مثالا
فإن عبتمونى إن مشيت لمشيتى وصوبتمو لى فى الملام نصالا
فلى مثل فيكم وأنتم ترونه لقد نال فيما عبتموه ونالا
ففيكم شيوخ قبح الله رأيهم يتيهون عجباً تارة ودلالا
يميسون كالأغصان إن هى داعبت نسيما فمالت يمنة وشمالا
وفيكم من الشبان من هو مشبهى تعاجب من حسن القوام فمالا
له مشية تزرى بكل خريدة إذا ما تهادى رقة ودلالا
ترى منه خصرا ناحلا معجبا به وخدا صقيلا كالهلال تلالا
وذلك بعض من أمور خفية إذا شرحت كانت على وبالا
وترجون منى صالحا ونفوسكم ضعاف ، محالا شئتمو ومحالا
وترمونى بالضعف ، والضعف كامن بأنفسكم إن زال خطبى زالا
ألا فاصمتوا فالصمت خير لمثلكم ولا تكثروا حقداً على مقالا
دعونى منكم إنما هى صيحة مللنا صداها يا رجال ملالا

هذه نماذج مما تبادله الفريقان فى ذلك الوقت . فبعضهم كما رأينا أيد الحجاب وانتصر له وعزا ما انتشر من الفساد إلى السفور . وبعضهم دافع عن السفور وعن تحرير المرأة دفاعاً حاراً . فكانت معارك قلمية عنيفة استمرت طوال مدة الحرب ، وهيأت الأذهان لقبول ما سوف يحدث فى ثورة سنة ١٩١٩ من اشتراك النساء فيها وخروجهن متظاهرات داعيات للاستقلال والحرية والتضحية فى سبيل الوطن .

وقد تعرضت زينب توفيق لجنس الرجال تعرضاً قبيحاً . فتحدثت عن الشبان الذين يبالغون فى التزين والتأنق وغابت بهم جنس الرجال . ولمحت إلى كثرة المخنثين فى ذلك الوقت . والرد على ذلك يسير ، فالمفروض أن الفتاة تطلب رجلا . وللرجال شروط إن وجدوها فى الفتاة تزوجوها ، وإلا فإنها تقضى حياتها بلا رجل ، ولن تستطيع ذلك .

* * *

وقال محمود خيرت (١) معرضاً بما انتشر من فساد وتهتك وخلاعة ، تحت عنوان « من المسئول ؟ »

ما للفتاة تغيرت أخلاقها ؟ فجنت على الأعقاب والأسلاف
وجنت على الماضى الكريم وسمعة طار الزمان بها بكل مطاف
حنت إلى شمس الحياة ترف فى أكنافها تحت الأديم الصافى
وصبت إلى يوم يفك إسارها فيه وقد عدته يوم زفاف

(١) الأفكار فى ١٦ — ٧ — ١٩١٧

والنفس تكره أن تكون سجينة ... والمرء يمقت شرعة الإجحاف

فتهللت منا النفوس وقد غدت ... ترتد حصتها من الإنصاف

متفائلين وليس فى حسباننا ... أن يستحيل الوعد للإخلاف

متوسمين الخير فى حركاتها ... عند الغد المتباعد الأطراف

والأم مدرسة النفوس إذا غذت ... أبناءها بمحاسن الأوصاف

لكن لسوء الحظ طاش بسهمها ... نزق الشباب وخلة الإسراف

فتقوست فى مشيها وتخبطت ... فى سيرها والأمر ليس بخاف

حتى غدت من أهلها أو بعلها ... والناظرين مثار كل خلاف

ماذا أقول وكلما خرجت ترى ... غصنا تثنى لين الأعطاف

قد أحكمت منه الإزار فشف عن ... أعضائها ومرجرج الأرداف

والوجه من أصباغه فى برقع ... جاءت عليه ببرقع شفاف

واللحظ يرسل فى الطريق تحية ... للناس خانقة لكل عفاف

والناس من لحم يحن ومن دم ... وعواطف عند الشباب خفاف

ما أدركت معنى الحياة فأصبحت ... أولى من المجروح بالإسعاف

صدق المناصر للحجاب فتركه ... للجاهلات مطية الإتلاف

الزهر يقصد وهو فوق غصونه ... والدر يطلب وهو فى الأصداف

كان محمود خيرت من المؤمنين بالسفور ، الداعين إلى تحرير المرأة وإنصافها ومساواتها بالرجال ولكنه ارتد عن ذلك وكفر بالسفور وأعلن أنه مؤمن أشد الإيمان بالحجاب . والسبب فى ذلك أن المرأة ـ كما يقول — أساءت استخدام الحرية وانقادت لهواها ، وسارت وراء شهواتها . وأضحت من أجل ذلك فى

خلاف مستمر مع أهلها أو مع زوجها . فهى تريد أن تخرج فى أى وقت تشاء ، وتذهب إلى أى مكان تحب دون أن يسألها أحد عن وجهتها أو يحاسبها على تغيبها لأنها فهمت أن حريتها ومساواتها بالرجل تبيح لها أن تتصرف تصرف الرجال فى غدوها ورواحها . وقال إن الحق كل الحق مع أنصار الحجاب .

وقد أكثر الشعراء فى ذلك الوقت من البكاء على فساد الأخلاق الذى نتج عن اختلاط الجنسين . وألقوا اللوم على الشباب ووصفوهم بالذئاب ، واتهموهم بالسطو على أعراض الفتيات . قال حسن القاياتى(١) مصوراً بعض مظاهر الفساد فى تلك الأيام :

أخـلاق نشأتنا بغير تصنع ... كخدود نسوتنا بلا صبغاتهـا
موليك محض البشر منهم خائن ... قد تخبـأ الأزهار جرثوماتهـا
هم الفتى فى مصر زى مونق ... تزرى براعتـه بزى فتاتها
آصـال مصر ولم تزل آصالها ... تهدى لجؤذرها وصـال مهاتها
من كل زهراء القناع كأنها ... قد أشرفت منه على مرآتهـا
من كل خاطرة العشى رشيقة ... خطرات هذا الشعر من خطراتها
الدل فى حركاتها والموت فى ... لفتاتهـا والسحر فى نظراتها
ولمن نهود طاح عنهـا ثوبها ... كتساقط الأكمام عن ثمراتها
قامت تثنى كالغصون وأقبلت ... تصف الغصون الغيد فى نفحاتها
فى مثل سن البدر بل فى حسنه ... إن نام ضوء البدر عن ليلاتها

---

(١) الأفكار فى ٢١ — ٦ — ١٩١٥

أنسيت إلا درة قد أخرجت ... برقى دعاة العهر عن صدفاتها
عذراء يكشف عن صفاء صدرها ... كتصدع الأصداف عن دراتها
عهدى بها إذ وجهها بحيائه ... تستنزل النظرات من عبراتهـا
النحس طالعهـا بظبى ناعم ... حب القلوب ، يحب منهوباتها
ضحكات ثغر خائن ألقت بها ... مثل الفراشة فى لظى جمراتها
كم جاذبته فؤادها فتخبطت ... كتخبط الأطيار فى شبكاتها
ظلت به عن أهلهـا محبوسـة ... حبس المدامة فى أكف سقاتها
تلك الرياض لدى الجزيرة أبصرت ... مهصور زهرتها بكف جناتهـا
ناران : نار أسى ، ونار صبابة ... لم يطفآ بالنيل من دمعاتهـا
لج الأسى بفؤادها فتسـاقطت ... بين الرياض تظن من ورداتها
أواه من مصر ! أهذا دأبها ؟ ! ... فتيانها حرب على فتياتهـا
ما هكذا عهد الصلاح ولا كذا ... تسـترسل الأحرار فى سوآتها
قيل السفور أو الحجاب وأقبلت ... تشـكو سـوافرها ومحجوباتها
من سره من أمة إصلاحها ... فليخلق التهذيب فى أماتها

أراد حسن القاياتى أن يطعن فى السفور ، وأن ينتصر للحجاب . فقدم لنا صورة قبيحة لأخلاق الشبان . فوصفها بأنها كخدود نسوتنا إذا كانت مجردة من الأصباغ ، أى أنها فى قبحها تشبه خدود تلك النسوة فى القبح .

ثم وصف ملابسهم الأنيقة ، وهو يقصد طبقة الأفندية من خريجى المدارس والمعاهد . وهذه الطبقة كانت موضع حملة ظالمة من المعممين . فكم شنعوا عليها

و بالغوا فى التشنيع . وكم اتهموها بالميوعة والتخنث . وكم جردوا ضدها الأقلام ، وكم أراقوا من حبر ، وكم بحثوا لها عن عيوب ، وكم اتهموها بالفسق والخلاعة والفجور لمجرد أن أحدهم رأى شاباً جالساً مع فتاة حتى ولو كانت جلسة بريئة طاهرة .

فحسن القاياتى وكان من خريجى الأزهر اتخذ شعره وسيلة للتشهير والتشنيع وإلصاق المثالب والعيوب بالشبان . وزعم أن مصر لا يمكن أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ما دامت أخلاق الشبان قد هوت إلى الحضيض . وهذه القصيدة نشرها القاياتى سنة ١٩١٥ ، وما أبعد الفرق بين أحوالنا فى هذه الأيام وما كنا عليه إذ ذاك من ضعف وهوان . أنا لم أنف أن الحرب أوجدت موجة من الانحلال ولكن إلقاء اللوم كله على الشبان فيه نوع من الظلم . فقد كانت القاهرة فى ذلك الوقت تزخر بالفتيات الأجنبيات ، وكثيرات منهن كن يتسكعن فى الشوارع والطرقات المظلمة لتصيد الشبان .

* * *

ولم يترك الشعر ناحية من نواحى المجتمع دون أن يتحدث عنها . وقد ذكرنا أن الغش انتشر فى كل شىء . وها هو أحد الشعراء يحدثنا عن غش اللبن فيقول (١) :

لباننا لارعاه الله ذو ورع　　يبيع ماء ولا يغششه باللبن

---

(١) الأهالى فى ١١ — ١١ — ١٩١٦

لم أدر هل عنده الأنعام يحلبها   أم كان يجلبه ماء بلا ثمن
صفا فلو ان فيه ذرة طرحت   بانت وربتما فى المـاء لم تبن
قالوا يصح وضوء المؤمنين إذا   تخلو المياه من الأعراض والدرن
أقول ألباننا صح الوضوء بها   ولا تغير فى شرع ولا سنن
شخصان فى مهنة عندى قد اتفقا   لافرق بينهما فى سائر المهن
هذا الذى تجلب الأمواه قربته   لنا وذاك أخوه الغير مؤتمن
ياللحماة من الأشرار إنهم   قد خلفوا لى داء كاد يقتلنى
لاتتركوا مجرماً منهم ومجرمة   فإنهم محنة من أعظم المحن
بل أركبوا الـكل والأمواج هائجة   سفينة ولتـكن من أوهن السفن
فإننا ما أفدنا من صياحهمو   عند الصباح سوى الإيلام فى الأذن
ألبانهم جلها ماء وليس لنا   رأى يخلص بين المـاء واللبن

فانظر إلى ماجاء فى هذه القصيدة من الفـكاهة والسخرية والتهكم . فقد صور الشاعر بائع اللبن المغشوش فى صورة رجل تقى ورع يبيع الماء صافياً دون أن يمزجه بشىء من اللبن ، فعـكس القضية على سبيل التهكم ووصف اللبن بأنه فى صفاء المـاء النقى الذى يصلح للوضوء ، بل أشد صفاء من المـاء . وقال إن بائع اللبن اجتمع مع السقاء الذى يجلب لهم الماء فى تجارة واحدة ، فـكلاهما يبيع الماء . ثم ناشد ولاة الأمور بأن ينزلوا بهؤلاء الغشاشين عقوبات صارمة ، وأن يأخذوهم بالحزم .

وقد هاجمت القطر المصرى فى خلال الحرب أسراب من الجراد أتت على جانب كبير من المحصولات الزراعية ، كما أن دودة القطن أهلكت جانبا عظيما من المحصول . وقد سجل بعض الشعراء هذه النكبات فى شعر جميل . قال مهدى(١) أحمد خليل:

يارب لطفاً بالعباد فإنهم لاقوا بسخطك أسوأ الأحوال
من دودة لجرادة كلتاهما ترمى وجوه الأرض بالإمحال
إن الجراد غزا الربوع بغارة تذر الربوع دوارس الأطلال
كلف بأفئدة السنابل تارك أحشاءها مثل الجيوب خوالى
يعلو فتحسبه خطيبا مصقعا... أو راصداً مستشرفا لهلال
متحفز يرنو إلى ما حوله بنواظر المختال والمحتال
وإذا استقل إلى الفضاء حسبته سحبا تجود بوابل هطال
أو أنه رهج أطارته السنا بِكُ فى الفضاء غداة يوم نزال
أو مصنع عقد الدخان بجوه ظلا بيوم القيظ شر ظلال
يمضى ويرجع مبغضا فكأنه نكس المريض عشية الإبلال
متراكض للزرع خيل طراده كتراكض الآجال للآمال
هذا العدو بغى عليكم فانهضوا لقتاله بعزائم الأبطال
ذودوه عن أقواتكم من قبل أن يتلو عليها سورة الأنفال
واقضوا على بيضاته وصغاره فالشبل فيه شكاسة الرئبال

---

(٣) المؤيد فى ١ـ ٥ ـ ١٩١٥ .

لا تهملوا فى درئه عن زرعكم   فالشر كل الشر فى الإهمال

طلب الشاعر من الله أن يرحم المصريين ويشملهم بعطفه وإحسانه، لأن سخطه عليهم قد جلب لهم المصائب والخطوب. وقال إن الجراد أكل الحبوب وترك السنابل خاوية. ثم وصف الجرادة حين تعلو السنبلة فقال إنها كرجل وقف ليخطب الناس فوق مكان مرتفع، أو كشخص وقف على ربوة متطلعاً إلى ظهور الهلال. وهو دائماً متحفز لالتهام الحبوب. وإذا ارتفعت أسرابه فى الفضاء بدت كأنها السحب السوداء الممطرة، أو الغبار الكثيف الذى أثارته سنابك الخيل فى يوم اشتد فيه القتال. أو كأنه مصنع انعقد فيه الدخان فى يوم اشتد حره. وهذا الجراد يذهب ويجىء كأنه مريض عاد إليه الداء بعد شفائه منه. وإذا جرى كان فى سرعة الخيل يوم الحرب.

وأخيراً نصح المصريين بأن يهبوا للقضاء على هذا العدو قبل أن يأتى على أقواتهم جميعاً. وحذرهم من عاقبة الإهمال.

وقال عبد الحميد السنوسى[٢]:

أتلف الزرع فى مزارع غيرى   وتجنب مزارعى يا جراد
وافقس البيض فى ضياع رجال   ضيع الفسق مالهم والفساد
هدد الفاسقين بالفقر حتى   يعقب الخوف يقظة ورشاد
أعلن المفسدين إن لم يتوبوا   بخطوب أخفهن شداد
أنذر القوم بالفناء وعكر   كل صفو يرومه الأوغاد
يا نذير الفناء أنت رسول   يحذر الناس بطشه والبلاد

---

(١) الأهالى فى ٢٥ — ٥ — ١٩١٥.

جئت بالشر والفساد لقوم ... أسرفوا فى شرورهم وتمادوا
إن قومى تمكن الغى منهم ... وتجافاهمو الهدى والسداد
ينفقون النفيس فى طلب الشر (م) فيودى طريفهم والتلاد

* * *

وقد انتشرت الحميات والطواعين فى القاهرة وبخاصة فى الأحياء الوطنية وفى الأرياف على نحو ما ذكرنا فى الكلام على الحالة الاجتماعية . وتردد صدى هذا فى الشعر . قال أحمد[1] محرم :

أمض قلوبنا داء دخيل ... وهم فى جوانحنا لصيق
وبرح بالترائب مستطير ... يعاوده النشيز والشهيق
وجف الريق حتى ود قوم ... لو ان السم فى اللهوات ريق
بنا من ضارب الحدثان مالا ... يطيق مضاءه العضب الذليق
كأن جراحه فى كل قلب ... شفاء للمنية أو شدوق
رويد البوم والغربان فينا ... أما يفنى النعيب ولا النعيق ؟
أكل غدية بالسوء داع ... وكل عشية للشر بوق ؟
وددنا للنواعب لو عمينا ... وسدت من مسامعنا الخروق
يكذب ما نخاف من البلايا ... رجاء الله والأمل الصدوق
ويعلو الحق بين مهولات ... من الأنباء باطلها زهوق
أقول لجازع الأقوام صبرا ... فإن الصبر بالعانى خليق
لنعم الذخر إن عمدت العوادى ... ونعم العون فيها والرفيق

(١) الأفكار ٢٦ — ٣ — ١٩١٧

رويدك إن ريب الدهر حتم　　وإن الشر فى الدنيا عريق
لعل الله يدركنا بغوث　　يبدل ما يروع بما يروق
له الآلاء سابغة ومنه　　خفى اللطف والصنع الدقيق
يريد فترعوى النكبات عنا　　وتزدجر الخطوب وتستفيق
نؤمل ما يليق به ونشكو　　إليه من الأذى مالا يليق

تتجلى فى هذه القصيدة عاطفة الحزن والألم على هؤلاء الذين قضت عليهم الأمراض التى جاءت مع جنود المستعمرات . وقد تمنى الشاعر لو أنه أصيب بالعمى والصمم حتى لا يرى منظر الباكين والباكيات والنائحين والنائحات ، وحتى لا يسمع الصراخ والعويل . وذلك لكثرة الموتى وكثرة الجنائز وما فيها من لطم الخدود وشق الجيوب والندب والبكاء . وأخيراً تمنى أن يلطف الله بعباده ويتداركهم برحمته وإحسانه .

وقال محمد عبد اللطيف النشار تحت عنوان « التيفوس »[1] .

لقد ذقت من هذا الزمان مكايدا　　إذا رمت إحصاء لها خانني العد
ولست أسميها ولكن تأملوا　　تروا كيف نشقى حين يتعسنا الجد
تعالوا انظروا جسما نحيلا وأعظما　　رقاقاً رقاقاً ليس يسترها الجلد
وما يترك التيفوس من جسم ناحل　　سوى أعظم إن هبت الريح تنهد
يكلمنى أهلى ولست بسامع　　كأنى وليد لم يدع جسمه المهد
أصم فلم يخرق دوى مسامعى　　ولو قصفت جنبى المدافع والرعد
وأنظر للعواد حولى وكلهم　　صديق إليه ينتهى الحب والود
فأنكرهم حتى كأن لم يكن لهم　　بقلبى مكان لا يخان ولا عهد

(١) الأهالى فى ٤ ـ ٤ ـ ١٩١٦

بكى لى أصحابى ولست بميت وأروح منى كل من ضمه اللحد
وقال طبيبى ربما حان حينه قريبا ولا للمرء من ميتة بد
وصاح أبى والدمع ملء جفونه أما لقضاء الله عن خلقه رد
الخ . .

صور الشاعر ماحل به من مرض التيفوس . فقد أنحل جسمه ، وأذهب قوته . وهو لا يسمع حين يكلمه أهله لأن التيفوس قد أصابه بالصمم . وكذلك ضعف بصره حتى إنه لم يعد يتعرف على أصحابه الجالسين حوله . وقد أثرت حالته فى نفوس أصحابه وأهله فبكوا عليه مع أنه لم يمت ، وذلك لأن حالته كانت تنذر بالخطر ، والطبيب الذى تولى علاجه أخبر بقرب وفاته ، فارتفع صياح والده مستغيثا بالله متضرعا إليه أن يبرئ ابنه من هذه الحمى الخبيثة .

* * *

إن كل هذه النكبات مجتمعة من ضيق مالى ، وانتشار الأمراض المعدية والحميات والطواعين ، وارتفاع الأسعار ، وما حل بالزرع والضرع من الآفات ، ومصادرة السلطات العسكرية لأقوات الشعب ، واشتداد الخوف والفزع من سماع أنباء المعارك الرهيبة والأسلحة الفتاكة . وما أوجدته الأحكام العرفية فى البلاد من طغيان وإرهاب شديد ، وتكميم للأفواه وكتم للأنفاس . كل هذا وغيره قد انعكس صداه فى الأدب وبخاصة الشعر ، فكثرت فيه الاستغاثة بالله ، والتوسل إليه بالأنبياء والرسل والأولياء أن يرفع عن الناس هذا البلاء ، ويزيح الكابوس الثقيل الذى جثم على صدورهم وكاد يقضى عليهم ، وأن يفرج هذه الضائقة . والناس إذا انسدت أمامهم المسالك ، وأغلقت فى وجوههم السبل

لجأوا إلى الله يتوسلون به لإنقاذهم مما وقعوا فيه ، معربين عن توبتهم من كل ذنب ، مستغفرين على ما فرط منهم من إثم . قال أحمد شوقى[1]

يا رب بالرسل الكرام ، بآلهم ... باللوح بالكرسى وهو المفزع
أدرك دماء الخلق إن دماءهم ... سالت فوجه الأرض منها مترع
يا ربه هل تلك القيامة كلها؟ ... أم للقيامة بعد ذلك موقع ؟

وقال أحمد نسيم[2] :

فغفرانك اللهم من كل مأثم ... فما بعد هذى الحرب عندك مأثم
حنانيك أو رحماك أو عفوك الذى ... يؤمله جان ويرجوه مجرم
لك اللطف فالطف بالعباد إذا دنا ... لنا الحتف أو حم القضاء المحتم

وقال محمود شكرى[3] :

ربنا إليك أنبنا ... ورجعنا عن الذنوب العظام
واعترفنا بأنك الواحد القها ... ر ذو البطش فوق كل الأنام
ما قدرناك حق قدرك ، كلا ... بل غفلنا عن واجب الإعظام
قد سرى الشك فى النفوس و بقنا ... تزدهينا كواذب الأوهام
كل شىء وفق الإرادة يجرى ... من صغار الأمور أو من جسام
لم يقع غير ما تريد وترضى ... أنت رب الوغى ورب السلام

---

(١) المؤيد فى — ١١ — ١٩١٤
(٢) المؤيد فى ٩ ـ ١١ ـ ١٩١٤
(٣) الوطن فى ٢٩ ـ ٤ ـ ١٩١٥

فإذا شئت أوقدت واستحرت وإذا شئت أطفئت بسلام
ضل فى دفع ما قضيت علينا حصفاء العقول والأحلام
منع سفك الدماء أعيى البرايا وتعاصى على ذوى الأفهام
ضجت الأرض والسموات مجت من صنوف الدمار والإعدام
كم رضيع وطفلة وغلام ونساء ثكلى وكم أيتام
فقدوا العائل المعين وأمسوا فى حداد الآباء والأعمام
يسألون الله دفع عذاب مستطير ورفع هم لزام

ألخ ....

وقال عزيز بشاى[1] :

يارب يا حامى الشعوب من الأذى ما كان عفوك قط بالممنوع
رد السيوف إلى الجفون فإنها تعبث على هام الورى المصروع
هذى الشعوب على الكروب تقلبت مستسلمات للأسى بخضوع
فانظر لهم وارأف بهم وارحمهمو أنت المجيب وأنت خير سميع

* * *

وكثيراً ما نجد فى تاريخ الأمم قوما تبلدت أذهانهم ، وماتت أحاسيسهم ، وتحجرت مشاعرهم ، فآثروا أن يعيشوا بمعزل عن المجتمع . لا يتحرك وجدانهم لما يقع على الناس من المصائب والنكبات . ولا يهمهم ما يجرى على الوطن وأهله ، ولا تتحرك خواطرهم لما يعانيه مواطنوهم من بؤس وشقاء ، وهم وغم ، وحزن وألم . وقد وجدت فى مصر هذه الطبقة من الأدباء وكان على رأسهم

(١) الأفكار فى ١٩١٦/٥/٢٢ .

الشاعر أحمد رامى الذى طفق بشاعريته السقيمة وخاطره المريض ينظم شعراً فى الغزل والحب والغرام . ويشكو فراق الحبيب وهجره ، وبعده وصده . مثال ذلك[1] قوله :

يجازى الوصل بالقطع فليت فؤاده طوعى
وقفت عليه أيامى فلا أهلى ولا ربعى
وقد ذل له قلبى وهان لأجله دمعى
وكم قد سل من سيف فلم ألبس له درعى
وكم زخرف من قول وكم أكثر من بدع
فلم أغمض له عينى ولم أغلق له سمعى
نسيت لأجله صحبى وكان إليه منتجعى
يضم الحب قلبينا بحبل غير منقطع
وكيف أكون منفردا غريب الدار وهو معى

وقال :

أسهدتنى يا حبيبى فى لوعة ونحيب[2]
وكيف أطعم غمضا وبى الغرام الذى بى
وكيف يهدأ بالى وأنت غير قريب
مضت ثلاث ليال وما لقاك نصيبى
فما سمعت حديثاً أشجى من العندليب

---

(١) السفور فى ١٩١٧/٣/٢ .
(٢) السفور فى ١٩١٧/٥/٤.

ولا اجتليت محيا كالشمس عند الغروب
يا من أخذت فؤادى أخذ العدو الحبيب
قلبى لديك فقل لى ما حاله فى القلوب ؟

وقال :

رماك الله بالحب لتدرك ذلة الصب(١)
وترحم مهجة ذابت فما تبقى على عتب
وتولى مدنفا يوليـ ـك فى بعد وفى قرب
كتمت الحب لم يعلم به أهلى ولا صحبى
وقمت الليل أشكوه إلى الأجرام والشهب

فانظر كيف انفصل أحمد رامى عامداً متعمداً عن المجتمع الذى يعيش معه ، وآثر أن يتجاهل النكبات التى حلت بمواطنيه ، ويسخر من آلامهم وأوجاعهم ، ويقصر شاعريته الضحلة على هذا الغزل . ويحدثنا عن حبيبه الذى هجره ونأى عنه بجانبه ، وعن الحب الذى أضناه ونفى عنه الرقاد ، ويشكو مر الشكوى من هذا الفراق ، ومن سهره الليالى باكيا ، منتحبا ، مستعطفا مسترحما. إن أمثال أحمد رامى موجودون فى كل زمان ومكان ، ولكنهم لحسن الحظ قلة لا يعتد بها . وهم معتبرون من سقط المتاع ونفايات المجتمع . وأحمد رامى ظاهرة لمرض نفسى يتجلى فى السلبية واللا مبالاة ، وعدم الاكتراث بما يجرى حوله ، وترك العناية بما يقع تحت سمعه وبصره . وانشغاله بما يهمه هو ، ويوفر

(١) السفور فى ١٩١٧/٥/٢٤ .

له السلامة والطمأنينة وراحة البال ، وإن هلك الزرع والضرع ، واحترقت البلاد من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها . فإن هذا لا يعنيه ؛ لا من قريب ولا من بعيد . وهذه النفسية من غير شك مريضة مرضاً خطيراً . لقد شاهد أحمد رامى من الحوادث ما ينطق الحجر ولكنه لمرضه التى تقدم ذكره لم تتحرك شاعريته إلا بهذا النوع من الغزل : الناس يموتون جوعا ، والأمراض تفتك بهم فتكا ذريعاً ، وأهوال الحرب على أشدها ، والأسلحة المدمرة تعمل عملها . كل هذا لم يجد سبيلا إلى عواطف أحمد رامى فكأنه كان يعيش فى خرارة .

الفصل الرابع

الأدب الشعبي

راجت فى فترة الحرب الأولى سوق الأدب الشعبي رواجاً عظيماً . واشتهر من الزجالين فى ذلك الوقت : محمد عبد الغني ، ومحمود رمزى نظيم ، وعزت صقر ، ويونس القاضي ، وحسين شفيق المصرى ، ومحمود بيرم التونسى ، ورمضان أحمد بركات .

وقد تناول الشعر الشعبي شئون الحياة المختلفة ، كالحديث عن السلطة العسكرية وما ارتكبته من جرائم وآثام . والحرب ومصائبها وماسببته من تخريب وتدمير ، وما نشرته من خوف . والغلاء وما تبعه من البؤس والجوع والحرمان . والتعطل وماترتب عليه من تشرد وشقاء . وانتشار الرشوة والفساد والغش ، وغير ذلك من الصور التى تناولها الأدب الخاص .

ومازلنا نردد بعض الأغانى التى كانت منتشرة بين الناس فى تلك الأيام ، والتى تعبر عن آلام الشعب وأحزانه ، وهى :

بلدى يابلدى والسلطه خدت ولدى   ياعزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى
يا مسافر على بحر النيل   دنا ليه فى مصر خليل
من بعده مابانامش الليل

وقال عزت صقر منددأ بفظائع الحرب[1] :

---

(١) ديوان أمير الزجل ص ٩٦

ربى امنع عنا أنواع الـكروب　　من بالون زبلن ومن مدفع كروب
من رصاص أجنـاس وطوربيد　　من لغم، من أساطيل مهلكه، وماف الغيوب

* * *

زاد على المسكونه أنواع البـلا　　من مطامع أجوبتها المهلـكات
واندثر م الإختراع الإختراع　　بعد ما كان للحياه صار للممات
الرسول فيها الديناميت والغازات　　يا عذاب الإنسانيه م الحروب
حرب ما سمعنا عليها فى التاريخ　　ما سمعنا عن عددها والعدد
إن هلك مليون ضحيه غيرهم　　تلتقى فى الحال ظهر غيرهم مدد
م السما، م الأرض، م البحر النيران　　ما يلاقوش فى وشهم أبدا سند
العناصر لأربعه ضد الحيـاه　　إيه يكون حال العساكر والشعوب

* * *

المعابد والمعـاهد والآثار　　والمصانع لا أثر من بعد عين
إن نفـد واحد بعمره بمعجزه　　مستحيل يعرف بلدهم هى فين
أرض مخسوفه ومنسوفة البلاد　　والأمم من قبلها يئنوا أنين
ما تلاقيش شفقه ولا رحمه تمانع　　إلا ناس (انفلوزت) منها القلوب
كم رجال تركت يتامى أمهات　　كم شباب لبى نداء داعى الفنا
كم أرامل ودعت صفو الوجود　　لما ودعها أخوها والضنا
كم خطيبه ودعت حظ الحياه　　لما ودعها الأمل ويا المنا
كم شيوخ عجزت عن القوم والدفاع　　وامتنع عنها المساعد والهروب .

الخ ...

تناول عزت صقر أنواع الأسلحة من مناطيد زبلين ، ومدافع كروب ، وطوربيد وغازات وغيرها . ثم تكلم عما أحدثته هذه الأسلحة من خراب ودمار . وعن الجيوش الجرارة التى لا يحصرها العد . و بكى على المعابد والمعاهد والآثار التى دمرتها الحرب . وعن المدن التى نسفت فلم يبق لها أثر يدل عليها . وعن الأرامل والأيتام والشيوخ الذين لم يشتركوا فى الحرب ، بل كانوا فى دورهم ، ولكن قنابل المدافع والطائرات هدمت عليهم هذه البيوت ، وعجزوا عن الفرار فماتوا تحت الأنقاض .

وقال محمد عبد النبى من قصيدة[1] زجلية :

الحروب دى سببت للناس خساير من مصاب الحرب فلس كل تاجر
والمحلات عزلوا وشالوا الدفاتر كل واحد تلتقيه ع الغلب صابر
والغنى من بعد عزه صار ذليل
باع بيوته ، باع هدومه والعقار والفقير زيه منَ الجوع استجار
واللى كان عنده أتومبيل أو دوكار راح بايمهم واشتهى أجرة حمار

فى الزجل المتقدم يصور محمد عبد النبى ماحل بالتجار من جراء انقطاع الوارد وما حدث من عجز الناس عن الشراء بسبب توقف الأعمال ، وفصل الموظفين ، وارتفاع الأسعار ، وامتناع المصارف عن إعطاء الودائع لأصحابها . وما ترتب على ذلك من كساد التجارة كساداً أدى إلى إفلاس بعض التجار .

ولم ينج من هذه الضائقة الأغنياء لتوقف تصدير القطن وانخفاض أسعاره . فاضطروا إلى بيع سياراتهم وعرباتهم ذات الخيول المطهمة ، وأصبح أحدهم يبحث عن جنيه فلا يجده . وذلك كله فى بدء الحرب .

---

(١) أنظر ديوانه ص ١٠

وقال رمضان أحمد بركات[1] فى الشكوى من البؤس :

أبكى كبكاء الأطفال من البؤس والجيب الخالى
محتاج للقوت ونفسى قد سئمت من هذا الحال
أولادى الخمس وأمهمو يشكون ولا من معوال
عاطل أصبحت ولا عملا ألقاه يخفف أهوالى
أعرف لغتين عدا لغتى يفتخر العلم بأمثالى
أكتب نثرا ، أنظم شعراً أرسل درا من أقوالى
اسمى معروف مشتهر فى الناس وقد كان الغالى
أصبحت فقيرا ممتهنا وذللت وقد ساءت حالى
هزأت بى الدنيا ورمتنى غدرا فى ضيق الأوحال
جعلتنى أمثولة هزء بين البسطاء الجهال
ودعتنى أسأل ما احتا ج من اللؤماء الأنذال
والحال غدوت أسير شقا تعسا فى أسوإ أحوال
خاصمنى المال ولو يوما ألقاه أوطد آمالى
وبه ابتاع القوت لكى تطعم وتعافى أنجالى
لاعمل به تفرح نفسى لاعمل يقى الجوع عيالى
مرضوا والكل لقد عدموا صحتهم بين الإهمال
هذا بالحمى تصرعه والآخر ذا جسم بال

(١) الأفكار فى ٣٠-٩-١٩١٥

هذا الأحشاء به تذكو من نار الجوع المتوالى
والأم بماذا ترضعهم هل غير لبان الأهوال ؟
ألخ .

صور ناظم هذه الأبيات ماأصابه من تعطل قطع عنه رزقه فساءت حالته وتعرض هو وأطفاله المرضى للموت ، مع أنه متعلم و يجيد كما يقول لغتين أجنبيتين إلى جانب لغته كأديب وزجال وشاعر وناثر . لقد أصبح من جراء هذه الحرب فى هم ونـكد . ذل وهان بعد أن كان عزيزاً بين قومه ، محترما فى أهله .واضطر إلى استجداء اللؤماء الأنذال الذى سخروا من أدبه وعلمه واتخذوه أضحوكة .

وقال محمد عبد النبى[1] مشيرا إلىٰ ماحل بالناس من ضيق :

كان زمان العيد يجى يهجم بخيره   قبل كام جمعه نحضرله فى حريره
ولا يوم الوقفه نعجن له فطيره   لو صرفنا جنيه نلاقى معنا غيره
والخروف والعجل كان فى الحوش ينعر
لمـا كنت تمر فى السكه تشوف   الغنم ماشيه مع البياع ألوف
أما دلوقتى يكون ساحب خروف   يبقى يجره فى الحوارى والعطوف
بس مين راح يشترى ، كان غيره أشطر

الفقير بالطبع (حيضحى حياته)   بعد ما (يشوى) بكام علقه مراته
ولا (يسلخ) بالـكلام أهله وحماته   آل بدال ماحضرته يقضى حاجاته
يبقى يوم العيد عليهم يومه أغبر

(١) ديوانه ص ١٧٠

أما زوجته تقول له ليه كتر الأسيه ده بدال ماتدى لأولادك عديه
ولا تجـــبر خاطرنا فى الضحيه بدى بكره من الرقاق أعمل صنيه
عاينه تتـكاف ياسيدى ريال مشندير
أما هو يقول مانعملش رقاق لمـــا تتفلقى وترسى ع الطلاق
يبقى(يدبح) حسه من كتر الخناق والجيران والناس تقول شى لايطاق
أما هوا حضرته يقعـــد يفجر
واللى كنت تشوفه قبله واد ظريف يبقى ماشى بعد فقره ياالطيف
ولا يشمر ليلتها بحبل ليف من وسخته يقول أنا جزار نضيف
ولا يسرح له بسقط ضانى ومصفر
بس ليه ياعيد تجينا فى الزمن ده والجيوب فارغه وجميع الناس فى شده
والأمل ده ماعطانا إلا الموعده والصديق نفض يمينه من المسعده
شوف صبح حالنا على الـــكافر يأثر
كم أقول فى وصف أحوالنا وأعيد والـكتير ما بيفهموش ما أريد
وانصلاح الحال ياناس بيت القصيد أما أنا أهدى التهانى فى كل عيد
للجميع واســـأل إلهى الخلق يستر

ذكر لنا محمد عبد النبى كيف تبدلت أحوال المجتمع المصرى فى خلال هذه الحرب . كان فى العصر السابق يرتع فى بحبوحة الرخاء . وكان الناس يستعدون لاستقبال العيد فيشترون الخراف و يعدون الفطير والسمن والأرز . فلما جاء العيد وكانت الحرب قائمة والضيق مشتدا والأزمة خانقة ؛ عجز الناس عن شراء ماعتادوا شراءه فى مثل هذا اليوم . فلا خراف ، ولا رقاق ، ولا ملابس ولا

أحذية ولا أى مظهر من مظاهر الابتهاج التى ألفوها فى هذه المناسبة . واشتد النزاع بين الرجال ونسائهم . فالزوجات لم يعترفن بوجود الأزمة . فأخذت كل امرأة تطالب زوجها بأن يشترى لها خروفا ، ويحضر لها الدقيق لعمل الفطير . فقامت المعارك الحامية بين الطرفين .

ويقول إن العيد قد جاء وجيوب الناس فارغة ، واليأس مخيم . ثم توسل إلى الله أن يفرج هذه الضائقة وأن يتدارك الخلق برحمته .

* * *

وقال عزت صقر[1] فى قضية الرشوة التى اتهم فيها فلبيدس وزوجته أسماء :

يا محــــلا لمـا بترمشى أيام ما كنتى بترتشى
كانت فى ألحاظك رموز يلحظها اللى كان يعوز
يا بخت واحــد كان يحوز بعض الرضا وفيــه تقفشى

حــلو الدلال كان صنعتك حتى ف تعــداد رشوتك
صعبــــان على رميتك من بعد ما كان ترعشى

سجنك على عين الحزين (حربى) وغيره متهومين
يا هلترا ح تجى مين فى السجن والا ح تختشى

كان شعرك الليــل الطويل يا ما بستره له جميــل
كشفوه عن البــدر الجميل خلوكى فرجه وتدهشى

---

(١) ديوانه ص ١٧٠

كنتى بجماله بتعجبى و بتنهى و بتلهى
وتمكننى و بتطربى والبيه عليه تتوشوشى

الغربى كان مالو كان لازم تودوه اللومان
وألا انتى عايزه من زمان زيه كده تتدندشى

عايزه يكون فيكى العجب وكل شىء يبقى طرب
غنى ودلع ، سطوه وغضب وان كنتى ترضى تنعنشى

السمع والطاعة لكى تجى ان أردتى وتهلكى
ومين ح يقدر يشتكى والبيه فى إيده كل شى

البيه د كان باعه طويل أطول من احبال الغسيل
يفرح قوى لما يميل واحد لكى وتتفرفشى

كان فى البلد أكبر جاسوس مغرم قوى بلم الفلوس
يا ما أذى وموت نفوس والدهر نام له بعضشى

الكامه كانت كلمته والكل يخشى سطوته
كانت مصيبته ونايبته ينتش وانتى بتنتشى

مين كان له سطوه زيى دى ومين ح يقدر يعتدى
يجلد بأمره وتجادى عالم وعالم تلطشى

كان سطوته فوق الجميع إن كان عظيم والا وضيع

وأمره كان هو الرفيع والحظ كان عالى ومشى

أمر على كل البلد يا ما حبس ، ياما جلد
يا ما نفى ، يا ما طرد وانتى وراه بتقشقشى

إيده طويله وله تبات متى قبض يقضي الحاجات
وانتى على دوطة البنات ليلك نهارك تنكشى

الاسم راح ويا الشرف الشامى قال من داق عرف
شفنا سنين كانت صدف بندوق بقى المر ، اكمشى

الرب بالمرصاد يكون للى الأذى عنده يهون
وكل لحظه له فى كون أمثال غريبه تنتشى
أهو جزا اللى بنعمته يكفر ويطغى بقوته
يبقى حكايه فى أخرته وموعظه لا تتلشى

أعطانا الشعر الشعبى صورة واضحة عن فلبيدس وما كان يقترفه من الإجرام فى حق أبناء الأمة . صورة لم يقدم مثلها الشعر الخاص من حيث الوضوح والبيان . فقد عبر عزت صقر عن فرحة الشعب الشديدة حينما امتدت يد العدالة إلى هذا الطاغية ، وأوقعت به ما يستحقه من العقاب . فأصبح يرسف فى القيود التى طالما كبل بها الأبرياء . وعرف السجن ومرارته ؛ هذا السجن الذى كثيراً ما أرسل إليه الناس بغير ذنب جنوه . كان الأمر أمره ، والكلمة كلمته . فكم شرد وكم نفى ، وكم حبس وكم اعتقل . وكم تسبب فى فصل أناس من أعمالهم ، فانقطع مورد رزقهم ، وتعرضوا للذل والهوان . كان نفوذه فوق كل نفوذ فطغى

وبغى . واستغل ظروف الحرب والأحكام العرفية استغلالا قبيحاً. فتحت التهديد بالاعتقال والنفى استطاع أن يستولى على مبالغ طائلة من مختلف الطبقات . من رجال السياسة ، ومن تجار الأعراض والقوادين . لم يرحم أحداً ولم ، يعف عن مكروه قط . وشاركته فى هذه الأعمال زوجته ، ومراسلته محمد محمد حربى .

وقال خليل نظير[1] معرضاً بجشع[2] التجار :

أنا أول شى منه اتظلم   التاجر فى البيع يتحكم
اللحمه بجنيه الدرهم   والعيش زى اللحمه غالى
فى جمالك راح عقلى ومالى
م العيش إن كنت عاوز افطر   آكل ميت طورة وأكتر
تجـار على كيفها بتسعر   وزياده على ده الجيب خالى
فى جمالك راح عقلى ومالى
حالهم ماشى وحالنا واقف   فين التسعيره؟ مش عارف
مش حق التاجر يتخالف   لمـا يخـالف أمر الوالى
فى جمالك راح عقلى ومالى
مش بس تجار اللحمه   والغله اسمع لى طلبه
فيه عالم ما شافتش الأزمه   أنا منهم أشكى ف أزجالى
فى جمالك راح عقلى ومالى

---

(١) ديوانه ص ١٠٥ .

كانوا سفله صبحوا أمرا   أمرا غنيو وكانوا فقرا
فقرا ذمه فى صفات كبرا   غنيت لك افهم موالى
فى جمالك ضاع عقلى ومالى

شكا خليل نظير من جشع التجار وانتهازهم الظروف واستغلالهم الفرص لجمع الثروة بطرق غير مشروعة . كل ذلك والحكومة لا هية عنهم وساهية عن أفعالهم القبيحة . وظهرت طبقة أغنياء الحرب الذين كانوا فقراء فإذا هم فى عداد الأمراء بما جمعوا من ثروة هيأت لهم الجاه والرفاهية والقصور الفخمة والمركبات والسيارات الفاخرة . هؤلاء الأغنياء لم يشعروا بالأزمة ولم يحسوا بالضيق الذى عاناه سواد الشعب .

وقال معرضا بأهوال[1] الحرب

يقولو عصر المدنيه   وعصر نهضه علميه
وأنا أقول دى همجيه   وجنايه ع الإنسانيه
ومصيبة الدنيا والدين
بالله احكم يا عاقل   وكون فى أحكامك عادل
هو التمدن بمسامل فيها   مدافع وقنابل
بتفنى أرواح الملايين ؟
هو التمدن باختراعات   لنسافات وغواصات ؟
فى البحر والا طيارات   فى الجو والا الموت بغازات ؟
خانقه يا ويلى من م التمدين

(١) ديوانه ص ٩٨ .

الإنسانيه فى تعذيب تنوح وتبكى بدمع صبيب
أرواح تروح تغريق تخريب فين التمدن والتهذيب ؟
جاوبنى يا كروب ، يا زبلين

ومنها :

أعراض بتنباع فى الأسواق غش ف ميزان وكيل ونفاق
نصب احتيال عشاق فساق خراب ذمم وفساد أخلاق
دى وقعه سوده زى الطين
نساء رجال شبان وبنات فى بيوت دعاره وف حانات
حسد وبخل سواد نيات جنح جنايات ومخالفات
من ده أنا فى همومى سجين

استنكر خليل نظير مايجرى بين المتحاربين من تنافس فى اختراع وسائل التدمير ، وقال إن من الخطأ أن نسمى هذا العصر عصر المدنية ، وإنما هو عصر الهمجية ، لأن ما يجرى فى ميادين القتال بين الجنود ، وما يصيب الآمنين من سكان المدن وركاب البواخر ، يدل على أن الإنسان رجع إلى عصور التأخر والانحطاط والتوحش . وأن الحرب قد أثبتت أن هذه المدنية زائفة ، أو هى ستار رقيق يخفى تحته الشر والرغبة فى الانتقام .

ثم تكلم على ماحدث فى مصر من فساد الأخلاق والذمم والضمائر ، وانغماس بعض الناس فى الشهوات وإقبالهم على الملذات ، وانتشار بيوت الدعارة ورواج تجارة الفسق والفجور .

وإلى هنا ينتهى الكلام على الأدب الشعبى .

الفصل الخامس

الأدب والتمثيل

ظهرت فى هذه الفترة نهضة محسوسة فى عالم التمثيل، وكان من أسبابها :

١ — دخول أصحاب المراسح الأجنبية فى التمثيل العربى ، وتأليفهم الفرق التمثيلية ، والإنفاق عليها عن سعة . فأصبح الممثل يتقاضى مرتبا يتراوح بين عشرين وستين جنيها بعد أن كان مرتبه فى المسارح القديمة يتراوح بين جنيهين وثمانية . وقد نشأ عن ذلك أن انسلخ من المسارح القديمة عـدد كبير من خيار الممثلين مثل عمر وصفى، ونجيب الريحانى،وعزيز عيد، وحسن وصفى ، وعبداللطيف المصرى ، ونظله مزراحى ، وأحمد ثابت ، وفوزى الجزايرى ، واسطفان روستى وسليم عطا الله ، وأمين عطا الله وغيرهم . وانضموا إلى المسارح الجديدة التى كان يمتلكها الأجانب مثل مسرح « الرنساس » ومسرح « الجلوب » فوجود رأس المال عند الأجانب كان أساس هذا التطور الجديد .

٢ — التعب والجهد الذى بذله ممثلو الفرق الجديدة ومديروها . فكانوا يمثلون روايةجديدة كل أسبوعين . وهذا حفز الجمهور على التردد لمشاهدة تمثيلهم. أما أصحاب الفرق القديمة فكانوا يمثلون رواية كل شهر ، وأحيانا كثيرة كانوا يعيدون تمثيل روايات قديمة بعد تغيير أسمائها . فلا عجب أن انصرف عنهم الجمهور .

٣ — أن الفرق الجديدة اختارت رواياتها كلها مصرية شرقية ، أى أنها

اعتمدت على الروايات المؤلفة لا المعربة . فأصبح الجمهور المصرى بعد ظهور عدة روايات مؤلفة على المرسح يرى أنه لا صلة بينه و بين الروايات المعربة المكتوبة لوسط غير وسطه ، وزمان غير زمانه ، وقوم غير قومه .

٤ — أن الفرق الجديدة اعتمدت على الجمهورين العربى والأجنبى ، لأنهما كانت تمثل بالعربية والفرنسية ، فجمهورها أكبر ، و ربحها أوفر .

٥ — اعتمدت فى الروايات على الضحك ، والغناء ، والطرب والموسيقى . فازداد الإقبال عليها ترويحا للنفس ، وشرحا للصدر .

٦ — استخدمت اللغة العامية فى حين أن الفرق القديمة كانت تستخدم اللغة الفصحى .



وقد شاع فى أول هذه الحرب نوع من التمثيليات لم يكن معروفا فى مصر من قبل . وهو الفودفيل . والفودفيل كلمة مركبة مصحفة من « فودى فير » : أى وادى « فير» و «فير» محل التصحيف قرية من قرى نورمانديا من شمالى فرنسا، كان أهلها يتغنون بمقطوعات من الشعر قصيرة التفعيل . تشتمل على تهكم ، وسخرية و زراية بالناس على نحو ما كان يقوله المعروفون فى مصر بالأدباتية . وقد انتشر هذا الصنف من الشعر فى فرنسا ، ونحا الشعراء نحوه زمانا طويلا حتى تسرب إلى المراسح ، واختلط بالكوميدية الخالصة المعروفة بكوميديا القرون الوسطى ، وكانت إذ ذاك تقليداً لمهازل اليونان . فلكى يميزوا هذا الصنف الجديد المطعم بالفودفيل أطلقوا عليه اسم « كوميديا مع فودفيل » و بمرور الزمن اقتصروا على كلمة « فودفيل » وحدها .

وأول مسرحية مثلت من هذا النوع فى مصر مسرحية : « خلى بالك من إميلى » مثلتها فرقة عزيز عيد فى مايو سنة ١٩١٥ ومحورها يدور حول فتاة حسناء اسمها « إميلى » عاشت مطلقة الحرية بين سكر ، وعربدة ، ودعارة . فكانت خليلة لرجل ، ورفيقة لآخر . فتنقل الكاتب بها بين الرجال وأهوائهم من دور إلى دور بين التصريح بالشيء القبيح ، وتمثيل مظاهر الفسق والفجور . وقد التمس مدير الفرقة من السيدات والآنسات عدم حضور هذه الرواية . وكان فى هذا إغراء للشبان بالحضور ، فتهافتوا على مشاهدتها ؛ وتزاحموا بالمناكب على رؤيتها .

وقد مثلت روز اليوسف(٢) ؛ وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها ؛ دور الفتاة « إميلى » فبرعت وأجادت ، وانتزعت إعجاب الجمهور . ومن فصول هذه الرواية مناقشة جرت بين إميلى وزوجها على أثر انصراف ضيف كان عندهما ، وقد أعجبت إميلى بقماش بنطلونه . والمناقشة هى :

الزوج (عزيز عيد) : وبسلامتك ما لقيتيش عبارة تجانسيه بيها غير كونك تقولى له : أما غريب فى نوعه قماش بنطلونك ده ؛ اسمه إيه القماش ده ؛ وقعدتى تجسى له فى افخاده ؟

إميلى (روز اليوسف) آل فى فخاده ، افخاده آل . أنا ما كانش يهمنى غير القماش علشان نفسى أشترى لك زيه .

الزوج : ايوه ؛ لكن افخاده كانت تحت القماش . بقى برده شايفاها أصول لياقه يا مدام ؟ .

---

(١) الوطن فى ٢٣ ـ ٣ ـ ١٩١٦ .

الزوجة : عجيبة ! أمال كنت عاوزنى أعمل إزاى بس ؟ على كل حال ما كنش فى استطاعتى يا جوزى العزيز أن أقول للراجل ده يقلع بنطلونه لأول مرة شفته فيها .

وقد ثار الكتاب فى وجه عزيز عيد وحملوا عليه حملات عنيفة ، لأنه عرض الأخلاق للانحلال والانهيار بتمثيله مثل هذه الرواية . فقال أحدهم إنها شرر يتطاير سيحرقنا مع ما هنالك من الشرر .

ومن روايات الفودفيل التى مثلها عزيز عيد رواية « ياستى ما تمشيش كده عريانه » وكانت حملة الكتاب عليها أشد . وقد وصفها فرح أنطون بأنها أحقر وأقذر رواية . ومن مناظرها القبيحة امرأة بدينة لدغها زنبور فى عجيزتها ، فجعلت تتأوه وتتألم مما أصابها فى عجيزتها ، وتعرض هذه العجيزة على بعض مدعى الطب : وقد دارت فى خلال ذلك أحاديث ونكات مهيجة مثيرة للأعصاب .

ومما مثله عزيز عيد من هذا النوع رواية « خلى مراتى أمانة عندك » قالت صحيفة الوطن فى ٦/٥/١٩١٦ ، تحت عنوان « التأثير السريع والخذلان المريع »

« أصبحنا أمس وإذا بألوف من الإعلانات المتضمنة هذه العبارة المخجلة ملصقة على الحيطان وجدران المنازل ، إيذانا بتمثيل فودفيل بهذا الاسم الخليع »

« يا للمصيبة ! ويا للرزية ! كيف تمحص النفوس من الرذائل ؟ وأنى يكون للأمة حظ من الفضائل إذا كانت عين الإنسان أول ماتفتح تقع على إعلان متضمن أخس وأفظع وأدنى عبارة تمس شرفه وتنذر بهتك عرضه ؟ ! »

« أهى ياترى الصلاة يتلوها المؤمن أول مايخرج من بيته فى الصباح ؟ أم هى

مواعظ وحكم يسترشد بها الناس قبل البدء فى أعمالهم لتكلل بالنجاح ؟ »

* * *

وقد راجت سوق هذه الروايات وكثر إقبال الجمهور على مشاهدتها . وتنافس الكتاب فى تأليفها . وكانت كلها تدور حول الاستهانة بالآداب العامة . فأب يقود ابنته إلى الدعارة ، أو زوجة تخون زوجها ، أو مومس تخدع شيخا مسنا بالتظاهر بالعفة حتى يتزوج منها ثم تسير على هواها فى غفلة منه . أو ملك يستخدم وزراءه فى الفجور . والإعجاب بالإباحى الذى يستبيح لنفسه حرمة نساء أصحابه ، أو يعرف كيف يختفى فى منزل من يخونه . روايات تعرض فيها المضاجع والأشخاص فى مواقف مثيرة . أولها الزنى وآخرها بيت الماء كما يقول الفرنسيون .

ومن الروايات التى ألفت فى ذلك الوقت : بلاش أو نطه ، وكفر زغرب ، وعلى كاكه ، وسلفنى امراتك ليلة ، وطز ياعاشور ، وما أقدرش أقول ، وعفقتك ، وتعاليلى يابطة وغيرها .

ومثلت مسرحيات تتناول حياة العمد والأعيان المصريين بالسخرية والتهزىء القبيح . فيظهر على المسرح عمدتا كفر رحرح ، وكفر البقر بأزيائهما الوطنية من الجبة والقفطان والعمامة بين الممثلين الأجانب وكلهم بالزى الأوربى ، ومعهم شخصان أحدهما : فلحس بك ، والآخر رحرح بك . ثم لا يكون الهزء والسخرية لغير هذين العمدتين . فمن ضرب على القفا إلى رفس بالنعال . ومن بلاهة فى التهتك إلى توحش فى الأعراض . فهما مخلوقان ومطبوعان على أن يكونا أضحوكة . ولم تكن هذه الروايات نوعا من التمثيل الذى يستند إلى الفن

السليم ويحاول إصلاح العيوب ، بل كان ضربا من الخلاعة والمجون والفسق والفجور . لقد جمع بين دعارة العجمة ، ووضاعة العامية ، والنيل من مصر والمصريين بأحط سلاح .

* * *

وقد انتقد بعضهم سلامة حجازى لتمثيله رواية الشيخ متلوف وقال إنها لاتقل خلاعة ومجونا عن روايات الفودفيل التى يمثلها عزيز عيد . واستشهد على ذلك بالفقرات[1] الآتية :

متلوف يمسك يد أنيسه ، وهى إحـــدى محصنات المنازل ويتكىء قوى على صوابعها .

أنيسه : آه ، أف يامى الشيخ ، ليه تقرص كده ؟

متلوف : ياست أنا غيرتى عليك زايده .·. وكان رضاك فيه غاية المنى

(ويحط إيده على نخدها)

أنيسه : طيب وإيدك بتعمل إيه هنا ؟

متلوف : أنا بشوف اللبس دا ناعم كتير .

أنيسه : ماتحطش إيدك هنا أحسن بخير

لحنا وصلنا بالعجل للحد ده ليه يامى الشيخ بتستعجل كده ؟

متلوف : أما أنا ما اعرف أن أصدق لك مقال

إلا طفيت نار قلبى بالوصال

أنيسه : لما أروح ألبس ملابس شفتشى

وأحضر الفرشه واعمل كل شى

---

(١) الوطن فى ١٩١٦/٣/١٤

متلوف : إن كان حصل ياستنا منك رضا
على إيه صلاة حاضر ؟ نصليها قضا
أنيسه : قم اتجسس وإلا أقوم أنا
بلكى جوزى يكون هنا وإلا هنا
متلوف : لقيت البيت ماحدش هنا
إلا أنا وانت فقط ياستنا
(ثم يقدم ويفتح حضنه وينحدف على أنيسه يعانقها)

* * *

وألف محمد لطفى جمعة مسرحية « قلب المرأة » سنة ١٩١٦ وقد انتقدها الدكتور محمد حسين هيكل[1] بمقال جاء فيه :

« هى تحليل مجرد لقلب بغى ونفس سافلة . ووضع ذلك ليغال من نفس السامع وليصل إلى قلبه . وأما ماحول ذلك من نتائج عمل هـذه البغى ففاتر باهت ، لايخرج عن خطابة أو خطابتين يلقيهما زوج البغى ، وتكرار للحط من قدرة المرأة ورميها بأقبح الصفات ، وإنزالها إلى أحط الدركات ، وإظهار للرذيلة فى مظهر جميل جذاب ، واحتقار للفضيلة وللنظام فلا يستحقان الذكر . ثم تتنصل الرواية بعد ذلك من تهمة مناصرة الفساد »

وألف حسين محمود ؛ الطالب بكلية الحقوق ؛ رواية « الانجار بالأزواج ومثلتها فرقة عبد الله عكاشة فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٧

(١) السفور فى ١٩١٦/٥/١٢

وألف حسين رمزى رواية الضحايا التى مثلتها فرقة جورج أبيض . وكانت أول رواية مصرية تصور بعض أحوال المجتمع المصرى فى ذلك الوقت تمثيلا دقيقاً يتفق مع الواقع .

* * *

وقد كثر العنصر النسائى بين الممثلين فى تلك الفترة . فنزلت إلى الحلبة : منيرة المهدية ، ومارى منيب ، وروز اليوسف ، ونظله مزراحى وغيرهن . واعتبر نزول منيرة المهدية إلى حلبة التمثيل حدثاً خطيراً وفتحا جديدا فى عالم التمثيل المصرى . وذلك لأنها أول امرأة مصرية تشتغل بالتمثيل ، وكانت الممثلات من قبل إسرائيليات ، أو من السوريات واللبنانيات . وكان هذا الحدث الفنى الكبير مزاحمة خطيرة لفرقة أبيض وحجازى ، لأن منيرة جمعت بين التمثيل والغناء . وكان لها عشاق كثيرون ، فتهافتوا على مشاهدة تمثيلها وسماع صوتها الرخيم فى آن واحد ، وقابلوها بعاصفة من التصفيق الحاد المتواصل ، وكان ذلك فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٥ .

فهرست



يطلب فى مصر و الشرق العربى من

دار الفرجانى - ص . ب ٢٣٨٢ مصر الجديدة القاهرة